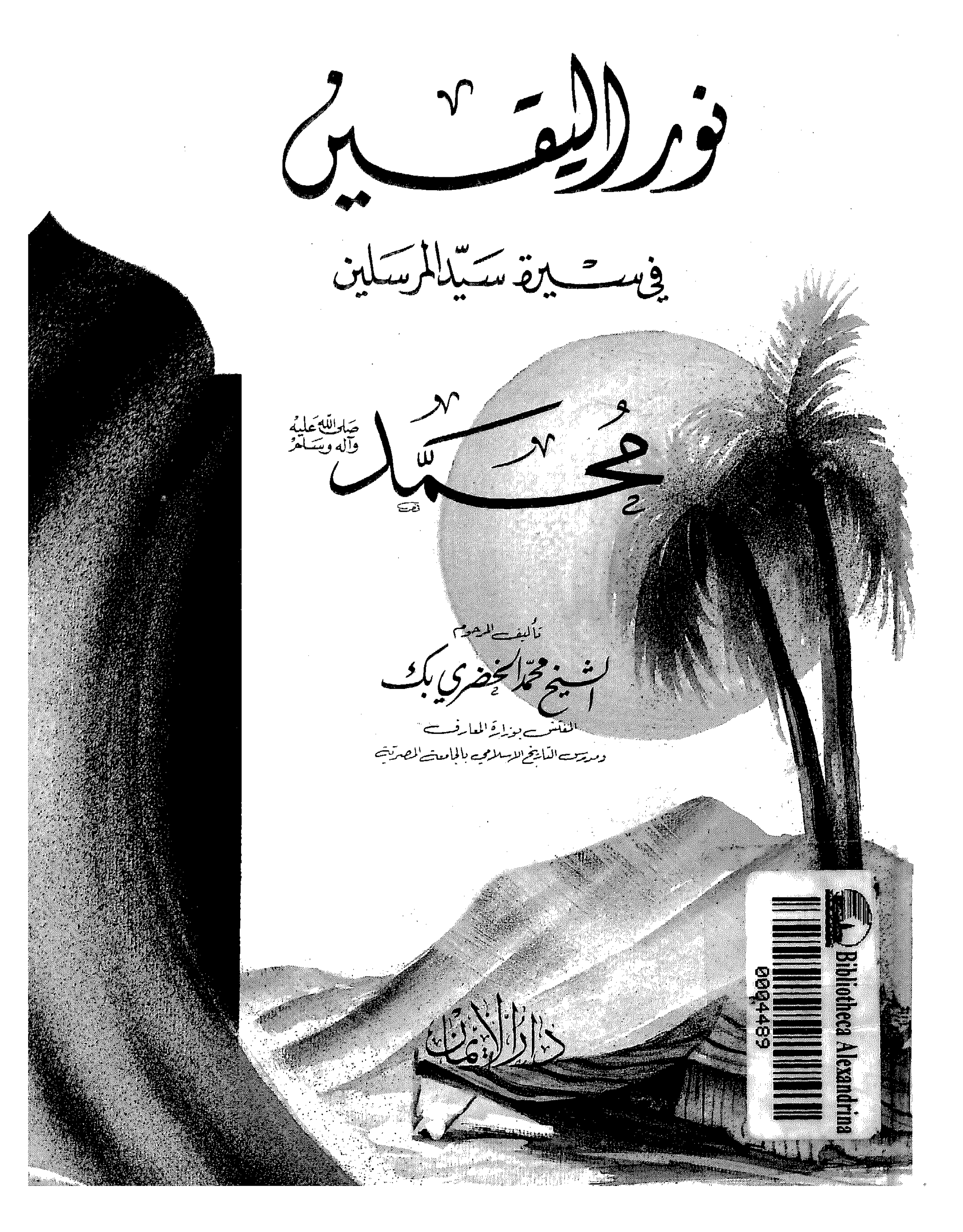

نور اليقين
في سيرة سيد المرسلين
محمد صلى الله عليه وآله وسلم
تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك
المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية
دار الإيمان
Bibliotheca Alexandrina
0004489







بسم الله الرحمن الرحيم

نور اليقين

في سيرة سيد المرسلين





تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك
المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية

تحقيق
حمدي زمزم

دار الإيمان

١٩٨٨

دمشق - سورية - شارع مسلم البارودي
ص.ب: ١٠٠٦٥ دمشق - هاتف: ٢٤٣٣٨٦
بيروت - ص.ب: ١٤/٥٦٣٤ - تلكس: ٢١٦٣٢ أو صاف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله وحده، والصـلاة والسلام على من لا نبي بعـده، سيدنـا محمد المبعوث رحمة للعالمين.

أحمد الله عز وجـل أن قمت بهذا العمـل إيمانـاً مني بأن المسلم لا بد أن يقدم شيئاً لدينه، وذلك بأن يبذل من نفسه وراحته ووقته ما يخدم به دينه ووطنه، وأن يكون إيجابياً في سلوكـه، وأن يطبق المنـاهج التي هدانا إليها رسول الله ﷺ في مراحل الدعوة المختلفة.

وقد قمت بهذا المجهـود المتواضـع، وأرجو أن أكـون قد أسهمت بنصيب متواضع في خدمة أمتنا العربية، والإسلامية.

وما أحوجنا في هذه الظروف لأن نحذو حـذو نبينا محمـد ﷺ فهو قدوتنا وهو إمامنا وهو معلم البشر وخاتم الأنبياء.

ولقـد كـان ﷺ يعلم علم اليقين أنـه جاء إلى الحيـاة الإنسـانيـة ليغيرها، وأنه ليس رسولاً إلى قريش وحدهـا ولا إلى العرب وحـدهم، بل هو رسول الله إلى الناس كافة، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.

كل حياته بطولات، كل حياته جهاد وتضحية.

وكتـاب نور اليقين لمؤلفـه محمد الخضـري من خيـرة الكتب التي كتبت في السيـرة النبويـة. وبما أن الكتـاب يحتـاج الى تعـريف ببعض تـراجم الـرجـال وتخـريـج الآيـات وشـرح العنـاوين وبعض الكلمـات الغامضة.

لذا قمنا بهذا العمل تتميمـاً للفائـدة المبتغاة راجين من الله التـوفيق وحسن الأداء والله من وراء القصد، والحمد لله رب العالمين.



التعريف بمؤلف الكتاب
الشيخ محمد الخضري[1]
١٢٨٩ - ١٣٤٥ هـ
١٨٧٢ - ١٩٢٧ م

ولد المرحوم الشيخ محمد الخضري عام ١٢٨٩ هـ في مصر، وتوفي عام ١٣٤٥ هـ. وهو محمد بن عفيفي الباجوري، وقد تلقى علومه في القاهرة حيث تخرج رحمه الله من مدرسة دار العلوم، وعين بعد تخرجه قاضياً شرعياً في السودان بمدينة الخرطوم، ثم انتقل الى القاهرة مدرساً في مدرسة القضاء الشرعي، وبقي فيها مدة اثنتي عشرة سنة، عين بعدها أستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، وعاد بعدها وكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي، وكان آخر ما شغله من المناصب العلمية أن أصبح مفتشاً في وزارة المعارف.

كان المرحوم الخضري من العلماء الأفذاذ والقضاة النابهين، وكان على جانب كبير من الثقافة الأدبية الى جانب العلوم الشرعية، ولعلنا نلحظ ذلك كله في أسلوبه البارع. وهو بعدُ خطيب مصقع مفوّه، شديد الولوع بالقراءة والمطالعة.

وقد ترك المرحوم آثاراً كثيرة كلها ممتع مفيد. وإليك ثبتاً بهذه المؤلفات: ١ - أصول الفقه، ٢ - تاريخ التشريع الإسلامي، ٣ - مهذب الأغاني (في تسعة مجلدات)، ٤ - محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية والدولة العباسية)، ٥ - محاضرات نقد الشعر الجاهلي. وهو كتاب يرد فيه على الدكتور طه حسين، ويحلل كتابه المذكور. ٦ - الغزالي وتعاليمه وآراؤه. وقد نشر هذا الكتاب فصولاً متتابعة في مجلة المقتطف - المجلد ٣٤، ٧ - نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

(١) عن الأعلام للزركلي، ومعجم المطبوعات بتصرف يسير.

(وهو هذا الكتاب)، ٨ - إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء.

وهناك كتب كثيرة غير ما ذكرنا، ومحاضرات وأبحاث أسهم المرحوم الخضري فيها بخدمة العربية والتراث والتاريخ الإسلامي، فقد كان - طيب الله ثراه - واسع المعرفة، جمّ النشاط، وافر الهمة، صبوراً على الدرس، دائباً على الاطلاع والاستزادة من ضروب العلم.

حمدي زمزم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب للمؤلف

نحمدك يا من أوضحت لنا سبل الهداية، وأزحت عن بصائرنا غشاوة الغواية[1]. ونصلي ونسلم على من أرسلته شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى الأصحاب الذين هجروا[2] الأوطان يبتغون من الله الفضل والرضوان، والأنصار الذين آوَوْا ونصروا وبذلوا لإعزاز الدين ما جمعوا وما أدخروا.

أما بعد: فيقول محمد الخضري ابن المرحوم الشيخ عفيفي الباجوري: كنت أجد من نفسي منذ النشأة الأولى ارتياحاً لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين وأجدها لعقل الإنسان أحسن مهذب وأنصح معلم. وكنت أرى في تاريخ نبينا عليه الصلاة والسلام وما لقيه من أذى قومه حينما دعاهم إلى الحق وعظم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده أعظم مربٍّ لأفكار المسلمين فإنه يدلهم على ما يجب اتباعه وما يلزم اجتنابه ليسودوا[3] كما ساد سابقوهم، وخصوصاً ما يتعلق بالحكام من اجتذاب النفوس النافرة والتأليف بين القلوب المختلفة. وما يتعلق بقواد الجيوش من تأليف الرجال وإحكام المعدات حتى يتم لهم النصر على أعدائهم، وما يتعلق بالعامة من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يداً على من سواهم. فكنت أجد من قراءتها ارتياحاً عظيماً وكانت نفسي كثيراً ما تأسف على ترك المسلمين لها! فقلما أجد من يشتغل بها، ولكني كنت أقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع. فلما قدمت مدينة المنصورة جمعتني النوادي مع محمود بك

---

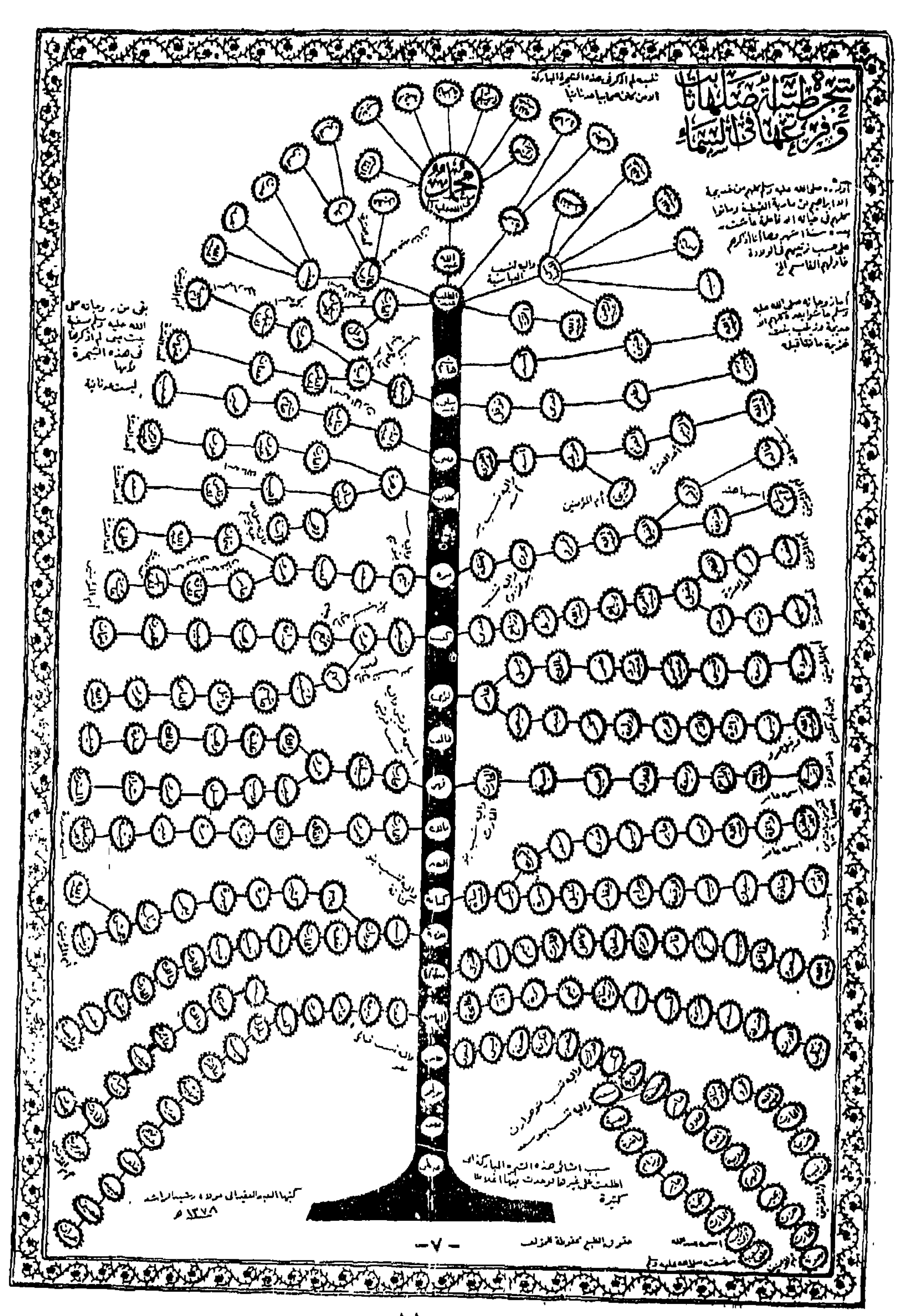
(١) الضلالة.

(٢) المقصود بهم المهاجرين الذين خرجوا من مكة إلى المدينة.

(٣) لينتصروا.

سالم القاضي بمحكمة المنصورة المختلطة فوجدت منه علماً بدينه تقف دونه فحول الرجال وتتأخر عن مسابقته فيه الأبطال، فقلما توضع مسألة دينية إلا وجدته مبرزاً فيها مفصحاً عن الجواب عنها، أما علمه بسيرة الرسول الأكرم ﷺ فعنده منها الخبر اليقين. وكنت كثيراً ما أسمعه يتشوّق لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامة المسلمين فقلت: يا الله! لقد وافق هذا السيد الكريم ما في نفسي، ولكني كنت أرى في عزيمتي قصوراً عن تنفيذ رغبته وتتميم أمنيته فإن المقام عظيم وصعوباته أعظم، ولكن لم أر من الأمر بدّاً تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال المنصورة، فإنهم أكثروا من الأماني لعمل هذا الكتاب العميم النفع الجزيل الفائدة. فقمت معتمداً على الله راجياً منه أن يوفقني لما فيه رضاه، وواصلت السير بالسرى، حتى بلغت المنى، فجاء بحمد الله سهل المنال عذب المورد تنتفع به العامة، وترجع إليه الخاصة. وقد كان موردي في تأليفه: القرآن الشريف وصحيح السنة مما رواه الإمامان البخاري ومسلم ولم أخرج عنهما إلا فيما لا بد من تفهيم العبارات، فكان يساعدني «الشفاء» للقاضي عياض والسيرة الحلبية والمواهب اللدنية للقسطلاني وإحياء علوم الدين للغزالي. هذا، وأسأل الله من فيض فضله أن يوفق أئمتنا وأمراءنا للاقتداء بسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ وإحياء معالم دينه حتى يؤيَّدوا بروح من عند الله. وقد آن أن نشرع فيما قصدناه مستعينين بحول الله فنقول:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾


شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء
- ٧ -



النسب الشريف

السيد الأكرم الذي شرف الناس بوجوده هو محمد ﷺ (ابن عبد الله) من زوجه آمنة بنت وهب الزهرية[١] القرشية (ابن عبد المطلب) من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية[٢] القرشية وكان عبد المطلب شيخاً معظّماً في قريش يصدرون عن رأيه في مشكلاتهم ويقدّمونه في مهماتهم (ابن هاشم) من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية[٣] الخزرجية (ابن عبد مناف) من زوجه عاتكة بنت مرة السلمية[٤] (ابن قصي) من زوجه حُبّى بنت حُليل الخزاعية[٥] وكان إلى قصيّ في الجاهلية حجابة البيت وسقاية الحاج وإطعامه المسمى بالرفادة، والندوة وهي الشورى لا يتم أمر إلا في بيته، واللواء لا تعقد راية لحرب إلا بيده، ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده عبد الدار، لكن بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على ألا يتركوا بني عمهم عبد الدار، يستأثرون بهذه المفاخر وكاد يفضي الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمرَ عقلاءُ الفريقين فأعطوْا بني عبد مناف السقايةَ والرفادة فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب ثم لبنيه من بعده. أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار وأقرَّها لهم الشرع فهي فيهم إلى الآن، وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد

---

(١) من بني زهرة بن كلاب من قريش.

(٢) من بني مخزوم بن يقظة بن مرة من قريش.

(٣) من بني النجار من الخزرج، والخزرج إحدى القبيلتين اللتين كانتا تقيمان بالمدينة وهما الأوس والخزرج وهما أخوان، وسمى رسول الله ﷺ كليهما أنصاراً.

(٤) من بني سليم بن منصور إحدى قبائل قيس عيلان بن مضر.

(٥) من بني خزاعة بن عمرو إحدى قبائل قمعة بن إلياس بن مضر وهم الذين كانوا يتولون البيت قبل قريش.

العُـزّى بن عثمان بن عبـد الدار. وأمـا اللواء فـدام فيهم حتى أبـطله الإسـلام وجعله حقاً للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له وكذلك الندوة. وقصيّ (ابن كلاب) من زوجه فاطمة بنت سعد وهي يمانية من أزْدشَنُوءَة (ابن مـرة) من زوجه هنـد بنت سريـر من بني فهر بن مـالك (ابن كعب) من زوجـه وحشية بنت شيبان من بني فهر أيضاً (ابن لؤيّ) من زوجه أم كعب ماريـة بنت كعب من قضاعة (ابن غـالب) من زوجه أم لؤي سلمى بنت عمـرو والخزاعي (ابن فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنت سعد من هذيل، وفهر هو قـريش ـ في قـول الأكثرين ـ وكـانت قريش اثنتي عشـرة قبيلة: بنـو عبـد منـاف وبنـو عبـد الدار بن قصي، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرّة. وبنو تيم بن مرّة، وبنو عـدي بن كعب. وبنو سهم بن هُصيص بن عمـرو بن كعب، وبنو عـامـر بن لؤي. وبنـو تيم بن غـالـب، وبنـو الحارث بن فهر، وبنو محارب بن فهر. والمقيمون منهم بمكـة يسمون قـريش البطاح والذين بضـواحيها قـريش الظواهـر (ابن مالـك) من زوجه جنـدلة بنت الحرث من جرهم (ابن النضـر) من زوجه عـاتكة بنت عـدوان من قيس عيلان (ابن كنانة) من زوجه برّة بنت مر بن أُدّ (ابن خزيمة) من زوجه عوانة بنت سعد من قيس عيـلان (ابن مـدركـة من زوجـه سلمى بنت أسلم من قضـاعـة (ابن إلياس) من زوجه خندف المضروب بها المثل في الشـرف والمنعة (ابن مُضـر) من زوجه الرباب بنت جندة بن معد (ابن نزار) من زوجه سودة بنت عـك (ابن معد) من زوجه معانة بنت جوشم عن جرهم (ابن عدنان).

هذا هو النسب المتفق على صحتـه من علماء التـاريخ والمحـدِّثين، أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق. غـاية الأمـر أنهم أجمعوا على أن نسب الـرسول ﷺ ينتهي إلى إسمـاعيل بن إبـراهيم أبي العـرب المستعـربـة. نسب شريف كما ترى: آباء طاهرون وأمهات طاهرات، لم يزل عليـه السلام ينتقـل مـن أصـلاب أولئـك إلـى أرحـام هـؤلاء حـتـى اخـتـاره الله هـادياً

مهدياً من أواسط العرب نسباً، فهو من صميم قريش التي لها القدم الأولى في الشرف وعلو المكانة بين العرب، ولا تجد في سلسلة آبائه إلا كراماً ليس فيهم مسترذل بل كلهم سادة قادة، وكذلك أمهات آبائه من أرفع قبائلهن شأناً، ولا شك أن شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوّة، وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعياً بحسب الأصول العربية، ولم ينلْ نسبه شيء من سفاح الجاهلية بل طهرّه الله من ذلك والحمد لله.

زواج عبد الله بآمنة وحملها

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وسنه ثماني عشره سنة، وهي يومئذٍ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً، ولما دخل عليها حملت برسول الله ﷺ، ولم يلبث أبوه أن توفي بعد الحمل بشهرين، ودفن بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار. فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، ولما تمت مدّة حمل آمنة وضعت ولدها، فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذي بث في أرجائه روح الآداب وتمم مكارم الأخلاق، وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان صبيحة يوم الإثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من نيسان سنة ٥٧١ من الميلاد، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل[1]. وكانت ولادته في دار أبي طالب بشِعْب بني هاشم، وكانت قابلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف، ولما ولد أرسلت أمه

---

(١) حادثة شهيرة حصلت بمكة فأرخت بها العرب كعادتهم هم وكل أمة في التاريخ بالأمور المهمة، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحادثة في سورة الفيل، وحاصلها أن ملكاً من ملوك الحبشة الذين امتلكوا اليمن بعد حِمْيَر أغار على مكة وقصد هدم كعبتها، وكان معه فيل عظيم لم تكن العرب رأوا مثله فإكراماً للنبي المنتظر وغيرة على بيته الكريم، جعل الله كيد الأعداء في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارةٍ من سجّيل فجعلهم كعصفٍ مأكول وأراح قريش من عناء مقاومتهم. ا هـ.

لجدّه تبشره فأقبل مسروراً وسماه محمداً[1]، ولم يكن هذا الاسم شائعاً من قبل عند العرب، ولكن أراد الله أن يحقق ما قدّره وذكره في الكتب التي جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل، فألهم جده أن يسميه بذلك إنفاذاً لأمره، وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبد الله وأول من أرضعه ثُوَيْبة أَمة عمه أبي لهب.

الرضاع

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد، وكانوا يقولون: إن المولود المربى في المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة، فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالاً يرضعنهم، فكان هذا الرضيع المحمود من نصيب حليمة بن أبي ذؤيب السعدية، واسم زوجها أبو كبشة، وهو الذي كانت قريش تنسب له الرسول ﷺ حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون: هذا ابن أبي كبشة يُكلّم من السماء. ودرت البركات على أهل ذاك البيت الذي أرضعوه مدّة وجوده بينهم وكانت تربو[2] عن أربع سنوات[3].

حادثة شق الصدر

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهي شَقُّ صدرِه وإخراجُ حظ الشيطان منه، فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فردّته إلى أمه، وحدثتها قائلة: بينما هو وإخوته في بَهْم[4] لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو، فقال لي ولأبيه: ذاك

(١) هناك من العرب من سمى ابنه قبله محمداً طمعاً بالنبوة كما وردت النبوءات في التوراة والإنجيل وهم محمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن أُحَيْحة، ومحمد بن حمران بن ربيعة.
(٢) تزيد.
(٣) السيرة الحلبية.
(٤) البَهْم ج بَهْمَة وهي صغار الغنم.

أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيضٌ فأضجعاه فشقّا بطنه فهما يسوطانه[1]، فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعاً لونه [2] فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: مالك يا بني؟ فقال: جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟؟ قال نعم. فأقبلا يبتدراني فأضجعاني فشقّا بطني، فالتمسا فيه شيئاً، فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو.

وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبي طالب

ثم إنَّ أمه أخذته وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق فماتت بالأبْواء [3] فحضنته أم أيمن، وكفله جده عبد المطلب ورق له رقة لم تعهد له في ولده، لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأناً عظيماً في المستقبل، وكان يكرمه غاية الإكرام، ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول ﷺ، فكفله شقيق أبيه أبو طالب، فكان له رحيماً وعليه غيوراً، وكان أبو طالب مقلاًّ [4] من المال فبارك الله له في قليله، وكان الرسول ﷺ في مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التي يشتغل بها الأطفال عادة، كما روت ذلك أم أيمن حاضنته، فكان إذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما سييسّره الله له.

السفر إلى الشام

لما بلغت سنُّه ﷺ اثنتي عشرة سنة أراد عمه وكفيله السفر بتجارة إلى الشام، فاستعظم الرسول ﷺ فراقه، فرقّ له وأخذه معه، وهذه هي الرحلة

---

(١) يحركانه بسوط.
(٢) شبهاً بالنقع وهو التراب.
(٣) قرية بين مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة.
(٤) فقيراً.

الأولى ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً، وقد أشرف على رجال القافلة وهم بقرب بُصرى[1] بَحِيرا الراهب[2]، فسألهم عما رآه في كتبهم المقدسة من بعثة نبيّ من العرب في هذا الزمن، فقالوا إنه لم يظهر للآن، وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[3]

حرب الفِجَار

ولما بلغت سنه عليه السلام عشرين سنة حضر حربَ الفِجار وهي حرب كانت بين كنانة ومعها قريش، وبين قيس. وسببها أنه كان للنعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة[4] تجارة يرسلها كل عام إلى سوق عكاظ[5] لتباعَ له وكان يرسلها في أمان رجل ذي منعة وشرف في قومه ليجيزها، فجلس يوماً وعنده البرَّاض بن قيس الكناني، وكان فاتكاً خليعاً خلعه قومه لكثرة شرّه، وعروة بن عتبة الرحَّال، فقال: من يجيز لي تجارتي هذه حتى يبلغها عكاظ؟؟ فقال البرَّاض: أنا أجيزها على بني كنانة، فقال النعمان: إنما أريد من يجيزها على الناس كلهم؟ فقال: عروة أَبَيْتَ اللَّعن[6] أكلبٌ خليع يجيزها لك؟ أنا أجيزها على أهل الشِّيح والقَيْصوم من أهل نجد[7] وتهامة[8]. فقال البراض: أو

---

(١) قرية على الحدود بين بلاد الشام وبلاد العرب.

(٢) من النصارى الذين كانوا يؤمنون بالله قبل بعثة النبي ﷺ ويكفرون بالأصنام.

(٣) سورة البقرة: الآية ٨٩.

(٤) بلدة غرب الفرات كان يقيم بها ملك العرب من قبل ملوك فارس، فتحها خالد بن الوليد في السنة الثانية عشرة (راجع إتمام الوفاء).

(٥) سوق كانت تعقدها العرب كل عام لتعرض فيها تجارتها وما قاله فصحاؤها من قصائد الفخر وما أشبه ذلك من مفاخر العرب، وهي أشبه في ذلك بمعارض أوربة الآن.

(٦) تحية عربية ومعناها باعدت كل ما استحق المذمة.

(٧) هو المرتفع من بلاد العرب وهو وسطها.

(٨) هو ما انخفض من سواحل البلاد العربية والشرقي منها يسمى البحرين، والفاصل بين نجد وتهامة الحجاز في الغرب واليمامة في الشرق.

تجيـزها على كنـانة يـا عروة؟ قـال: وعلى الناس كلهم، فـأسـرّهـا في نفسـه وتـربّصَ له، حتى إذا خرج بالتجارة قتله غدراً ثم أرسل رسولاً يخبر قومه كنانة بالخبر ويحذرهم قيساً قوم عروة. وأمـا قيس فلم تلبث بعد أن بلغهـا الخبر أن همت لتـدرك ثأرهـا، حتى أدركوا قـريشاً وكنـانة بنخلة[1] فـاقتتلوا ولمـا اشتـد البأس وحميت قيس احتمت قريش بحرمها وكان فيهم رسول الله. ثم إن قيسـاً قالوا لخصومهم: إنَّا لانترك دم عروة فموعدنـا عكاظ العـام المقبل، وانصـرفوا إلى بـلادهم يحرض بعضهم بعضـاً. فلما حـال الحول جمعت قيس جموعهـا وكانت معها ثقيف وغيرها، وجمعت قريش جموعها من كنانـة والأحابيش وهم حلفاء قريش، وكان رئيس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب، ومعه إخوته أبـو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبي الكريم، وكان على بني أميـة حرب بن أمية، وله القيادة العامـة لمكانـه في قريش شـرفاً وسنـاً. وهكذا كـان على كل بـطن من بطون قـريش رئيس، ثم تناجـزوا الحرب فكـان يومـاً من أشـد أيـام العرب هولاً، ولما استحل فيه من حرمات مكة التي كانت مقدسة عند العـرب سمِّي يوم الفِجار. وكادت الدائـرة تدور على قيس حتى انهـزمَ بعض قبائلهـا، ولكن أدركها من دعا المتحاربين للصلح[2]، على أن يحصوا قتلى الفـريقين، فمن وجـد قتلاه أكثـر أخذ ديـة الزائـد، فكانت لقيس زيـادة أخـذوا ديتهـا من قريش، وتعهد بها حرب بن أمية ورهن لسدادها ولده أبا سفيان. وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبـه حروب العـرب تبدؤهـا صغيرات الأمـور حتى ألّفَ الله بين قلوبهم وأزاح عنهـم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم.

حلف الفُضُول

وعنـد رجوع قـريش من حرب الفِجـار تداعَـوْا لحلف الفضول، فتم في دار عبـد الله بن جُدعـان التَّيْمي أحد رؤسـاء قريش، وكـان المتحـالفـون بني

(١) موضع بين مكة والطائف.

(٢) عتبة بن ربيعة.

هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف وابني أسد بن عبد العُزّى وابني زهرة بن كلاب وابني تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس، إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته. وقد حضر هذا الحلف رسول الله ﷺ مع أعمامه، وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة: «لقد شهدت مع عمومتي حلف في دار عبد الله بن جُدْعان ما أحب لي به حمر النعم[1] ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» وذلك لأنه ﷺ مبعوث بمكارم الأخلاق وهذا منها، وقد أقرّ دين الإسلام كثيراً منها، يرشدك إلى هذا قوله ﷺ: «بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق» وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا.

رحلته إلى الشام المرة الثانية

ولما بلغت سنه ﷺ خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام المرّة الثانية، وذلك أنَّ خديجة بنت خُوَيلد الأسدية[2] كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، فلما سمعت عن محمد ﷺ من الأمانة وصدق الحديث ما لم تعرفه في غيره حتى سماه قومه الأمين، استأجرته ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره، فسافر مع غلامها مَيْسَرة فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيماً، وظهر للنبي الكريم في هذه السفرة من البركات ما حبَّبه في قلب مَيْسَرة غلام خديجة.

زواجه خديجة

فلما قدما مكة ورأت خديجة ربحها العظيم، سُرَّت من الأمين ﷺ وأرسلت إليه تخطبه لنفسها، وكانت سنها نحو الأربعين، وهي من أوسط

---

(١) رد العدوان وإعادة الحق إلى نصابه.

(٢) من بني أسد بن عبد العزى بن قصي.

قريش حسباً وأوسعهم مالاً، فقام الأمين ﷺ مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب فزوَّجها عمُّها. وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم فقال: الحمد الله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرْع إسماعيل وضئضيء[1] معدّ وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه، وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قُلّ فإن المال ظلٌّ زائل وأمر حائل وعارية مستردة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق (كذا) وعلى ذلك تم الأمر. وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة توفي عنها وله منها ولد اسمه هالة وهو ربيب المصطفى ﷺ.

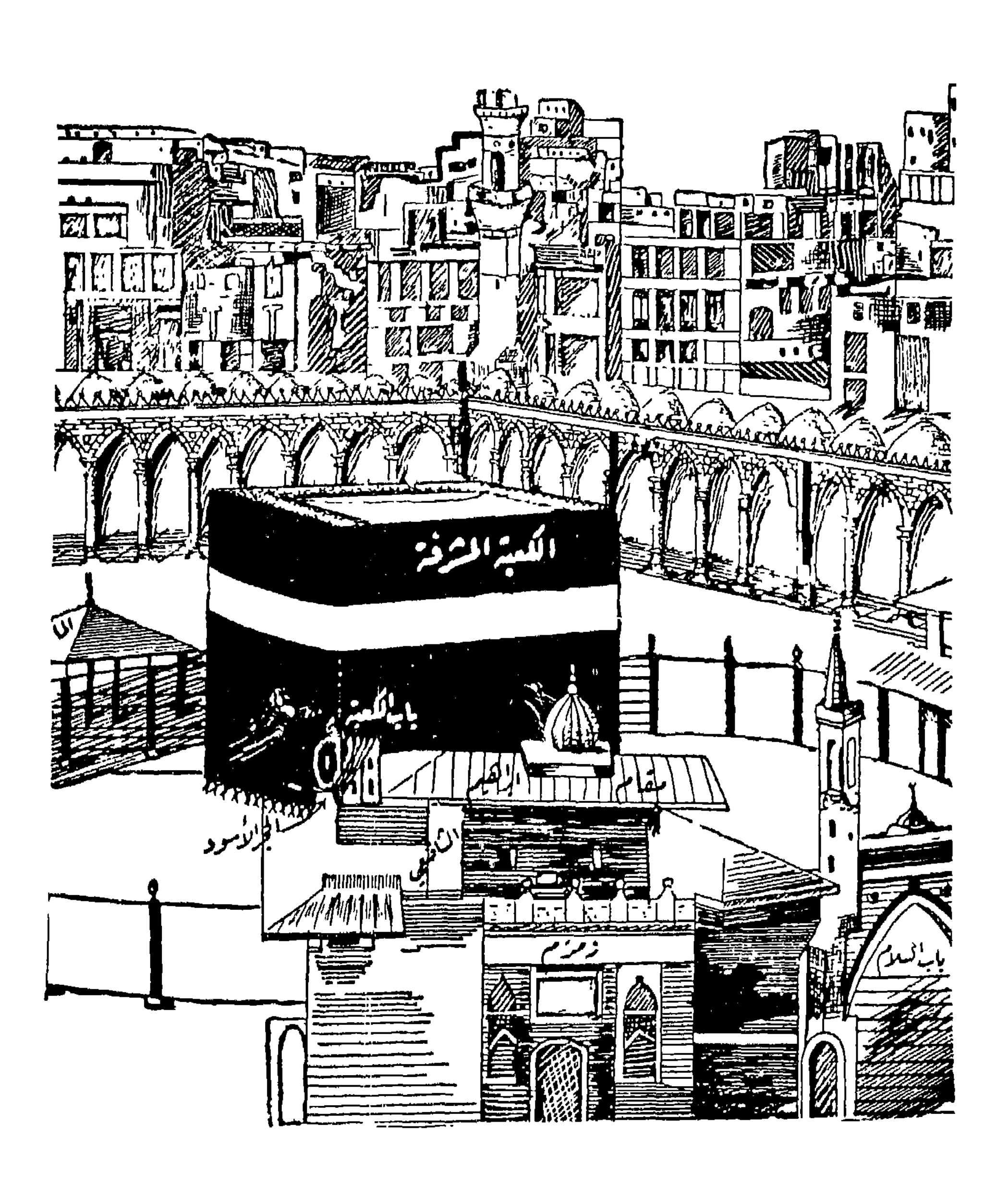
بناء البيت الحرام

ولما بلغت سنه ﷺ خمساً وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل، فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها فإنها كانت رضيمة[2] فوق القامة، فاجتمعت قبائلهم لذلك ولكنهم هابوا هدمها لمكانتها في قلوبهم. فقال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل الإصلاح، قال: إن الله لا يُهلك المصلحين، وشَرَعَ يَهدمُ فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل، وهناك وجدوا صحافاً نقش فيها كثير من الحِكَم على عادة من يضعون أساس بناء شهير، ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين. ثم ابتدؤوا في البناء وأعدّوا لذلك نفقة ليس فيها مهر بغيّ ولا بيع ربا، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم، وكان العباس ورسول الله فيمن يحملون، وكان الذي يلي البناء رومى اسمه باقوم، وقد خصص لكل ركن جماعة من

---

(١) أصل.

(٢) بناء رصيم مبني بالصخر بدون طين ا هـ من أساس البلاغة.



الكعبة المشرفة
باب الكعبة
مقام ابراهيم
الحجر الأسود
الشافعي
زمزم
باب السلام

العظماء ينقلون إليه الحجارة، وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجْر وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على أنه من الكعبة. ولما تم البناء ثماني عشرة ذراعاً بحيث زيد فيه عن أصله تسعُ أذرع ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يُصعد إليه إلاَّ بدرج، أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه فاختلف أشرافهم فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليال، وكان أسنَّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومي عم خالد بن الوليد فقال لهم: يا قوم لا تختلفوا وحكِّموا بينكم من ترضون بحكمه. فقالوا: نَكِلُ الأمر لأول داخل، فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام، فاطمأن الجميع له لما يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث، وقالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد ﷺ لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كانْ لا يداري ولا يماري. فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه فأخذه ووضعه فيه. وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيراً ما يكون أمثالها سبباً في انتشار حروب هائلة بين العرب، لولا أن يمنّ الله عليهم بعاقل مثل أبي أمية يرشدهم إلى الخير، وحكيم مثل الرسول ﷺ، يقضي بينهم بما يرضى جميعهم، ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا، لأن البيتَ قِبلةُ العرب وكعبتهم التي يحجون إليها، فكل عمل فيه عظيم، به الفخر والسادة، وهو أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[1].

وكان يليِ أمره بعد ولد إسماعيل قبيلة جُرْهم، فلما بَغَوْا وظلَموا من دخل مكة، اجتمعت عليهم خُزاعة وأجْلَوهم عن البيت ووليتْه خُزاعة حيناً من الدهر، ثم أخذته منهم قريش في عهد قصي بن كلاب وبسببه أَمِنوا في

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦ - ٩٧.

بلادهم فكانت قبائل العرب تهابهم. وإذا احتمَوْا به كان حصناً أميناً من اعتداء العادين، وامتنَّ الله عليهم بذلك في تنزيله فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[1].

معيشته ﷺ قبل البعثة

لم يرث ﷺ من والده شيئاً، بل وُلد يتيماً عائلاً فاسترضع في بني سعد؛ ولما بلغ مبلغاً يمكنه أن يعمل عملاً كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية، وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط[2] كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه. ووجود الأنبياء في حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لا بدّ منه، لأنهم لو وجدوا أغنياء لألْهتْهم الدنيا وشُغلوا بها عن السعادة الأبدية؛ ولذلك ترى جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد والتباعد عنها، وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك، فكان عيسى عليه السلام أزهدَ الناس في الدنيا، وكذلك كان موسى وإبراهيم. وكانت حالتهم في صغرهم ليست سعة، بل كلهم سواء. تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجاً لمتّبعيهم في الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها، وذلك سبب البلايا والمحن. وكذلك رعاية الغنم، فما من نبي إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق في حديث للبخاري، وهذه أيضاً من بالغ الحكم، فإن الإنسان إذا استرعى الغنم، وهي أضعف البهائم، سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان لما هذب أولاً من الحدّة الطبيعية والظلم الغريزي فيكون في أعدل الأحوال. ولما شبَّ ﷺ كان يتجر، وكان شريكه السائب بن أبي السائب. وذهب بالتجارة لخديجة رضي الله عنها، إلى الشام على جُعْلٍ[3] يأخذه.

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٧

(٢) اسم المكان ولم يرد بذلك القراريط من الفضة.

(٣) الجُعْل بالضم ما جعل للإنسان من شيء على فعل قام به.

ولما شرفت خديجة بزواجه وكانت ذات يسار، عمل في مالها وكان يأكل من نتيجة عمله. وحقق الله ما امتنّ به قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (١). بالإيواء والإغناء قبل النبوة والهداية بالنبوة، هداه للكتاب والإيمان ودين إبراهيم عليه السلام ولم يكن يدري ذلك قبل. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (٢).

سيرته في قومه قبل البعثة

كان ﷺ أحسن قومه خلقاً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تُدنِّس الرجال، حتى كان أفضلَ قومه مروءة، وأكرمهم مخالطة، وخيرَهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهَم حديثاً فسمُّوه الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السديدة من الحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والتواضع، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء. حتى شهد له بذلك ألدُّ أعدائه النضر بن الحارث من بني عبد الدار، حيث يقول: قد كان محمد ﷺ فيكم غلاماً حَدَثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشَّيبَ وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر! لا والله ما هو بساحر، قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذي يحضرون الموسم، حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه. ولما سأل هِرَقْلُ ملك الروم أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقولَ ما قال؟ قال: لا، فقال هِرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله. ورد ذلك في أول صحيح البخاري. وقد حفظه

(١) سورة الضحى: الآيتان ٦ ـ ٨.

(٢) سورة الشورى: آية ٥٢

الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها[1] وبُغِّضت إليه الأوثان بغضاً شديداً حتى ما كان يحضر لها احتفالاً أو عيداً مما يقوم به عُبّادها. وقال ﷺ:

«لما نشأت بُغِّضتْ إليَّ الأوثان وبُغِّض إليَّ الشعر ولم أهتم بشيءٍ مما كانت الجاهلية تفعله إلاَّ مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك. ثم ما همِمْتُ بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته. قلت ليلة لغلام كان يرعى معي لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة اسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك، فضرب الله على أذني فنمت، فما ايقظني إلاّ مسُّ الشمس ولم أقض شيئاً، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك».

وكان ﷺ لا يأكل ما ذُبح على النُّصُبِ[2] وحرَّمَ شُرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه شيوعاً عظيماً، وذلك كله من الصفات التي يحلّي الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقّي وحيه، فهم معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها. أما قبل النبوة فليتأهّلوا للأمر العظيم الذي سيسند إليهم، وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم. عليهم من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

ما أكرمه الله به قبل النبوّة

أول منحة من الله ما حصل من البركاتِ على آل حليمة الذين كان مسترضعاً فيهم، فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجدبين، فلما صار بينهم صارت غُنيماتِهم تؤوب[3] من مرعاها وإن أضراعها لتسيل لبناً ويرحم الله البوصيري حيث يقول في همزيته:

(١) الشفاء للقاضي عياض.

(٢) هي حجارة تنصب وتصب عليها دماء الذبائح وتعبد.

(٣) تعود.

وإذا سخّرَ الإلـه أُناساً لسعيدٍ فإنَّهم سعداءُ

ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره[1] وإخراج حظ الشيطان منه، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى، فمن استبعد ذلك كان قليل النظر لا يعرف من قوة الله شيئاً، لأنَّ خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب. ومن المكرمات الإلهية تسخير الغمامة له في سفره إلى الشام، حتى كانت تظله في اليوم الصائف لا يشترك معه أحد في القافلة، كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذي كان مشاركاً له في سفره، وهذا ما حبَّبه إلى خديجة حتى خطبته لنفسها، وتيقنت أن له في المستقبل شأناً. ولذلك لما جاءته النبوة كانت أسرعَ الناس إيماناً به ولم تنظر آية أخرى زيادة على ما علمته من مكارم الأخلاق وما سمعته من خوارق العادات. ومن مِنَنِ الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار[2] فكان إذا خرج لحاجته أبعدَ حتى لا يرى بناء ويفضي إلى الشِّعاب وبطن الأودية، فلا يمر بحجر ولا شجرة إلّا سمع: الصلاةُ والسلامُ عليك يا رسولَ الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً، وقد حدَّثَ بذلك عن نفسه. وليس في ذلك كبير إشكال، فقد سخر الله الجمادات للأنبياء قبله؛ فعصا موسى التقمت ما صنع سحرةُ فرعون بعد أن تحوَّلت حية تسعى، ثم رجعت كما كانت، ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتي عشرة عيناً، لكل سبط من أسباط بني إسرائيل عين. وكذلك غيره من الأنبياء سخر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات، لتدل العقلاء على عظيم قدرهم وخطارة شأنهم.

تبشير التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذاك الزمن، ونوَّه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم، فمما جاء

(١) حديث شق الصدر صحيح أخرجه مسلم في باب الاسرار ١/١٠١ وأحمد في سنده ٣٥/١٢١.
(٢) السيرة الحلبية.

فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطاباً لسيدنا موسى عليه السلام[١] (وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمي ويكلمهم بكل شيء آمره به ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنتقم منه، فأما النبي الذي يجترىء عليّ بالكبرياء ويتكلم باسمي بما لم آمر به أو باسم آلهة أخرى فليقتل، وإذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك أن ما قاله النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه). ويقول اليهود إنَّ هذه البشارة ليوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام مع أنهم كانوا ينتظرون في مدة المسيح نبياً آخر غير المسيح[٢] فإنهم أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له: أنت إيليا؟ فقال: لا، فقالوا: أنت المسيح؟ فقال: لا، فقالوا: أنت النبي؟ فقال: لا، فقالوا: ما بالك إذاً تعمّد إذا لم تكن إيليا ولا المسيح ولا النبي؟ فهذه تدل على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبي لم يأت حتى زمن المسيح، ثم إن التوراة تقول في صفة النبي إنه مثل موسى وقد نصت في آخر سفر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى، وورد في هذه البشارة أن النبي الذي يفتري على الله يقتل ويشبه ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[٣].

ونبينا ﷺ مكث بين أعدائه الألدّاء من مشركين ويهود ثلاثاً وعشرين سنة يدعوهم فيها إلى الله، ومع ذلك عصمه الله منهم وأنزل عليه تطميناً لخاطره: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[٤].

أكان يُعجزُ اللهَ، وهو القادر على كل شيء، أن يعاقب من ينسب إليه ما لم يقله، وهو الذي قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ

(١) الإصحاح الثامن: سفر التثنية.
(٢) الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا.
(٣) سورة الحاقة: الآيتان ٤٤ ـ ٤٦. (الوتين): عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٤) سورة المائدة: آية ٦٧.

قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[1]

وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التي نعرف بها صدق النبي من كذبه وهي الإخبار بما سيأتي، وقد أخبر النبي ﷺ عن أشياء كثيرة فحدثت كما أخبر عنها، ومنها ما لا ينفع منه الحَدْس والتخمين، كالإخبار بأن الروم سَيْغْلِبون بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً، حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة ملكهم، فالإخبار إذاً بأن الروم سيردون ما فقد منهم بعد بضع سنين لا يكون إلاَّ من عند الله، ولذلك استغربه جداً بعض المشركين من قريش، وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حقق الله الخبر فاستحقّ الصدِّيق الرهن. وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله إن شاء الله تعالى.

وروى القاضي عياض في الشفاء أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله ﷺ فقال: أجل!! والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[2]

«وحرزاً للأُميِّين أنت عبدي ورسولي سمَّيتك المتوكل ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخّاب[3] في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلاَّ الله ويفتح به أعيناً عُمْياً وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلْفاً».

وروي مثله عن عبد الله بن سلام[4] رضي الله عنه وهو الذي كان رئيس اليهود، فلم تُعْمِه الرياسة حتى يترك الدين القويم، وكذلك كعب الأحبار وفي بعض طرق الحديث: ولا صخّابٍ في الأسواق ولا قوّالٍ للخنا[5]، أُسدّده

---

(١) سورة الشورى: آية ٢٤.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٤٥.

(٣) شديد الصوت.

(٤) اسمه قبل الإسلام الحصين بشره رسول الله ﷺ بالجنة.

(٥) الفحش.

لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأُسمِّي به بعد النكرة، وأكثر بـه بعد القلة، وأغني بـه بعد العيلـة، وأجمع بـه بعـد الفرقـة، وأؤلف به بين قلوب مختلفـة، وأهـواء متشتتـة، وأمم متفـرقـة، وأجعل أمته خيـر أمة أُخـرجت للناس. وقـد أخبر عليـه السلام عن صفتـه في التوراة فقال وهو الصادق الأمين: عبـدي أحمد المختـار مولـده مكة ومهـاجره بالمدينة ـ أو قال طَيْبة ـ وأمته الحمّادون الله على كل حال.

تبشير الإنجيل

بشَّر عيسى عليه السـلام قومـه في الإنجيل بـالفارقليط ومعنـاه قريب من محمد أو أحمد ويصدّقه في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾(١).

وقد وصف المسيح هـذا الفارقليط بـأوصاف لا تنـطبق إلا على نبينا ﷺ فقال: إنه يوبخ العالم على خطيئته وإنه يعلّمهم جميع الحق، لأنه ليس ينـطق من عنده، بل يتكلم بكـل ما يسمـع، وهذا مـا ورد في القرآن الكـريم: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾(٢)

وقد ورد في إنجيل بـرنابـا الذي ظهـر منذ زمن قـريب وأخفته حجب(٣) الجهالة: ذكر اسم الرسول ﷺ صراحة.

---

(١) سورة الصف: آية ٦.

(٢) سورة النجم: الآيتان ٣، ٤.

(٣) ترجم إلى العربية وهو الآن مطبوع بمصر.

حركة الأفكار قبل البعثة

وهذا يسهِّل لك فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبيل البعثة، فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظر. فقد حدَّث عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إنما دعانا للإسلام - مع رحمة الله تعالى لنا - ما كنا نسمع من أحبار يهود، كنَّا أهلَ شركٍ وأصحابَ أوثان، وكانوا أهلَ كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عادٍ وإرَم. فكثيراً ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث الله رسوله محمداً ﷺ أجبنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنَّا وكفروا، (وإنما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وإرم لأن من صفته ﷺ في كتبهم أنَّ هذا النبي يستأصل المشركين بالقوة ولم يكونوا يظنون أنَّ الحسدَ والبغيَ سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيِّم فيحق عليهم العذاب في الدنيا والآخرة). وكان أمية بن أبي الصلت المتنصر العربي كثيراً ما يقول: إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا. وحدَّث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن نفسه أنه صحب قسِّيساً فكان يقول له يا سلمان أن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد يخرج من جبال تهامة علامته أن يأكل[1] الهدية ولا يأكل الصدقة، وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان. ولما راسل ﷺ ملوك الأرض لم يُهِنْ كتابَه إلا كسرى الذي ليس عندهم علم من الكتاب، وأما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وقيصر ملك الروم، فأكرموا وفادة رسله. ومنهم من آمن كالنجاشي، ومنهم من ردّ رداً لطيفاً وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر، ومنهم من هادى كالمقوقس. ولم يكن ﷺ في قوة يُرهب بها هؤلاء الملوك، اللهم ما ذاك إلاَّ لأنهم يعلمون أنَّ المسيحَ عليه السلام بَشَّرَ برسولٍ يأتي من بعده، ووافقت صفاتُ رسولنا ما عندهم فأجابوا بالَّتي هي أحسن،

(١) يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة.

وأما ما سُمع من الهواتف والكهان قبيل زمنه، فهو ما لا يدخل تحت حصر وليس بعد ما ذكرته لك زيادة لمستكثر. ومع ذلك كله فالأعمال التي جاد الله بها على يديه والأقوال التي أتانا بها أعظم مقوٍّ لحجته ومؤيد لدعوته. وسيأتي عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمله ترشد. هداك الله الى الصراط السويّ.

بدء الوحي

لما بَلَغَ عليه السلام سن الكمال وهي أربعون سنة، أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، وكان ذلك في أول شباط سنة ٦١٠ من الميلاد كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكي تبين بعد دقة البحث أن ذلك كان في ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة وذلك يوافق يوليو (تموز) سنة ٦١٠ وأول ما بدء به الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصباح، وذلك لما جرت به عادة الله في خلقه من التدريج في الأمور كلها حتى تصل إلى درجة الكمال. ومن الصعب جداً على البشر تلقّي الوحي من الملك لأول مرة، ثم حُبِّب إليه عليه السلام الخَلاء ليبتعد عن ظلمات هذا العالم وينقطع عن الخلق إلى الله، فإن في العزلة صفاء السريرة. وكان يخلو بغار[1] حِراء فيتعبَّد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشراً، وتارة أكثر إلى شهر. وكانت عبادته على دين أبيه إبراهيم عليه السلام ويأخذ لذلك زاده، فإذا فرغ رجع الى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق[2] وهو في غار حِراء. فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل، إذ ظهر له شخص وقال له: أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة. ثم قال له: اقرأ قال ما أنا بقارىء، فإنه عليه السلام أميّ لم يتعلم القراءة قبلاً. فأخذه فغطّه بالنمط الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء فأخذه فغطّه ثانية ثم أرسله، فقال: اقرأ قال: ما أنا بقارىء، فأخذه فغطّه ثالثة، ثم أرسله، فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) جبل على مقربة من مكة.

(٢) الملك.

خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[1] .

فرجع ﷺ يرجف فؤاده مما ألمَّ به من الروع الذي استلزمته مقابلة الملك لأول مرة، فدخل على خديجة زوجه، فقال: زمّلوني[2] زمّلوني، لتزول عنه هذه القُشَعْريرة، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي؛ لأن الملك غطه حتى كاد يموت. ولم يكن ﷺ علم قبل ذلك بجبريل ولا بشكله فقالت: كلا! والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك. ولتتأكد خديجة مما ظنته أرادت أن تتثبت ممن لهم علم بحال الرسل ممن اطلعوا على كتب الأقدمين، فانطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عم خديجة، وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك، فقال يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس[3] الذي نزّل الله على موسى، لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل، ثم قال: يا ليتني فيها جَذَعاً (شاباً جلْداً) إذ يخرجك قومك من بلادك التي نشأت بها لمعاداتهم إياك وكراهيتهم لك، حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم، فاستغرب ﷺ ما نسب لقومه مع ما يعرفه من حبهم له لاتصافه بمكارم الأخلاق وصدق القول حتى سموه الأمين وقال: أوَ مُخْرِجيَّ هم؟ قال: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي. وقد نطق بذلك القرآن الكريم.

---

(١) سورة العلق: آية ١.

(٢) لفوني في ثوبي.

(٣) الناموس في الأصل صاحب سر الملك والرواية هنا جبريل عليه السلام لأن الله خصه بالوحي والغيب (النهاية).

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾[1].

ولتمام تصديق ورقة برسالة الرسول الأكرم ﷺ قال: وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً (معصداً) ثم لم يلبث ورقة أن توفي.

فترة الوحي

وفترة الوحي مدة لم يتفق عليها المؤرخون، وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوماً، ليشتد شوق الرسولﷺ للوحي، وقد كان. فإن الحال اشتد به عليه السلام حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يرمي نفسه منها حذراً من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى وهي اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه فيتبدى له الملك قائلاً: أنت رسول الله حقاً فيطمئن خاطره ويرجع عما عزم عليه حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين فعاد إليه الوحي.

عود الوحي

فبينما هو يمشي[2] إذ سمع صوتاً فرفع إليه بصره فإذا الملك الذي جاءه بحِراء جالس بين السماء والأرض، فرعب منه لتذكر ما فعله في المرة الأولى، فرجع وقال: دثّروني دثّروني. فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾[3]. **حذِّر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عن غيِّهم وما كان يعبد آباؤهم** ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ خصه بالتعظيم ولا تشركْ معه في ذلك غيره ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ .لتكون مستعداً للوقوف بين يدي الله، إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذراً نجساً ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ أي اهجر أسباب الرجز وهو العذاب

---

(١) سورة إبراهيم: آية ١٣.

(٢) حديث رواه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله غزا تسع عشرة غزوة مات بالمدينة عمره ٩٤ سنة. وأخرج الحديث البخاري ومسلم في باب بدء الوحي.

(٣) سورة المدثر: آية ١.

بأن تطيع الله وتنفذ أمره ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ ولا تهبْ أحداً هبة وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب أكثر مما وهبت، فهذا ليس من شأن الكرام ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾. على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى الله.

الدعوة سرّاً

فقام ﷺ بالأمر ودعا لعبادة الله أقواماً جفاة لا دين لهم، إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا حجة لهم إلا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطاً بالعزة والأنفة، وهو الذي كثيراً ما كان سبباً في الغارات والحروب وإهراق الدماء فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه. فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان، ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر كيلا تسلب منه عظمته. وكان أول من سطع عليه نور الإسلام خديجة بنت خويلد زوجه[١]، وعلي بن أبي طالب ابن عمه[٢] وكان مقيماً عنده يطعمه ويسقيه ويقوم بأمره لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة، وكان أبو طالب مقلاً كثير الأولاد، فقال ﷺ لعمه العباس بن عبد المطلب: إنَّ أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة، فانطلق إليه لنخفِّف من عياله تأخذ واحداً وأنا واحداً، فانطلقا وعرضا عليه الأمر، فأخذ العباس جعفر بن أبي طالب وأخذ عليه السلام علياً فكان في كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة وقد ناهز[٣] الاحتلام فكان تابعاً للنبي في كل أعماله، ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان واتباع الهوى، وأجاب أيضاً زيد بن حارثة[٤] بن شرحبيل الكلبي مولاه عليه الصلاة والسلام وكان يقال له زيد بن محمد، لأنه لما اشتراه أعتقه وتبنّاه، وكان المتبنى معتبراً كابن

---

(١) أول المؤمنين من النساء.

(٢) أول المؤمنين من الفتيان أسلم وله من العمر عشر سنوات.

(٣) بلغ الاحتلام.

(٤) أول المؤمنين من الموالي.

حقيقيٌّ يرث ويُورث، وأجابت أيضاً أم أيمن حاضنته التي زوَّجها لمولاه زيد. وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر بن أبي قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرة التيمي القرشي، كان صديقاً لرسول الله ﷺ قبل النبوة يعلم ما اتصف به من مكارم الأخلاق ولم يعهد عليه كذباً منذ اصطحبا، فأول ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق وقال: بأبي أنت وأُمي، أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. كان رضي الله عنه صدراً معظماً في قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق، وكان من أعف الناس سخياً يبذل المال محبباً في قومه حسن المجالسة، ولذلك كله كان من رسول الله ﷺ بمنزلة الوزير، فكان يستشيره في أموره كلها وقال في حقه: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر». وكانت الدعوة إلى الإسلام سراً حذراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا، فيصعب استسلامهم. فكان عليه السلام لا يدعو إلا من يثق به.. ودعا أبو بكر إلى الإسلام من يثق به من رجال قريش فأجابه جمع:

(منهم) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي، ولما علم عمه الحَكَم بإسلامه أوثقه كتافاً وقال: ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدَث!! والله لا أحلُّك حتى تدع ما أنت عليه، فقال عثمان: والله لا أدعه ولا أفارقه. فلما رأى الحكَم صلابته في الحق تركه، وكان كهلاً يناهز الثلاثين من عمره.

(ومنهم) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي وأمه صفية بنت عبد المطلب، وكان عم الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع إلى دين آبائه، فقواه الله بالثبات، وكان شاباً لا يتجاوز سن الاحتلام.

(ومنهم) عبد الرحمن بن عوف بن عبد مناف بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الهاشمي وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو، فسماه عليه السلام عبد الرحمن.

(ومنهم) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري القرشي. ولما علمت أمه حَمْنة بنت أبي سفيان بن أمية بإسلامه، قالت له: يا سعد بلغني أنك قد صبأت[1]! فوالله لا يظللني سقف من الحر والبرد، وإن الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد، وبقيت كذلك ثلاثة أيام فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه أمر أمه فنزل في ذلك تعليماً، قول الله تعالى في سورة العنكبوت ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2]. وصّاه جلّ ذكره بوالديه وأمره بالإحسان إليهما مؤمنَيْن كانا أو كافريْن، أما إذا دعوَاه للإشراك فالمعصية متحتمة. لأن كل حق، وإن عظُم، ساقط هنا، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم قال: إليّ مرجعكم مَن آمن منكم ومن أشرك فأجازيكم حق جزائكم. وفي ختام هذه الآية فائدتان: التنبيه على أن الجزاء إلى الله، فلا تحدّث نفسك بجفوتهما لإشراكهما، والحض على الثبات في الدين لئلا ينال شرّ جزاء في الأخرى.

(ومنهم) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي القرشي، وقد كان عرف من الرهبان ذكر الرسول وصفته، فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به، ورأى الدين متيناً بعيداً عما عليه العرب من المثالب، بادر إلى الإسلام.

(وممن) سبقوا إلى الإسلام صهيب الرومي [3] وكان من الموالي، وعمار بن ياسر العنسي. وقد قال رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر، وكذلك أسلم أبوه ياسر وأمه سُميَّة.

---

(١) صبأ: خرج من دينه إلى دين آخر.

(٢) سورة العنكبوت: آية ٨.

(٣) تحمل من أجل إسلامه أشد أنواع العذاب وافتدى نفسه بماله كله عندما منعته قريش من الهجرة.

(ومن) السابقين الأولين عبد الله بن مسعود[1] كان يرعى الغنم لبعض مشركي قريش، فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو إليه الإسلام من مكارم الأخلاق، ترك عبادة الأوثان ولزم رسول الله ﷺ، وكان رضي الله عنه كثير الدخول على الرسول لا يحجب ويمشي أمامه ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ويلبسه نعليه إذا قام، فإذا جلس أدخلهما في ذراعيه.

(ومن) السابقين الأولين أبو ذر الغفاري[2] وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث، ولما بلغه مبعث رسول الله قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائْتني. فانطلق الأخ حتى قدم مكة وسمع من قول الرسول ﷺ ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاماً ما هو بالشعر، فقال ما شفيتني مما أردت. فتزود وحمل قربة له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله ﷺ، حتى إذا أدركه الليل رآه عليّ فعرف أنه غريب فأضافه عنده، ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شيء (على قاعدة الضيافة عند العرب لا يسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث) فلما أصبح احتمل قربته وزاده إلى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه فمرّ به عليّ فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله الذي أُضيف به بالأمس؟ فأقامه فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء. حتى إذا كان اليوم الثالث عاد عليّ مثل ذلك ثم قال له عليّ: ألا تحدثني ما الذي أقْدمَك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل فأخبره، قال: فإنه حق وهو رسول الله ﷺ فإذا أصبحت فاتبعني فإني إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأني أريق الماء، فإن

---

(١) سادس من أسلم، وقد قال فيه رسول الله ﷺ: من أحبَّ أن يسمع القرآن غضّاً كما أنزل فليسمعْه من ابن أمّ عبد.

(٢) اسمه جُنْدب بن جنادة، أسلم في الأيام الأولى للدعوة، كان ترتيبه السابع.

مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل. فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبي ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري، قال: والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظَهْرانيهم. فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه وأتى العباس فأكبَّ عليه وقال: ويلكم أو لستم تعلمون أنه من غفار؟ وأنّ طريق تجارتكم إلى الشام عليه! فأنقذه منهم. ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه فأكب العباس عليه (رواه البخاري). كان رضي الله عنه من أصدق الناس قولاً وأزهدهم في الدنيا.

(ومن) السابقين سعيد بن زيد العدوي القرشي وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، وأمّ الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب، وعُبَيْدة بن الحارث بن عبد[1] المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله ﷺ، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي القرشي ابن عمة رسول الله ﷺ وزوجه أمّ سلمة، وعثمان بن مظعون[2] الجمحي القرشي وأخوه قُدامة وعبد الله، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي القرشي.

(ومن) السابقين الأولين خالد بن سعيد بن العاص[3] بن أمية بن عبد شمس الأموي القرشي. كان أبوه سيد قريش إذا اعتمَّ لم يعتمَّ قرشي إجلالاً له، وكان خالد بن سعيد قد رأى في منامه أنه سيقع في هاوية فأدركه رسول الله وخلصه منها، فجاء إليه وقال إلامَ تدعو يا محمد؟ قال: أدعوك الى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، والإحسان إلى والديك، وألّا تقتل ولدك خشية الفقر، وألّا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وألّا تقتل نفساً حرّم الله قتلها

---

(١) الصحيح هو عبيدة بن الحارث بن المطلب. (الإصابة).

(٢) من السابقين وهو أول المهاجرين وفاة بالمدينة، كما كان أول المسلمين الذين دفنوا بالبقيع.

(٣) من الرعيل الأول، استشهد في موقعة مرج الصفر في الشام رضي الله عنه.

إلا بـالحق، وألّا تقرب مـال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشـدّه، وأن تـوفي الكيل والميـزان بالقسط، وأن تعـدل في قولـك ولـو حكمت على ذوي قُرباك، وأن توفي لمن عاهدت. فأسلم رضي الله عنه وحينئذ غضب عليـه أبوه وآذاه حتى منعـه القوت، فـانصـرف إلى رسـول الله ﷺ، فكـان يلزمـه ويعيش معه، ويغيب عن أبيه في ضواحي مكة. وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد.

وهكـذا دخـل هؤلاء الأشـراف في دين الإسـلام، ولـم يكـن مـع رسول الله ﷺ سيف يضرب به أعناقهم حتى يـطيعوه صـاغرين، وليس معـه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم وذوي الثـروة منهم ويتبعوا الـرسول ليأكلوا من فضل ماله، بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منـه عليه السـلام كأبي بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم، والذين اتبعوه من الموالي اختـاروا الأذى والجوع والمشقات مع اتباع الرسول بحيث لو اتبعوا سـادتهم لكانـوا في هذه الدنيا أهدأ بـالاً وأنعم عيشة، اللهم ليس ذلـك إلا من هدايـة الله وسطوع أنوار الدين عليهم، حتى أدركوا ما هم عليـه من الضلالـة وما عليـه رسول الله من الهدى.

الجهر بالتبليغ(١)

مضت كل هذه المدة والنبي عليه الصلاة والسلام يظهر الدعوة في مجامع قـريش العموميـة. ولـم يكن المسلمون يتمكنـون من إظهار عبـادتهم حذراً من تعصب قـريش، فكـان كـل من أراد العبـادة ذهب إلى شعـاب مكـة يصلي مستخفياً. ولما دخل في الدين ما يربوا على الثلاثين، وكان من اللازم اجتماع الرسول ﷺ بهم ليرشدهم ويعلمهم، اختار لذلـك دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ وهو ممن ذكرنا إسلامهم ـ ومكث عليه السلام يدعو سـراً حتى نزل عليـه قولـه تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(٢). فبدل الـدعوة سـراً

(١) جهر النبي بالدعوة بعد ثلاث سنين من النبوة.

(٢) سورة الحجر: آية ٩٤.

بالدعوة جهراً، ممتثلاً أمر ربه واثقاً بوعده ونصره. فصعد على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر يا بني عديّ لبطون قريش، فجعل الرجل إذا لم يستطع ان يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب قريشاً فقال عليه السلام، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدِّقيَّ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله في شأنه ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝ ﴾[1] والقصد من حمل الحطب المشي بالنميمة، لأنها كانت تقول على رسول الله الأكاذيب في نوادي النساء. ثم نزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[2] وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾[2] أي العشيرة والأقربون ﴿ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2] فجمعهم عليه السلام وقال لهم: إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتُنَّ كما تنامون ولتبعثُنَّ كما تستيقظون ولتحاسبُنَّ بما تعلمون ولتجزُونَّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنةٌ أبداً أو لنارٌ أبداً. فتكلم القوم كلاماً ليناً غير عمه أبي لهب الذي كان خصماً لدوداً، فإنه قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب، فإن سلَّمتموه إذن ذللتم، وإن منعتموه قتلتم. فقال أبو طالب: والله لنمنعنّه ما بقينا، ثم انصرف الجمع.

ولما جهر رسول الله ﷺ بالدعوة سخرت منه قريش، واستهزأوا به في مجالسهم، فكان إذا مرَّ عليهم يقولون: هذا ابن أبي كبشة يُكلَّمُ من السماء! وهذا غلام عبد المطلب يكلَّم من السماء لا يزيدون على ذلك، فلما عاب

---

(١) سورة المسد.

(٢) سورة الشعراء. الآيتان ٢١٤ ـ ٢١٦.

آلهتهم وسفَّه عقولهم وقال لهم: والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم، ثارت في رؤوسهم حميَّة الجاهلية غيرةً على تلك الآلهة التي كان يعبدها آباؤهم، فذهبوا إلى عمه أبي طالب سيِّد بني هاشم، الذي أخذَ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه، فطلبوا منه أن يُخليَ بينهم وبينه أو يكفَّه عما يقول، فردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله لما يريده لا يصدُّه عن مراده شيء. فتزايد الأمر وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله ﷺ وحثَّ بعضهم بعضاً على ذلك، ثم مشَوا إلى أبي طالب مرةً أخرى وقالوا له: إنَّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلة منّا، وإنَّا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا لا نصبر على هذا من شَتْمِ آبائنا وتسفيهِ عقولنا وعَيْبِ آلهتنا، فإنهم كانوا إذا احتجوا بالتقليد في استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خُلقت له، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٣) وقال تعالى في بيان حجتهم الداحضة: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾(٤) ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم في هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد قال: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(٥). فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم، جرّ ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية، فهاج ذلك

(١) سورة البقرة: آية ١٧٠.

(٢) سورة المائدة: آية ١٠٤.

(٣) سورة لقمان: آية ٢١

(٤) سورة الزخرف: آية ٢٣.

(٥) سورة الزخرف: آية ٢٤.

أضغانهم، وقالوا لأبي طالب: إما أن تكفه أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا فعظُم على أبي طالب فراق قومه، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه، فقال له: يا ابن أخي إن القوم جاؤوني فقالوا لي كذا، فأبق على نفسك ولا تُحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن الرسول أن عمَّه خاذله فقال: والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري[1] على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يُظهره الله أو أهلِكَ دونه، ثم بكى وَوَلّى. فقال أبو طالب: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه، فقال: اذهب فقل ما أحببت والله لا أُسلمك.

الإيذاء

ورأى رسول الله ﷺ من المشركين كثيرَ الأذى وعظيمَ الشدة، خصوصاً إذا ذهب الى الصلاة عند البيت، وكان من أعظمهم أذى لرسول الله جماعة سُمُّوا لكثرة أذاهم بالمستهزئين.

(فأولهم) وأشدهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، قال يوماً: يا معشر قريش إنَّ محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسَبِّ آبائكم، إني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجَرٍ لا أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته رضَخْتُ به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني فليصنع به بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا عليه السلام كما كان يغدو إلى صلاته وقريش في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد عليه السلام احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً مُنتقَعاً لونهُ من الفزع، ورمى حجره من يده، فقام إليه رجال من قريش، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم، فلما دنوت منه عَرَضَ لي فحل من الإبل[2] والله ما رأيت مثله قطُّ، هَمَّ بي أن

(١) كناية عن ملك الدنيا بأجمعها.

(٢) فحل جمع فحول والفحل وهو الذكر من كل حيوان.

يأكلَني! فلما ذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ قال ذاك جبريل ولو دنا لأخذه، وكان أبو جهل كثيراً ما ينهى الرسولَ عن صلاته في البيت فقال له مرة بعد أن رآه يصلي: ألَم أنهك عن هذا؟ فأغلظ له رسول الله القول وهدده فقال أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فأنزل الله تهديداً له: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾[1].

ومن أذِيَّتِهِ للرسول ما حكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخاري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد وهو يصلي، فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى فَرْث جزور[2] بني فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد؟ فقام عقبة بن أبي مُعيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبي ﷺ وهو ساجد، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه، لضعفهم عن مقاومة عدوهم، ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجداً، حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر ورمتْه، فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال: اللّهم عليك بالملإ من قريش وسمَّى أقواماً، قال ابن مسعود: فرأيتهم قُتلوا يوم بدر.

ومما حصل لرسول الله ﷺ مع أبي جهل أنَّ هذا ابتاع أجمالاً من رجل يقال له الإراشي فمطله بأثمانها، فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله فدلوه على رسول الله ﷺ لينصفه من أبي جهل استهزاءً، لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول، فتوجه الرجل إليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل، فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال: مَنْ هذا؟ قال: محمد، فخرج منتقعاً لونه، فقال له الرسول ﷺ: أعط هذا حقه، فقال أبو جهل لا تبرح[3] حتى تأخذه، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دَيْنَهُ. فقالت

(١) سورة العلق: آية ١٥ ـ ١٩.

(٢) الأحشاء الداخلية.

(٣) لا تغادر.

قريش: ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مِثل ما صنعت! قال: ويلكم والله ما هو إلا أن ضرب على بابي حتى سمعت صوتاً مُلئتُ منه رُعباً، وإنَّ فوق رأسي فحلاً من الإبل ما رأيت مثله.

(ومن جماعة المستهزئين) أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، كان أشد عليه من الأباعد، فكان يرمي القذر على بابه لأنه كان جاراً له، فكان الرسول يطرحه ويقول: يا بني عبد مناف أي جوارٍ هذا!؟ وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية، فكانت كثيراً ما تسبُّ رسول الله ﷺ وتتكلم فيه بالنمائم[1] وخصوصاً بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة أبي لهب.

(ومن المستهزئين) عقبة بن أبي معيط كان الجار الثاني لرسول الله وكان يعمل معه كأبي لهب صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله، فقال عليه السلام: والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهَّد، فبلغ ذلك أُبيِّ بن خلف الجمحي القرشي وكان صديقاً له، فقال: ما شيء بلغني عنك؟ قال: لا شيء، دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهَدت له. قال أُبيّ: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه وتبزق في وجهه وتلطم عينه، فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[2]. ومن أشد ما صنعه ذلك الشقي برسول الله ﷺ ما رواه البخاري في صحيحه قال: بينما النبي يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله ﷺ، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ

---

(١) النمائم، جمع مفردها نميمة. والنمام هو الذي ينمي السوء بين الناس.
(٢) سورة الفرقان: الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.

وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[1].

(ومن جماعة المستهزئين) العاص بن وائل السَّهْمي القرشي والد عمرو بن العاص، كان شديدَ العداوة لرسول الله ﷺ، وكان يقول: غرَّ محمد أصحابه أن يحْيَوْا بعد الموت، والله ما يُهلِكنا إلا الدهر. فقال الله رداً عليه في دعواه: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[2] وكان عليه دين لخبَّاب بن الأرتّ أحد رجال المسلمين فتقاضاه إياه، فقال العاص: أليس يزعم محمد هذا الذي أنت على دينه أنَّ في الجنة ما يبتغي أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟ قال خَبَّاب: بلى! قال فأنظرني إلى هذا اليوم فسأوتى مالاً وولداً وأقضيك دَيْنك. فأنزل الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾[3].

(ومن جماعة المستهزئين) الأسود بن عبد يغوث الزهري القرشي من بين زهرة أخوال رسول الله، كان إذا رأى أصحاب النبي مقبلين يقول: قد جاءكم ملوك الأرض، استهزاءً بهم لأنهم كانوا متقشفين: ثيابهم رثة، وعيشهم خشن، وكان يقول لرسول الله سخريةً: أما كُلِّمت اليوم من السماء؟

(ومنهم) الأسود بن عبد المطلب الأسدي ابن عم خديجة، كان هو وشيعته إذا مرَّ عليهم المسلمون يتغامزون، وفيهم نزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾[4].

(ومنهم) الوليد بن المغيرة عمٍّ أبي جهل، كان من عظماء قريش وفي

---

(١) سورة غافر: آية ٢٨.
(٢) سورة الجاثية: آية ٢٨.
(٣) سورة مريم: الآيتان ٧٨ ـ ٨٠.
(٤) سورة المطففين: آية ٢٩.

سعة من العيش، سمع القرآن مرة من رسول الله ﷺ، فقال لقومه بني مخزوم: والله لقد سمعت من محمداً آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلى، فقالت قريش: صَبَأ[1] والله الوليد لتصبأنَّ قريش كلها. فقال أبو جهل: أنا أكفيكُموه، فتوجه وقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه، فقام فأتاهم فقال: تزعمون أنَّ محمداً مجنون، فهل رأيتموه يهوِّس؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهَّن؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهم لا، ثم قالوا: فما هو؟ ففكر قليلاً ثم قال: ما هو إلَّا ساحر، أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فارتجَّ النادي فرحاً، فأنزل الله في شأن الوليد مخاطباً لرسوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[2] وأنزل فيه أيضاً: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾[3] كثير الحلف، وكفى بهذا زاجراً لمن اعتاد الحلف ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير، وأراد به الكذاب لأنه حقير في نفسه ﴿هَمَّازٍ﴾ عياب ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ ينقل الأحاديث للإفساد بين الناس ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ﴾ غليظ جاف ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ دخيل ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ كناية عن الإذلال والتحقير، لأن الوجه أكرم عضو، والأنفُ أشرف ما فيه، ولذلك اشتقوا منه كل ما يدل على العظمة كالأنفة وهي الحميّة. فالوسم على أشرف عضو دليل الإذلال والإهانة.

(ومن المستهزئين) النضر بن الحارث العبدري من بني عبد الدار بن

---

(١) خرج من دينه إلى دين آخر.

(٢) سورة المدثر: الأيات ١١ - ١٢ - ١٣.

(٣) سورة القلم: الأيتان ١٠ - ١٦.

قصي كان إذا جلس رسول الله مجلساً للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم قال النضر: هلمُّوا يا معشر قريش فإني أحسنُ منه حديثاً، ثم يحدث عن ملوك فارس، وكان يعلم أحاديثهم ويقول: ما أحاديث محمد إلاّ أساطير الأولين، وفيه نزل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1]. وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال تعالى في التنزيل: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[2] وقد وضع الله جل ذكره الوعد في صورة الماضي للتحقيق من وقوعه، لأن الآية مكية وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة، فمنهم من قُتل كأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، ومنهم من ابتلاه الله بأمراضٍ شديدة فهلك منها كأبي لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة.

إسلام حمزة[3]

وكان بعض إيذائهم هذا سبباً لإسلام عمه حمزة بن عبد المطلب، فقد أدركته الحمية عندما عيَّرته بعض الجواري بإيذاء أبي جهل لابن أخيه، فتوجه إلى ذلك الشقي وغاضبه وسبَّه وقال: كيف تسبُّ محمداً وأنا على دينه؟! ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاماً وأشدِّهم غيرة على المسلمين وأقواهُم شكيمةً على أعداء الدين حتى سمِّي أسد الله.

وكما أُوذي الرسول ﷺ أُوذي أصحابُه لاتباعهم له، خصوصاً من ليس له

---

(١) سورة لقمان: آية ٧.

(٢) سورة الحجر: آية ٩٦.

(٣) أمه هالة بنت أهيب بن عبد مناف وهو من الطبقة الأولى ومن السابقين الذين شهدوا بدراً وأحداً. أسلم في السنة السادسة للنبوة وكان شجاعاً مقداماً، رماه وحشي بحربة فقتله ومثل المشركون بجثته ودفن عند أحد في السنة الثالثة للهجرة وقد تألم النبي ﷺ لموته وقال فيه: رحمة الله عليك فإنك كنت فعولاً للخيرات وصولاً للرحم.

عشيرة تحميه وترد كيد عدوه عنه، وكل هذا الأذى كان حلواً في أعينهم ما دام فيه رضا الله، فلم يفتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم وصاروا ملوك الأرض، بعد أن كانوا مستضعفين فيها، كما قال جل ذكره: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[1] وقد حقق ما أراد.

(ومن) الذين أُوذوا في الله بلال[2] بن رباح كان مملوكاً لأمية بن خلف الجمحي القرشي، فكان يجعل في عنقه حبلاً أو يدفعه إلى الصبيان يلعبون به وهو يقول: أحد، أحد. لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله. وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرَّمْضاء - وهي الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لنضِجتْ - ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمدٍ وتعبد اللاَّتَ والعزَّى فيقولُ: أَحَدٌ، أَحَدٌ. مرَّ به أبو بكر يوماً فقال: يا أمية أما تتقي الله في هذا المسكين حتى متى تعذبه؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى. فاشتراه منه وأعتقه، فأنزل الله فيه وفي أمية: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ أمية بن خلف ﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ الصدِّيق ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾[3]. بما يعطيه الله في الأخرى جزاء أعماله. وقد نبه الله جل ذكره على أنَّ بَذْلَ الصديق[4] ماله في شراء بلال وعتقه لم يكن إلاَّ ابتغاء وجه ربه وكفى بهذا شرفاً وفضلاً للصديق رضي الله عنه وأرضاه. وقد اعتق غير بلال جماعة من الأرقاء أسلموا فعابهم مواليهم.

---

(١) سورة القصص: آية ٥.

(٢) كان أبوه من سبي الحبشة وأمه حمامة وكذلك كان صادق الإسلام صابراً افتداه أبو بكر رضي الله عنه بغلام أجلد منه وأخذ بلالاً وأعتقه لوجه الله، وبلالٌ نفسه قَتَلَ أميةَ في غزوة بدر.

(٣) سورة الليل: الآيتان ١٣ - ٢١.

(٤) وفيه نزلت الآية ﴿فأمّا من أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى﴾.. إلى قوله تعالى ﴿وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربّه الأعلى ولسوف يرضى﴾.

(ومنهم) حمامة أم بلال وعامر[1] بن فهيرة كان يُعذَّبُ حتى لا يدري ما يقول، وأبو فكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف.

(ومنهم) امرأة تُسمى زِنِّيرة[2] عُذبت في الله حتى عميت فلم يزدها ذلك إلا إيماناً. وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقونا إليه أفتسبقنا زِنِّيرة إلى رشد، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[3].

(وممن) أعتق أبو بكر بعد شرائه أم عُنَيْس كانت أَمَةً لبني زهرة وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث.

(وممن) عُذب في الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه، كانوا يعذَّبون بالنار فمرَّ بهم رسول الله ﷺ فقال صبراً آل ياسرٍ فموعدكم الجنة اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت. أما أبو عمَّار وأمه فماتا تحت العذاب رحمهما الله. وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر، فإنَّ أبا جهل كان يجعل له دروعاً من الحديد في اليوم الصائف ويلبسه إيَّاها، فقال المسلمون: كَفَرَ عمارُ فقال عليه السلام: عمار مُلىء إيماناً من فرْقه إلى قدمه، وأنزل الله في شأنه استثناء في حكم المرتد، فقال جلّ ذكره: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[4].

(وممن أُوذي في الله) خبَّاب بن الأرتّ سبي في الجاهلية فاشترته أم

---

(١) كان من المستضعفين وهو مولى الطفيل بن عبد الله شهد بدراً وأُحداً، وقتل شهيداً في السنة الرابعة للهجرة في يوم بئر معونة.

(٢) أعتقها أبو بكر وأصيب بصرها عندما أعتقها، فقالت قريش ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وما تضر اللات والعزى وما تنفعان فرد الله بصرها.

(٣) سورة الأحقاف: آية ١١.

(٤) سورة النحل: آية ١٠٦

أنمار وكان حداداً، وكان النبي يألفه قبل النبوة، فلما شرفه الله بها أسلم خبَّاب، فكانت مولاته تعذبه بالنار فتأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر، فلا يزيده ذلك إلا إيماناً، وجاء خباب مرة الى رسول الله وهو متوسِّد بردة في ظل الكعبة، فقال يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد عليه السلام محمراً وجهه فقال: إنه كان مَن قبلكم ليُمْشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه. وليظهرنَّ الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت[1] لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، قال ذلك عليه السلام وهو في هذه الحال الشديدة لا يتصور فيها أعقل العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظرة أو سعادة مستقبلة، اللهم إلا أن ذلك وحي يوحى إليه، ثم أنزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[2].

(وممن أوذي في الله) أبو بكر الصدِّيق. ولما اشتد عليه الأذى أجمع أمره على الهجرة من مكة إلى جهة الحبشة، فخرج حتى أتى بَرْك الغِماد فلقيه ابن الدُّغُنَّة، وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها القارة، فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، فقال ابن الدُّغُنَّة: مثلك يا أبا بكر لا يخرج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكَلّ وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل ابن الدُّغنَّة معه وطاف في أشراف قريش فقال لهم: أبو بكر لا يخرج مثله، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكَلَّ ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدُّغنَّة وقالوا له: مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره فيها ما شاء وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك

موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل موضع في أقصى أراضي هَجَر. اهـ. من ياقوت.

(٢) سورة العنكبوت: الآيتان ١ ـ ٣.

ولا يستعلن، فإنا نخشى أن يفتِنَ نساءَنا وأبناءَنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يُعجبون منه وينظرون اليه، وكان رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبدَ ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه. وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه بفِناء داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسلْه أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرِّين لأبي بكر الاستعلان. فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إليَّ ذمتي فإني لا أحب أن تسمعَ العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. فقال أبو بكر فإني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (رواه البخاري).
وكان ذلك سبباً لإيصال أذى عظيم الى أبي بكر رضي الله عنه.

وبالجملة فلم يَخْلُ أحد من المسلمين من أذية لحقته، ولكن كل ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم، فإنهم لم يُسلموا لغرضٍ دنيوي يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم، ولكن وفقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان فرأوا كل شيء دونه سهلاً.

ولما رأى كفار قريش أنَّ ذلك الأذى لم يُجدِهم نفعاً، بل كلما زادوا المسلمين أذى ازداد يقينهم، اجتمعوا للشورى فيما بينهم، فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمي من بني عبد شمس بن عبد مناف وكان سيداً مُطاعاً في قومه: يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد فأُكلِّمه وأعرض عليه أموراً علَّه يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكفّ عنا؟ فقالوا يا أبا الوليد فقم إليه فكلِّمْه. فذهب إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي في المسجد، وقال: يا ابن أخي إنك مِنّا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به

جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم فاسمْع مني أعرِضُ عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال عليه الصلاة والسلام: قلْ يا أبا الوليد أسمعْ.

فقال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوَّدْناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنتَ تريد مُلكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْياً من الجن لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى، فقال عليه الصلاة والسلام: فقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم، قال فاسمع مني فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصلت:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك. فلما رجع عتبة سألوه، فقال: والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر. يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها بي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فعزه عزكم، فقالوا لقد سحرك محمد، فقال هذا رأيي.

ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه في عبادته، فأنزل الله في ذلك: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[1] فلا تتوهموا أني أجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله فأيسوا منه وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد، فيأتي بقرآن غيره أو يبدله، فأنزل الله جواباً لهم في سورة يونس: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾[2].

وقد حصل له مع كفار قريش نادرة، تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضيء به، وهو أنه بينما الرسول ﷺ مع كبراء قريش وأشرافهم يتألفهم ويَعْرِضُ عليهم القرآن وما جاء به من الدين، إذ أقبل عليه عبد الله بن أمّ مكتوم الأعمى، وهو ممن أسلموا قديماً والنبي مشتغل بالقوم، ولقد لقي منهم مؤانسة حتى طمع في إسلامهم، فقال له عبد الله: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وأكثر عليه القول فشق ذلك على الرسول وكره قطعه لكلامه، وخاف ﷺ أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب أولئك الأشراف فأعرض عنه، فعاتبه الله على ذلك بقوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾[3].

---

(١) سورة الكافرون: الآيات ١ ـ ٦.

(٢) سورة يونس: آية ١٥.

(٣) سورة عبس: الآيات ١ ـ ١٠.

فما عبس رسول الله ﷺ بعدها في وجه فقير. وكان إذا أقبل عليه عبد الله بن أم مكتوم يقول له: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي.

ولما رأى المشركون أنَّ هذه المطالب التي يعرضونها لا تقبل منهم، أرادوا أن يدخلوا في باب آخر وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات، فاجتمعوا وقالوا: يا محمد إن كنت صادقاً فأرنا آيةً نطلبها منك وهي أن تَشُقَّ لنا القمر فرقتين، فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين، فقال رسول الله: اشهدوا. وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الأولين رويت عنه من طرق كثيرة، ورواها ابن عباس وغيره ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر. وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى في أول سورة القمر: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[1]. فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى، قال بعضهم لقد سحركم ابن أبي كبشة، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[2]. ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد، فمنها أن قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[3] ولم يجبهم الله إلا بقوله: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[4] لأن الله علم ما تكِنه جوانحهم من التعصب والعناد، فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال جل ذكره: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[5] وكيف يرجى الخير ممن قالوا: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[6].

---

(١) سورة القمر: آية ١.
(٢) سورة القمر: آية ٢.
(٣) سورة الإسراء: الآيات ٩٠ ـ ٩٢.
(٤) سورة الإسراء: آية ٩٣.
(٥) سورة الأنعام: آية ١٠٩.
(٦) سورة الأنفال: آية ٣٢.

ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، وهذه سنة من سنن الأنبياء إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً وأنهم يطلبونها تعجيزاً، لا يسألون الله إنفاذ هذه الآيات كيلا يحل بقومهم الهلاك كما يحصل لعادٍ وثمودَ وغيرهم. وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾(1) وقد حصل للمسيح عليه السلام أنّه لما وقف أمام هيردوس طلب منه آية فلم يجبه إلى طلبه، فلما رأى ذلك سخر منه وردّه إلى عدوه بيلاطس بعد أن كان يأسف عليه ويتمنى لقاءه، وذلك مذكور في الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل لوقا.

(هذا) ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان، تحولوا إلى سياسة القوة التي اختارها قوم إبراهيم عندما عجزوا عنه حيث قالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ ﴾(2) كما في سورة الأنبياء. أمّا هؤلاء فازدادوا بالأذى على كل من أسلم، رجاء صدهم عن اتّباع الرسول عليه السلام ولم يتركوا باباً إلا ولجوه، فقال عليه السلام لأصحابه: تفرقوا في الأرض فإن الله سيجمعكم فَسَألوه عن الوجه فأشار إلى الحبشة.

هجرة الحبشة الأولى

فعند ذلك تجهز ناس للخروج من ديارهم وأموالهم، فراراً بدينهم كما أشار عليه السلام. وهذه هي أول هجرة من مكة، وعدة أصحابها عشرةُ رجال وخمسُ نسوة، وهم: عثمانُ بن عفان وزوجُه رقية بنت رسول الله، وأبو سلمة وزوجه أم سلمة وأخوه لأمه أبو سَبْرة بن أبي رُهْم وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وسهل بن

---

(1) سورة الإسراء: آية ٥٩.

(2) سورة الأنبياء: آية ٦٩.

البيضاء، والزبير بن العوام، وجلهم من قريش. وكان عليهم فيما روى ابن هشام عثمان بن مظعون، فساروا على بركة الله ولما انتهوا الى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم، فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين، ولم يبق مع النبي عليه السلام وينظم إلا القليل.

إسلام عمر

وفي ذلك الوقت أسلم الشهم الهُمام عمر بن الخطاب العَدَوي القرشي، بعدما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم، وقالت ليلى إحدى المهاجرات لأرض الحبشة مع زوجها: كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما ركبتُ بعيري أريدُ أن أتوجه الى أرض الحبشة إذا أنا به فقال: إلى أين يا أمَّ عبد الله؟ فقلت: قد آذيتمونا في ديننا، نذهب في أرض الله حيث لا نؤذى، فقال: صحبكم الله. فلما جاء زوجي عامر أخبرته بما رأيت من رقة عمر فقال: ترحبين أن يسلم؟ والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب! وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين، ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى ﷺ، فإنه قال قُبيل إسلامه: «اللهم أعزَّ الإسلامَ بعمر». وكان إسلامه في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي كان المسلمون يجتمعون فيها وقد حقق الله بإسلامه ما رجاه عليه السلام فقد قال عبد الله بن مسعود من رواية البخاري: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) فإنه طلب من رسول الله .أن يُعلن صلاته في المسجد ففعل، وقد أدرك الكفار كآبة شديدة حينما رأوْا عمرَ أسلم وكانوا قد أرادوا قتله، حتى اجتمع جَمعٌ حول دارِه ينتظرونه، فجاء العاص بن وائل السهمي، وهو من بني سهم حلفاء بني عدي قوم عمر، وعليه حلة حِبَرَة وقميص مكفوف بحرير فقال لعمر: ما بالك؟ فقال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت، قال: لا سبيل إليك فأنا لك جار، فآمنَ عمرُ، وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادي فقال: أين تريدون؟ قالوا نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ، قال: لا سبيل إليه. فرجع الناس من حيث أتوا.

رجوع مهاجري الحبشة

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة رجعوا إلى مكة حيث لا تتيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلو العدد ـ وفي الكثرة بعضُ الأنس ـ وأضف إلى ذلك أنهم أشراف قريش ومعهم نساؤهم، وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة.

وقد أولع بعض المؤرخين بحكاية يجعلونها سبباً في رجوع مهاجري الحبشة، وهي أنه بلغهم إسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول ﷺ سورة النجم وتكلم فيها كلاماً حسناً عن آلهتهم حيث قال بعد: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾[1] تلك الغرانيق[2] (جمع غرنوق، وهي الطيور. ويراد بها الملائكة) العُلى وإن شفاعتهن لترتجى، فسجدوا إعظاماً لذلك وفرحاً، وهذا مما لا تجوز روايته إلا عن قليلي الإدراك الذين ينقلون كل ما وجدوا غير متثبتين من صحته. وها نحن أولاء نسوق لك أدلة النقل والعقل على بطلان ما ذُكر. أما الحديث فسنده ومتنه قلقان، فالسند قال فيه القاضي عياض في الشفاء لم يخرِّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم، وأما المتن فليس أصحاب رسول الله ﷺ ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحاً أثناء ذم ويجوز ذلك عليهم فبعد ذكر الأصنام قال: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ﴾[3].

فالكلام غير منتظم ولو كان ذلك قد حصل لاتخذه الكفار عليه حجة يحاجُّونه بها وقت الخصام، وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة فكيف بهذه؟ وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة إلى الكعبة وهذا قالوا فيه ما قالوا حتى سماهم الله سفهاء وأنزل فيهم: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ

(١) سورة النجم: آية ١٩.
(٢) قصة الغرانيق موضوعة وغير ثابتة من جهة النقل.
(٣) سورة النجم: آية ٢٣.

ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾[1]. ولكن لم يسمع عن أي واحد من رجالاتهم والمتصدرين للعناد منهم، أن قال مالك ذممت آلهتنا بعد أن مدحتها، وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف وبذل مهج الرجال، على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ويجعلونها سبباً لرجوع مهاجري الحبشة، يقولون أثناء كلامهم إنَّ الهجرة كانت في رجب والرجوع كان في شوال، ونزول سورة النجم كان في رمضان، فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد، والمتأمل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لا يكفي في ذلك الزمن للذهاب من مكة الى الحبشة والإياب منها، لأنه لم يكن إذ ذاك مراكب بخارية تسهل السير في البحر، ولا تلغراف يوصل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة، فلا غرابة بعد ذلك إن قلنا إن هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين، ولكن الحمد لله فقد منّ علينا بحفظ كتابنا المجيد الذي يحكم بيننا وبين كل مفتر كذاب، ففي السورة نفسها: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[2]والذي يلقيه الشيطان من أقبح ما يروى فكيف يقول عليه السلام، أو يجري على لسانه مما يبث الشكوك في الوحي؟ الأمر الذي يريده السفهاء ردَّ الله كيدهم في نحرهم. والذي ورد في الصحيح في موضوع هذا السجود ما رواه عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قرأ والنجم فسجد وسجد من كان معه إلا رجلاً أخذ كفاً من حصى وضعه على جبهته وقال: يكفيني هذا، فرأيته قتل بعد كافراً، وليس في هذا الحديث أي دلالة على أن الذين سجدوا معه هم مشركون، بل الذي يفيده قوله فرأيته قتل بعدُ كافراً أنه كان مسلماً ثم رأيته آرتد، وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى فكفروا: منهم علي بن أمية بن خلف. (هذا) ولما رجع مهاجرو الحبشة إلى مكة لم يتمكن من الدخول إليها إلا من وجد له مجيراً، فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن

---

(١) سورة البقرة: آية ١٤٢

(٢) سورة النجم: آية ٣.

المغيرة وقد ردّ عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين، فلم يرض أن يكون مرتاحاً وإخوانه معذبون.

كتابة الصحيفة

ولما ضاقت الحِيَل بكفار قريش، عرضوا على بني عبد مناف الذين منهم الرسول عليه السلام دية مضاعفة ويسلمونه فأبوا عليهم ذلك، ثم عرضوا على أبي طالب أن يعطوه سيداً من شبانهم يتبناه ويسلم إليه ابن أخيه. فقال: عجباً لكم تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب ولَدَيْ عبد مناف وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم، فلا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك في شعب أبي طالب، ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب، فإنه كان مع قريش وانخذل عنهم بنو عمَّيهم عبد شمس ونوفل ابني عبد مناف، فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفي مقدمة المانعين أبو لهب.

هجرة الحبشة الثانية

وبعد دخول الرسول وقومه الشِّعب أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضاً على الإغتراب، فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عميس والمقداد بن الأسود وعبد الله بن مسعود وعبيد الله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وتوجه لهم الذين أسلموا من جهة اليمن وهم الأشعريون: أبو موسى وبنو عمه. ولما رأت قريش ذلك أرسلت

في أثـرهم عمرو بن العـاص وعمـارة بن الـوليـد بهـدايـا إلى النجـاشي ليسلم المسلمين، فرجعا شر رجعة ولم ينالا من النجاشي إلا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته في قوم لاذوا بـه، أما بنو هاشم فمكثوا في الشِّعب قريباً من ثـلاث سنوات في شدة الجَهْد والبلاء لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية.

نقض الصحيفة

وقد قام خمسة من أشراف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة، وهم هشـام بن عمـرو بن الحـارث العـامـري وهـو أعـظمهـم في ذلـك بـلاء، وزهير بن أبي أمية المخزومي ابن عمة الرسول عاتكة، والمطعم بن عدي النوفلي، وأبو البختري بن هشام الأسدي، وزَمْعة بن الأسود الأسـدي واتفقوا على ذلـك ليـلاً. فلما أصبحـوا غدا زهيـر وعليه حلة فـطاف بالبيت ثم أقبـل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثيـاب وبنو هـاشم والمطلب هَلْكى لا يبيعون ولا يبتاعون! والله لا أقعد حتى تشق هـذه الصحيفة الـظالمة القـاطعة. فقال أبو جهـل: كذبت، فقـال زمعة لأبي جهـل: أنت والله أكذب! مـا رضينا كتابتها حين كتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، وقال المـطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غيـر ذلك. وصـدّق على ما قيـل هشام بن عمـرو فقام إليها المطعم بن عدي فشقها وكانت الأَرَضَة قد أكلتها، فلم يبق منها إلا ما فيه اسم الله. وقـد أخبر النبي ﷺ عمـه أبا طـالب بذلـك قبل أن يفعـل مـا ذكـر، فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة.

وفود نجران

وقد وفد على الرسول بعد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران، بلغهم خبره من مهاجري الحبشة، فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفـاته مـع ما ذكر منهـا في كتبهم، وكانـوا عشرين رجـلاً أو قريبـاً من ذلك، فقـرأ عليهم

القرآن فآمنوا كلهم فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركباً أحمق منكم أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه فأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1].

وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة، رموه بالسحر مرة والكذب أخرى، وبالجنون طوراً وبالكهانة تارة، كل ذلك شأن العاجز المعاند الذي لا يستحي لمزيد عناده أن يقول: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2].

وفاة خديجة رضي الله عنها[3]

وبعد خروجه عليه السلام من الشعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد زوجه رضي الله عنها، كان ﷺ كثيراً ما يذكرها ويترحم عليها. ولا غرابة فهي أول نفس زكية صدّقت الرسول فيما جاء به عن ربه، وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا إبراهيم. فمنها زينب وهي أكبر بناته تزوجها في الجاهلية أبو العاص بن الربيع وأعقب منها أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة[4]، ومنها رقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان.

(١) سورة القصص: الآيات ٥٢ ـ ٥٥.

(٢) سورة الأنفال: آية ٣٢.

(٣) كانت تصدقه في كل أمر وتهوّن عليه أمر الناس، وقال فيها ﷺ: أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب. رواه مسلم. ومعنى القصب: اللؤلؤ المجوف. رحمها الله.

(٤) أصغر بنات النبي ﷺ وأحبهن إلى قلبه، كانت تلقب بالزهراء وهي زوجة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

الأولى بمكة قبل الهجرة وهاجر بها إلى الحبشة، والثانية بالمدينة بعد أن ماتت أختها، ومنها فاطمة وهي أصغر بناتها تزوجها علي بن أبي طالب. وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغاراً، ولم يعش بعد رسول الله من أولاده إلا فاطمة عاشت بعده قليلاً. ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله حزناً شديداً، لما كانت عليه من الرقة لرسول الله ومحاجزة الكفار عنه، لما لها من الجاه في عشيرتها بني أسد، ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله ﷺ وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر.

-زواج سَوْدَة [1]

وعقد ﷺ في الشهر الذي ماتت فيه خديجة على سَوْدة بنت زَمعة العامرية القرشية بعد أن توفي عنها زوجها وابن عمها السكران بن عمرو، وقد كانت آمنت بالله ورسوله وخالفت أقاربها وبني عمها، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة في المرة الثانية خوف الفتنة، وعقب رجوعه من هجرته توفي عنها، فلم يكن أجمل مما صنعه الرسول بزوج رجل آمن به، ولو تركت لقومها مع ماهم عليه من الغلظة وكراهة الإسلام لفتنوها، وكرم نسبها في قومها يمنعها من التزوج برجل أقل منها نسباً وشرفاً.

زواج عائشة رضي الله عنها

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشة بنت صديقه أبي بكر وهي لا تتجاوز السابعة من عمرها، ولم يتزوج عليه السلام بكراً غيرها ودخل عليها بالمدينة. أما سَودة فدخل عليها بمكة.

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر توفي عمه أبو طالب الذي كان يمنعه من أذى أعدائه، ومع أنه لا يكذب رسول الله فيما جاء به بل يعتقد صدقه لم ينطق

(١) تزوجها بعد خديجة رضي الله عنها.

بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته، وفيه نزل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[1]. ولكن لأعماله العظيمة التي عملها مع رسول الله نرجو أن يخفف عنه وعدم إسلامه هو وغالب أقارب الرسول فيه من الحكمة ما لا يخفى، فإنهم لو بادروا باتباعه لقيل: قوم يطلبون سيادة وفخراً ليسا لهم فجاؤوا بهذا الأمر المفترى، ولكن لما رأى المعاندون أن متبعيه هم الغرباء عنه الذين ليسوا من عشيرته، بل من أعدائها أحياناً كعثمان بن عفان من بني أمية، لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها اللهم إلا دعاويهم الكاذبة التي كانوا يتمسكون بها حينما تصدعهم الحجة من قولهم: ساحر يفرق بين المرء وزوجه، وكان يتكهن بالغيب. وقد سمّى رسول الله هذا العام الذي فقد فيه زوجه وعمه عامَ الحزن. ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ما لم يمكنها نيله في حياة أبي طالب، واشتد عليه الأمر حتى كانوا ينثرون التراب على رأسه وهو سائر ويضعون أوساخ الشاة عليه في صلاته، وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! فما تقدم أحد من المسلمين ليخلصه لما هم عليه من الضعف إلا أبا بكر، فإنه تقدم وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟!

هجرة الطائف

فلما رأى عليه الصلاة والسلام استهانة قريش به أراد أن يتوجه إلى ثقيف بالطائف[2] يرجو منهم نصرته على قومه ومساعدته حتى يتمم أمر ربه، لأنهم أقرب الناس إلى مكة وله فيهم خؤولة، فإن أم هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بني سليم بن منصور وهم حلفاء ثقيف، فلما توجه إليهم ومعه مولاه زيد بن حارثة، قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمر بن عمير الثقفي، فعرض عليهم نصرته حتى يؤدّي دعوته، فردوا

---

(١) سورة القصص آية ٥٦.

(٢) بلد في الجنوب الشرقي من مكة.

عليه رداً قبيحاً ولم يـر منهم خيراً، وحينـذاك طلب منهم ألا يشيعوا ذلـك عنه كيلا تعلم قريش فيشتد أذاهم لأنه استعـان عليهم بأعـدائهم، فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم ﷺ، بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في وجهه في الطريق ويرمونه بالحجارة حتى أَدَمْوا عقبه. وكان زيـد بن حارثـة يدرأ عنـه[1] إلى أن انتهى إلى شجرة كرم واستظل بها، وكانت بجوار بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من أعدائه، وكانا في البستان، فكـره رسول الله ﷺ مكـانهما، فـدعا الله قائلاً: «اللهم إني أشكو اليك ضعف قوتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الـراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكِلُني، إلى بعيـد يتجهَّمُني أم إلى عدوّ ملكته أمري، إن لم يكن بـك غضب عليَّ فـلا أبـالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنـور وجهك الـذي أشرقت لـه الظلمـات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك أو يحلَّ عليَّ سخـطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بـك» فلما رآه ابنـا ربيعة رقّـا له وأرسـلا إليه بقـطف من العنب مع مـولى نصراني اسمـه عـدّاس، فلمـا ابتـدأ رسول الله ﷺ يأكل قال (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال عداس هذا الكلام مـا يقوله أهل هذه البـلاد، فقال لـه عليه السـلام: من أي البلاد أنت ومـا دينك؟ فقـال نصراني من نينـوى[2] فقال لـه عليه السـلام: من قريـة الرجـل الصالـح يونس بن متّى؟ قال: وما علمك بيونس؟ فقرأ له من القرآن مـا فيه قصـة يونس فلما سمع ذلك عـداس أسلم، وأتى جبريل برسالة من الله جل ذكره وقال: إن الله أمرني أن أطيعك في قومك لما صنعوه معـك، فقال عليـه السلام: «اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون» فقال جبريل: صدق من سمَّاك الرؤوف الرحيم!!

ولمـا كان بنَخْلة وفـد عليه نفـر من الجن يستمعـون القـرآن. وهـم ممن ينتمون الى موسى صلوات الله عليه فلما سمعوه أنصتوا له ورجعوا إلى قـومهم منذرين وأبلغوهم خبر رسول الله ﷺ، وفيهم نزل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ

---

(١) يمنع عنه الحجارة.

(٢) بلد على شاطىء دجلة وهي آخر ما ينتهي إليه العراق وأمامها مدينة الموصل.

ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1] وقد قص الله قصة الجن بعبارة أطول في سورة سميت باسمهم أولها: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾[2].

الاحتماء بالمطعم بن عدي[3]

ولما رجع عليه السلام من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله مكة، لما علمه كفار قريش من أنه توجه إلى الطائف يستنصر بأهليها عليهم، فأرسل عليه السلام إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة في جواره، فأجابه إلى ذلك وتسلح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله ﷺ إلى المطاف، فقال له بعض المشركين: أمجير أنت أم تابع؟ فقال: بل مجير قالوا: إذن لا تخفر ذمتك.

وفد دَوْس

وقدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة الطُّفَيل[4] بن عمرو الدَّوسي من

---

(١) سورة الأحقاف: الآيات ٢٩ ـ ٣٢.

(٢) سورة الجن: الآيتان ١ ـ ٢.

(٣) طلب النبي ﷺ الحماية من المطعم بن عدي وكان مشركاً ودخل يومها النبي ﷺ المسجد الحرام.

(٤) نشأ بين أسرة كريمة، وأخلص في إسلامه، اشترك في حرب الردة واستشهد في موقعة اليمامة بعد قتال عنيف، رحمه الله.

قبيلة دَوْس عشيرة أبي هريرة الصحابي الشهير، وكان الطفيل شريفاً في قومه شاعراً نبيلاً، فلما قرأ عليه القرآن أسلم، فقال له رسول الله: اذهب إلى قومك فادْعُهم إلى الإسلام، ودعا لهم رسول الله فقال: اللهم اهْد دَوْساً، فتوجه اليهم الطفيل ودعاهم فآمن بدعوته كثير منهم. وستأتي وفادته على الرسول مرة ثانية بقومه في المدينة.

الإسراء والمعراج[1]

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج. أما الإسراء فهو توجهه ليلاً إلى بيت المقدس بإيلياء ورجوعه من ليلته، وأما المعراج فهو صعوده إلى العالم العلوي، وقد قال جمهور أهل السنة، إن ذلك كان بجسمه الشريف، وكانت عائشة رضي الله عنها تمنع رؤية رسول الله ربه وتقول: من قال إن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله. والإسراء مذكور في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2]

وأما المعراج فقد ورد في صحيح السنة، وأصح أحاديثه ما رواه الشيخان ونقله القاضي عياض في شفائه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيت بالبُراق (وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرْفه) قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تَرْبِطُ بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة، ثم عُرِج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففُتح لنا فإذا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال:

---

(١) كان الإسراء والمعراج في السابع والعشرين من رجب قبل الهجرة بسنة.

(٢) سورة الإسراء: آية ١.

جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى ابن مريم فرحبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عُرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ففتح لنا وإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أُعطي شطر الحُسن فرحب ودعا لي بخير.

ثم عُرج بنا إلى السماء الرابعة فذكر مثله، فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير. قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.[1]

ثم عُرج بنا إلى السماء الخامسة فذكر مثله، فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فذكر مثله، فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا أوراقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر ربي ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ وعلى أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت الى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فسلْه التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي وقلت له: يا ربي خفّف عن أمتي، فحطَّ عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حطَّ عني خمساً، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فسلْه التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه: يا محمد إنهنَّ خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبتْ له حسنة، ومن

---

(١) سورة مريم آية ٥٧.

همَّ بحسنة فعملها كُتبت له عشراً، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب له شيئاً، ومن همَّ بسيئة فعملها كُتبتْ له سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فسلْه التخفيف، فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحيَيْت منه». ثم رجع عليه السلام من ليلته فلما أصبح غدا إلى نادي قريش، فجاء إليه أبو جهل بن هشام فحدثه رسول الله ﷺ بما جرى له، فقال أبو جهل: يا بني كعب بن لؤي هلمُّوا، فأقبل عليه كفار قريش، فأخبرهم الرسول الخبر، فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد ناس ممن كان آمن به من ضعاف القلوب، وسعى رجال إلى أبي بكر فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأُصدّقه على أبعد من ذلك، فسمِّي من ذلك اليوم صدِّيقاً. ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله فسألوه نعت بيت المقدس وفيهم رجال رأوه، أما رسول الله ﷺ فلم يكن رآه قبل ذلك، فجلاه الله فصار يصفه لهم باباً باباً وموضعاً موضعاً، فقالوا: أما النعت فقد أصاب، فأخبرنا عن عِيرنا وكانت لهم عِيرٌ قادمة من الشام، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أَوْرَق[1] فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد أشرقت، فقال آخر: وهذه والله العِير قد أقبلت يقدمها جمل أَوْرق كما قال محمد، ثم لم يزدهم ذلك إلا كبراً وعناداً حتى قالوا هذا سحر مبين.

وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلَّم رسول الله كيفية الصلاة وأوقاتها، فيصلي ركعتين إذا ظهر الفجر وأربع ركعات إذا زالت الشمس ومثلها إذا ضوعف ظل الشيء وثلاثاً إذا غربت وأربعاً إذا غاب الشفق الأحمر. وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحاً ومثليهما مساءً كما يفعل إبراهيم عليه السلام.

---

(١) لونه بين الغبرة والسواد.

العرض على القبائل

ولما رأى رسول الله أنه يجد من قريش من تأدية الرسالة وتسلط الكبر والعظمة على قلوبهم، أراد الله أن يظهر أمر الدين على أيدي غيرهم من العرب، فكان عليه السلام يخرج في المواسم العربية (وهي أسواق[1] كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة) ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدي رسالة ربه، فكان بعضهم يردُّ ردّاً جميلاً، وآخرون رداً قبيحاً. وكان من أقبح القبائل رداً بنو حنيفة رهط مُسَيْلِمَة الكذّاب. وطلب منه بنو عامر إن هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده. فقال لهم: الأمر لله يضعه حيث يشاء.

وكان من الذين يحجون البيت عرب يثرب، وهي مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان إحداهما من ولد الأوس والثانية من ولد الخزرج وهما أخوان، وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها بين الفريقين، فكانوا دائماً في شقاق ونزاع، وكان يجاورهم في المدينة أقوام من اليهود وهم بنو قَيْنُقاع وبنو قُرَيْظة وبنو النَّضِير، وكان لهم الغلبة على يثرب أولاً، فحاربهم العرب حتى صاروا ذوي النفوذ فيها والقوة. وكان اليهود إذا خذلوا يستفتحون على أعدائهم باسم نبي يبعث قد قرب زمانه. ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشقت عصا الألفة حالفوا اليهود على أنفسهم: فحالف الأوس بني قريظة، وحالف الخزرج بني النضير وبني قَيْنُقاع. وآخر الأيام بينهم يوم بُعاث قتل فيه أكثر رؤسائهم ولم يبق إلا عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج وأبو عامر الراهب من الأوس. ولذلك كانت عائشة تقول كان يوم بُعاث يوماً قدمه الله لرسول الله ﷺ، وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشاً على الخزرج، فأرسلوا إياس بن معاذ وأبا الحَيْسر أنس بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف في قريش، فلما جاؤوا مكة جاءهم رسول الله وقال: هل لكم في خير مما جئتم له؟ أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئاً. وقد أرسلني

(1) أشهر هذه الأسواق ثلاثة: عكاظ، ومجنّة، وذو المجاز.

الله إلى الناس كافة، ثم تلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ: يا قوم هذا والله خير مما جئنا له، فحصبه أبو الحيسر وقال له: دعنا منك لقد جئنا لغير هذا، فسكت.

بدء إسلام الأنصار

ولما جاء الموسم تعرض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة وكلهم من الخزرج، وهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث من بني النجار، ورافع بن مالك من بني زريق، وقطبة بن عامر من بني سلمة، وعقبة بن عامر من بني حرام، وجابر بن عبد الله من بني عبيد بن عدي، ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته في تبليغ رسالة ربه، فقال بعضهم لبعض: إنه للنبي الذي كانت تعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه، فآمنوا به وصدقوه وقالوا: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل، وهذا هو بدء الإسلام لعرب يثرب.

العقبة الأولى[1]

فلما كان العام المقبل قدم اثنا عشر رجلاً منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس وهم: أسعد بن زرارة[2] وعوف ومعاذ ابنا الحارث ورافع بن مالك، وذكوان بن قيس، وعُبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر. وهؤلاء من الخزرج. وأبو الهيثم بن التَّيِّهان، وعُوَيم بن ساعدة وهما من الأوس، فاجتمعوا به عند العقبة وأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ـ وذلك قبل أن تفترض الحرب ـ على ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه

---

(١) العقبة هي المكان الذي ترمى فيه الجمار أيام الحج.

(٢) من بني النجار، وهو من الذين أسلموا من الخزرج يوم عرض رسول الله ﷺ دعوته، ومن الذين حضروا بيعة العقبة الأولى والثانية.

بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه في معروف، فإن وفوا فلهم الجنة وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب، وهذه هي العقبة الأولى.

فأرسل لهم عليه السلام مصعب بن عمير العبدري[1]، وعبد الله بن أم مكتوم ـ وهو ابن خالة خديجة ـ يقرآنهم القرآن ويفقهانهم في الدين. ونزل مصعب على أحد المبايعين أبي أمامة أسعد بن زرارة وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للإسلام، وبينما هو في بستان مع أسعد بن زرارة إذ قال سعد بن معاذ زئيس قبيلة الأوس لأُسَيْد بن حُضير ابن عم سعد: ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا لتزجرهما، فقام لهما أُسيد بحربته، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه، فلما وقف عليهما قال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا اعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة. فقال مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، فقرأ عليه مصعب القرآن فاستحسن دين الإسلام وهداه الله له فتشهَّد، ورجع إلى سعد فسأله عما فعل فقال: والله ما رأيت بالرجلين بأساً فغضب سعد وقام لهما متغيظاً، ففعل معه مصعب كسابقه فهداه الله للإسلام ورجع لرجال بني عبد الأشهل ـ وهم بطن من الأوس ـ فقال لهم: ما تعدونني فيكم؟ قالوا سيدنا وابن سيدنا. قال كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تسلموا، فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا أجابه، وقد انتشر الإسلام في دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام.

العقبة الثانية[2]

ولما كان وقت الحج في العام الذي يلي البيعة الأولى، قدم مكة

---

(١) واحد من أولئك الذين رباهم محمد ﷺ. ولد في النعمة وغذي بها. شهد غزوة بدر، وحمل اللواء يوم أحد واستشهد في هذه الغزوة رحمه الله.

(٢) بيعة العقبة الثانية كانت أخطر بيعة في تاريخ الدعوة الإسلامية فقد كانت حداً فاصلاً بين

كثيـرون منهم يريـدون الحج، وبينهم كثيـر من مشركيهم، ولمـا قابـل وفدهم رسول الله واعدوه المقابلة ليلاً عند العقبة، فأمرهم ألا ينبهـوا في ذلك الـوقت نائماً ولا ينتـظروا غائبـاً، لأن كل هـذه الأعمال كـانت خفية من قـريش، كيلا يـطلعوا على الأمـر فيسعوا في نقض مـا أبرم، شـأنهم مـع رسـول الله في أول أمره، ولما فرغ الأنصار من حجهم توجهوا إلى موعدهم، كـاتمين أمرهم عمن معهم من المشركين، وكان ذلك بعد مضي ثلث الليل الأول، فكانـوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تمّ عددهم ثلاثة وسبعين رجـلاً، منهم اثنان وستـون من الخـزرج، وأحد عشـر من الأوس، ومعهم امرأتـان وهما نسيبـة بنت كعب من بني النجار وأسماء بنت عمـرو من بني سلمة، ووافقهم رسـول الله هناك وليس معـه إلا عمه العبـاس بن عبـد المـطلب وهـو على دين قـومـه، ولكن أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ليكون متـوثقاً لـه، فلما اجتمعـوا عرّفهم العبـاس بأن ابن أخيـه لـم يزل في منعـة من قومـه، حيث لـم يمكنـوا منـه أحـداً ممن أظهـر لـه العدواة والبغضاء وتحملوا من ذلك أعظم الشدة، ثم قال لهم: إن كنتم تـرون أنكم وافون له بمـا دعوتمـوه إليه ومـانعوه سمن خـالفه، فـأنتم وما تحملتم من ذلـك. وإلا فدعـوه بين عشيرتـه فإنهم لبمكـان عظيم. فقـال كبيرهم المتكلم عنهم البراء بن معرور: والله لو كان لنـا في أنفسنا مـا ننطق لقلنـاه ولكنا نـريد الوفاء والصدق وبذْل مهجتنا دون رسول الله، وعند ذلك قالوا لـرسول الله ﷺ: خذ لنفسك ولربك ما أحببت. فقال: أشترط لربي أن تعبدوه وحده ولا تشركوا بـه شيئاً، ولنفسي أن تمنعـوني مما تمنعـون عنه نسـاءكم وأبناءكم متى قـدمت عليكم، فقـال له أبـو الهيثم بن التّيِّهان: يـا رسـول الله إن بيننـا وبين الـرجـال عهوداً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهـرك الله أن ترجـع إلى قـومك وتـدعنا؟ فتبسَّم ﷺ، وقـال: بل الـدمَ الدمَ والهَـدَمَ الهَدَمَ، أي إن طالبتم بدم طالبت به وإن أهدرتموه أهدرته.

= عهـدين من عهـود الـدعـوة ولقـد مَنَّ الله عليهم بهـذه النعمـة إذ يقول: ﴿واذكـروا إذ أنتم قليـل مستضعفـون في الأرض تخـافـون أن يتخـطفكم النـاس، فـآواكم وأيـدكم بنصـره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾.

وحينذاك ابتدأت المبايعة وهي العقبة الثانية، فبايعه الرجال على ما طلب. وأول من بايع أسعد بن زرارة، وقيل البراء بن معرور، ثم تخير منهم اثني عشر نقيباً لكل عشيرة منهم واحد، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم: أبو الهيثم بن التيهان، وأسعد بن زرارة، وأُسيد بن حُضير، والبراء بن معرور، ورافع بن مالك، وسعد بن أبي خيثمة وسعد بن الربيع، وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عمر، وعبادة بن الصامت، والمنذر بن عمرو. ثم قال لهم: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي. ولأمر ما أراده الله بلغ خبر هذه البيعة مشركي قريش، فجاؤوا ودخلوا شِعب الأنصار وقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا؟ فأنكروا ذلك وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم أنهم لم يحصل منهم شيء في ليلتهم، وعبد الله بن أُبيّ كبير الخزرج يقول: ما كان قومي ليفتاتوا علي بشيء من ذلك.

هجرة المسلمين إلى المدينة

ولما رجع الأنصار إلى المدينة ظهر بينهم الإسلام أكثر من المرة الأولى. أما رسول الله ﷺ وأصحابه فازداد عليهم أذى المشركين لما سمعوا أنه حالف قوماً عليهم، فأمر عليه السلام جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة، فصاروا يتسللون خيفة قريش أن تمنعهم. وأول من خرج أبو سلمة المخزومي زوج أم سلمة ومعه زوجه، وكان قومها منعوها منه ولكنهم أطلقوها بعد فلحقت به، وتتابع المهاجرون فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذي امتزج حبه بلحمهم ودمهم، حتى صاروا لا يعبؤون بمفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم وأبنائهم، ما دام في ذلك رضى الله ورسوله. ولم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر وعلي وصهيب وزيد بن حارثة وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكنهم حالهم من الهجرة، وقد أراد أبو بكر الهجرة، فقال له عليه السلام: على رِسْلِك[1] فإني

(١) على مهلك.

أرجـو أن يؤذن لي، فقال أبـو بكر: وهـل ترجـو ذلك بـأبي أنت؟ قـال: نعم. فحبس أبو بكر نفسـه على رسول الله ليصحبـه وعلف راحلتين كانتـا عنده ورق السَّمُر[1] استعداداً لذلك.

دار الندوة

أمـا قريش فكـانوا كـأنهم أُصيبوا بمَسِّ الشيـطان حينما طـرق مسـامعهم مبايعة الأنصار له على الذَّوْد عنه حتى الموت، فاجتمع رؤساؤهم وقـادتهم في دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لاتقضي امـراً إلا فيها، يتشـاورون ما يصنعـون في أمر رسـول الله ﷺ حين خافـوه، فقال قـائل منهم: نخرجه من أرضنـا كي نستريـح منه، فـرفض هذا الـرأي لأنهم قالـوا إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبـة لفظه، وقـال آخر: نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت، فرفض هذا الـرأي كسابقه لأنهم قـالوا إن الخبـر لا يلبث أن يبلغ أنصاره ونحن أدرى النـاس بمن دخـل في دينه، حيث يفضلونـه على الآباء والأبنـاء، فإذا سمعـوا ذلك جـاؤوا لتخليصـه وربما جـرَّ هذا من الحـرب علينا مـا نحن في غنى عنه. وقـال لهم طاغيتهم: بل نقتله، ولنمنع بني أبيه من الأخذ بثأره نـأخذ من كـل قبيلة شابـاً جلْداً يجتمعون أمام داره، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيفتـرق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قـريش كلهم، بل يـرضون بـالديـة، فأقروا هـذا الرأي، هـذا مكرهم ولكـن إرادة الله فـوق كل إرادة ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَٰكِرِينَ ﴾[2] فـأعلم نبيه بمـا دبره الأعـداء في سـرهم وأمره باللحاق بدار هجرته، بدار فيها ينشر الإسلام ويكون فيها لرسول الله ﷺ العزة والمنعة، وهذا من الحكمة بمكـان عظيم، فـإنه لـو انتشر الإسـلام بمكة لقال المبغضون إن قريشاً أرادوا ملك العرب فعمدوا إلى شخص منهم وأوعزوا إليه أن يدَّعي هذه الدعـوى حتى تكون وسيلة لنيـل مآربهم، ولكنهم كـانوا لـه أعداء ألداء آذوه شديد الأذى حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم.

---

(١) ورق الشجر.

(٢) سورة الأنفال: آية ٣٠.



هجرة المصطفى ﷺ(١)

فتوجه من ساعته إلى صديقه أبي بكر وأعلمه أن الله قد أذن له في الهجرة، فسأله أبو بكر الصحبة، فقال: نعم. ثم عرض عليه إحدى راحلتيه اللتين كانتا معدَّتين لذلك، فجهزاهما أحسن الجهاز، وصُنعت لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر نطاقها وربطت به على فم الجراب، واستأجر عبد الله بن أريقط من بني الدّيل بن بكر، وكان هادياً ماهراً، وهو على دين كفار قريش، فأمّناه ودفعا اليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال. ثم فارق الرسول ﷺ أبا بكر وواعده المقابلة ليلاً خارج مكة، وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقروا عليه، فاجتمعوا حول باب الدار ورسول الله داخله، فلما جاء ميعاد الخروج أمر ابن عمه علياً بالمبيت مكانه كيلا يقع الشك في وجوده أثناء الليل، فإنهم كانوا يردِّدون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده، ثم سجّى علياً ببرده، وخرج على القوم وهو يقرأ:
﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾(٢)
فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد. ولم يزل عليه الصلاة والسلام سائراً حتى تقابل مع الصدّيق، وسارا حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه.

أما المشركون فلما علموا بفساد مكرهم، وأنهم إنما باتوا يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله، هاجت عواطفهم، فأرسلوا الطلب

---

(١) كانت هجرته ﷺ في مستهل ربيع الأول وحين اخذ الركب وجهته إلى المدينة نظر رسول الله ﷺ إلى مكة نظرة وداع حارة وقال: «والله إني لأخرج منك وإني لأعلم أنك احب أرض الله إلى الله وأكرمها على الله. ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

(٢) سورة يس: آية ٩.

من كل جهة، وجعلوا الجوائز لمن يأتي بمحمد أو يدل عليه، وقد وصلوا في طلبهم إلى ذلك الغار الذي فيه طلبتهم، بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لنظرهما، حتى أبكى ذلك أبا بكر فقال له عليه الصلاة والسلام: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ فأعمى الله أبصار المشركين، حتى لم تحن لأحد منهم التفاتة إلى ذلك الغار، بل صار أعدى الأعداء أمية بن خلف يبعد لهم اختفاء المطلوبين في مثل هذا الغار. فأقاما فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب، وكان يبيت عندهم عبد الله بن أبي بكر وهو شاب ثَقِفٌ ولَقِنٌ فيدلج[1] من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها، فلا يسمع أمراً يكتادان[2] به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها، حين تذهب ساعة من العشاء ويغدو بها عليهما، فإذا خرج من عندهما عبد الله، اتبع أثره عامر بالغنم كيلا يظهر لقدميه أثر. ولما انقطع الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحلتين صبح ثلاث، وسارا متبعين طريق الساحل. وفي الطريق لحقهم طالباً سُراقةُ بن مالك المدْلجيّ، وكان قد رأى رسل مشركي قريش يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما هو في مجلس من مجالس قومه بني مُدْلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام عليهم وهم جلوس فقال: يا سراقة إني رأيت آنفاً أسوِدَةً[3] بالساحل أراها[4] محمداً وأصحابه، فعرف سراقة أنهم هم، ولكنه أراد أن يثني عزم مخبره عن طلبهم، فقال: إنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم. ثم لبث في المجلس ساعة وقام وركب فرسه، ثم سار حتى دنا من الرسول ومن معه، فعثرت به فرسه فخرَّ عنها، ثم ركبها ثانية وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات فساخت[5] قائمتا فرس سراقة في الأرض حتى بلغتا

(١) الأدلاج وهو السير في الليل.
(٢) يدبران المكائد والشرور.
(٣) أشباحاً سوداً.
(٤) أظنها.
(٥) غاصت.

الركبتين، فخرَّ عنها ثم زجرها حتى نهضت فلم تكد تخرج يديها حتى سطع لأثرهما غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فعلم سراقة أن عمله ضائع سدى، وداخله رعب عظيم فناداهما بالأمان، فوقف عليه الصلاة والسلام ومن معه حتى جاءهم. ويقول سراقة: وقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله، فقلت: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرهما بما يريد بهما الناس وعرض عليهما الزاد والمتاع، فلم يأخذا منه شيئاً بل قالا له: أخْفِ عنا، فسأله سراقة أن يكتب له كتاب أمن، فأمر أبا بكر فكتب. وبذلك أنقضت هذه المشكلة التي أظهر الله فيها مزيد عنايته برسوله.

وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدومه عليهم، يخرجون إلى الحرة[1] حتى يردَّهم حرُّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد أن طال انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُمٍ[2] من آطامهم لأمر ينظر اليه، فبصر رسول الله وأصحابه يزول بهم السراب، يظهرهم تارة ويخفيهم أخرى، فقال اليهودي بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم أي حظكم الذي تنتظرون، فثاروا إلى السلاح فتلقَّوا رسول الله بظهرة الحرة.

النزول بقُباء[3]

فعدل بها ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء، والذي حققه المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان في اليوم الثاني من ربيع الأول الذي يوافق ٢٠ سبتمبر (أيلول) سنة ٦٢٢ م، وهذا أول تاريخ جديد[4] لظهور الإسلام، بعد أن مضى عليه ثلاثة عشرة سنة وهو مضيق عليه

---

(١) هي الأرض ذات الحجارة السود، وكانت المدينة محاطة بجملة حرات.

(٢) تل.

(٣) بلغ النبي ﷺ قُباء يوم الاثنين من ربيع الأول ونزل عند كلثوم بن الهدم شيخ بني عمرو بن عوف، ومكث عنده أربعة أيام. وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ أن أسس مسجداً، فكان أول مسجد في الإسلام.

(٤) لما أراد المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه من هذه =

من مشركي قريش، ورسول الله ممنوع من الجهر بعبادة ربه. أما الآن فقد آواه الله هو وصحابته رضوان الله عليهم، بعد أن كانوا قليلاً يتخطّفهم الناس.

هجرة الأنبياء

وبهذه الهجرة تمت لرسولنا ﷺ سنة إخوانه من الأنبياء من قبله، فما من نبي منهم إلا نَبَت به بلاد نشأته فهاجر عنها، من إبراهيم أبي الأنبياء وخليل الله إلى عيسى كلمة الله وروحه، كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أُهينوا من عشائرهم، فصبروا ليكونوا مثالاً لمن يأتي بعدهم من متّبعيهم في الثبات والصبر على المكاره، ما دام ذلك في طاعة الله. فسل مصر وتاريخها تنبئْك عن إسرائيل (يعقوب) وبنيه أنهم هاجروا إليها حينما رأوا من بنيها ترحيباً بهم، وتركهم وما يعبدون إكراماً ليوسف وحكمته، ولما مضت سنون نسي فيها المصريون تدبير يوسف وفضله عليهم، فاضطهدوا بني إسرائيل وآذوهم، فخرج بهم موسى وهارون، ليتمكنوا من إعطاء الله حقه في عبادته، وهرب المسيح عليه السلام من اليهود، حينما كذبوه فأرادوا الفتك به حتى كان من ضمن تعاليمه (طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات) ثم قال بعد: (افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات فإنهم طردوا الأنبياء قبلكم) وسل القرى التي حلت بها نقمة الله لكفر أهلها كديار لوط وعاد وثمود، تنبئْك عن مهاجرة الأنبياء منها قبل حلول النقمة، فلا غرابة أن هاجر عليه السلام من بلاد منعه أهلها من تتميم ما أراده الله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[1].

أعمال مكة

هذا، ولنبين لك مجمل ما دعا إليه الرسول ﷺ بمكة من أصول الدين وذلك أمران:

▪ الهجرة الشريفة، ولعدم المخالفة بين مبدأ الهجرة وبدء السنة الهلالية، قدموا ميعاد الهجرة شهرين وجعلوا بدء الهجرة من محرم سنتها.

(١) سورة الأحزاب: آية ٦٢.

الأول: الاعتقاد بوحدانية الله وألا شرك معه في العبادة غيره، سواء كان ذلك الغير صنماً كما يفعل مشركو مكة، أو أباً أو زوجة أو بنتاً كما كان عليه بعض الطوائف الأخرى كالنصارى. ولولا الاعتقاد بوحدانية الله ما كلَّف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الأخلاق، بل كان يسير فيما تأمره به نفسه من شهواتها وملذاتها مادام ذلك خافياً عن الناس.

الثاني: الاعتقاد بالبعث والنشور وأن هناك يوماً ثانياً للإنسان، يجازى فيه على ما صنعه في الدنيا إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وعلى هذين الأمرين جاء غالب الآي المكية، فقلما ترى سورة من سور مكة إلا مشحونة بالاستدلال عليهما وتوبيخ من تركهما، وكل ذلك بأساليب تأخذ بالعقل، وبراهين لا تحتاج لفلسفة الذين يشغلون أنفسهم بما لا طائل تحته مما يضيع الوقت سدى. ونزل على رسول الله ﷺ بمكة من القرآن معظمه، وهو ما عدا ثلاثاً وعشرين سورة منه، وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الحج، النور، الأحزاب، القتال، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصف، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم، النصر. هذه كلها مدنية وباقي القرآن مكي.

ولما نزل عليه السلام بقباء، نزل على شيخ بني عمرو كلثوم بن الهدم، وكان يجلس للناس ويتحدث لهم في بيت سعد بن خيثمة، لأنه كان عزباً. ونزل أبو بكر بالسُّنْح (محلة بالمدينة) على خارجة بن زيد من بني الحارث من الخزرج.

مسجد قُباء

وأقام رسول الله بقُباء ليالي أسس فيها مسجد قباء الذي وصفه بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم، وصلى فيه عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأنصار والمهاجرين وهم آمنون مطمئنون. وكانت المساجد على عهد

رسول الله في غاية من البساطة، ليس فيها شيء مما اعتاده بناة المساجد في القرون الأخيرة، لأن رسول الله وأصحابه لم يكن جل همهم إلا منصرفاً لتزيين القلوب وتنظيفها من حظ الشيطان، فكان سور المسجد لا يتجاوز القامة وفوقه مظلة يُتقى بها حر الشمس.

الوصول الى المدينة

ثم تحول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة والأنصار محيطون به متقلدي سيوفهم، وهنا حدّث ولا حرج عن سرور أهل المدينة، فكان يوم تحوُّله اليهم يوماً سعيداً لم يروا فرحين بشيء فرحهم برسول الله، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيَّات الوداع[1]
وجب الشُّكر علينا ما دعا لله داع
أيُّها المبعوث فينا جئْتَ بالأمر المطاع

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله ما بين ماشٍ وراكب، يتنازعون زمام ناقته، كلٌّ يريد أن يكون نزيله.

أول جمعة

وأدركته عليه الصلاة والسلام صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف، فنزل وصلاها وهذه أول جمعة له عليه الصلاة والسلام. وأول خطبة خطبها عليه الصلاة والسلام حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمُنَّ والله ليُصْعَقَنَّ[2] أحدكم ثم ليدعَنَّ غنمه ليس لها راعٍ ثم

(١) منعطف قرب المدينة كانوا يودعون عنده المسافرين.

(٢) الصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد، والصاعقة هنا صيحة العذاب وصعِق الرجل بالكسر صعقة غشي عليه أي مات.

ليقولنَّ له ربه، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك،؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قُدَّامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزي الحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

النزول على أبي أيوب

ثم ساروا، وكلما مروا على دار من دور الأنصار يتضرع إليه أهلها بأن ينزل عندهم ويأخذون بزمام الناقة، فيقول: دعوها فإنها مأمورة، ولم تزل سائرة حتى أتت بفناء بني عدي بن النجار (وهم أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده) فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبي أيوب الأنصاري واسمه خالد بن زيد[1] وذلك محل مسجده الشريف، فقال عليه الصلاة والسلام: ههنا المنزل إن شاء الله ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[2] فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعه في منزله. وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته فكانت عنده، وخرجت ولائد بني النجار يقلن:

نحن جوارٍ من بني النجار يا حبَّذا محمد من جار

فخرج إليهنَّ رسول الله ﷺ فقال: أتحبِبْنني؟ فقلن: نعم، فقال: الله يعلم أن قلبي يحبكنَّ. واختار عليه الصلاة والسلام النزول في الدُّور الأسفل من دار أبي أيوب، ليكون أريح لزائريه، ولكن لم يرض رضي الله عنه ذلك كرامة لرسول الله، لما يمكن أن يصيبه من التراب الذي يحدثه وطء الأقدام أو الماء الذي يُهراق[3]، فقد اتفق أن انكسرت من زوجته جرة ماء بالليل، فقام

(١) توفي زمن معاوية في حصار القسطنطينية ودفن خارج المدينة.

(٢) سورة المؤمنين: آية ٢٩.

(٣) يسكب.

هـو وهي بقـطيفتهمـا التي ليس لهمـا غيـرهـا، يمسحــان المـاء خــوفـاً على رسول الله، ولذلك لم يزل أبو أيوب يستعطفه حتى كان في العلوّ. وكانت تأتيه الجفـان[1] كـل ليلة من سَـراة الأنصـار كسعـد بن عبـادة وأسعـد بن زرارة وأم زيد بن ثابت، فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع من جفان الثريد.

نزول المهاجرين

ولمـا تحـول مـع رسـول الله أغلب المهـاجـرين، تنـافس فيهم الأنصـار فحكَّموا القرعة بينهم، فما نزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة.

أخوة الإسلام

ومن يتـأمل إلى هـذه المحبة التي يستحيـل أن تكون بتـأثير بشـر، بـل بفضـل من الله ورحمتـه، يفهم كيف انتصـر هؤلاء القـوم على معـانـديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العدد والعدد.

وكـان الأنصار يؤثـرون إخوانهم المهـاجرين على أنفسهم، قـال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2]. وهذا أعلى درجات الأخـوة، وكل ذلك كانوا يرونه قليلاً بـالنسبة لمـا وجب عليهم لإخوانهم، فـإن رسول الله ﷺ ليمكّن بينهم الإخاء آخى بين المهاجرين والأنصار. فكان كل أنصـاري ونزيله أخوين في الله، ومن العبث أن نكلف القلم أن يوضح للقارىء أن هذه الأخوة كانت أرقى بكثير من الأخـوة العصبية، بـل نكل ذلـك للإحسـاس الإسلامي، فإنه أفصـح منطقـاً من القلم. وعلى الإجمال فتلك قلوب ألَّف الله بينهـا حتى صارت شيئاً

(١) جمع جفنة وهي القصعة.
(٢) سورة الحشر: آية ٩.

واحداً في أجسام متفرقة، وعسى الله أن يوفق مسلمي عصرنا إلى هذا الإخاء، حتى يسودوا كما ساد المتحدون. وكان هذا الإخاء على المواساة والحق، وأن يتوارثوا بعد الموت، دون ذوي الأرحام. وكان عليه الصلاة والسلام يقول لكل اثنين (تآخيا في الله أخوين أخوين) ودام هذا الميراث الى أن أنزل الله سبحانه قوله: ﴿ وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾[1].

هجرة أهل البيت

ولما استقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة، ليأتيا بمن خلف من أهله، وأرسل معهما عبد الله بن أُريقط يدلهما على الطريق فقدما بفاطمة وأم كلثوم ابنتيْه عليه الصلاة والسلام، وسودة زوجه، وأم أيمن زوج زيد وابنها أسامة. وأما زينب فمنعها زوجها أبو العاص بن الربيع، وخرج مع الجميع عبد الله بن أبي بكر بأم رومان زوج أبيه، وعائشة أخته، وأسماء زوج الزبير بن العوام، وكانت حاملاً بابنها عبد الله، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة.

حمى المدينة

ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقاً للمهاجرين من أهل مكة، فأصاب كثيراً منهم الحُمّى، وكان رسول الله يعُودهم، فلما شكوا إليه الأمر قال: اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد، وبارك لنا في مُدِّها وفي صاعها، وانقل وباءها الى الجُحْفة[2] فاستجاب الله جل وعلا دعوته، وعاش المهاجرون في المدينة بسلام.

(١) سورة الأحزاب: آية ٦.

(٢) قرية على اثنين وثمانين ميلاً من مكة وهي ميقات أهل الشام.

منع المستضعفين من الهجرة

ومنع مشركو مكة بعضاً من المسلمين من الهجرة، وحبسوهم وعذبوهم، منهم الوليد بن الوليد، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص، فكان عليه الصلاة والسلام يدعو لهم في صلاته، وهذا أصل القنوت. وقد حصل في أوقات مختلفة ومحالّ في الصلاة مختلفة، فكان في وتر العشاء وصلاة الصبح بعد الركوع وقبله، فروى كل صحابي ما رآه. وهذا سبب اختلاف الأئمة في مكان القنوت.

بناء المسجد

ثم شرع عليه الصلاة والسلام في بناء مسجده في مبرك ناقته أمام محلة بني النجار، وكان محله مِرْبداً[1] للتمر يملكه غلامان يتيمان في حجر أسعد بن زرارة، فدعا الغلامين وساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، **فقالا**: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى عليه الصلاة والسلام أن يقبله منهما هبة بل ابتاعه منهما، وكان فيه قبور للمشركين وبعض حفر ونخل، فأمر بالقبور فنبشت وبالحفر فسوِّيت وبالنخل فقطع. ثم أمر باتخاذ اللَّبِن فاتخذ وشرعوا في البناء به، وجعلوا عضادتي الباب من الحجارة وسقفوه بالجريد، وجعلت عمده من جذوع النخل، ولا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا القليل، وقد عمل فيه رسول الله ﷺ بنفسه ليرغّب المسلمين في العمل، وصاروا يرتجزون وهو يقول معهم:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

وجعلت قبلة المسجد في شماله إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب، ثم حصبت أرضه لأن المطر كان قد أثَّر فيه، فأمر عليه الصلاة والسلام بحصبه، ولم يزين المسجد بفرش حتى ولا بالحصر، وبنى بجانبه حجرتين إحداهما لسَوْدة بنت زمعة، والأخرى لعائشة، ولم يكن عليه الصلاة والسلام متزوجاً غيرهما إذا ذاك، وكانت الحجرتان متجاورتين، وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه، وصارت الحجرات تُبْنى كلما جاءت زوج.

(١) فضاء خلف الدار يوضع فيه تمر أو حنطة.

بدء الأذان

أوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائماً متذكرين عظمة العلي الأعلى، فيتبعون أوامره ويجتنبون نواهيه، ولذلك قال في محكم كتابه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1] وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة، ليذاكر المسلمون بعضهم بعضاً في شؤونهم واحتياجاتهم، ويقووا روابط الإلفة والاتحاد بينهم. ومتى حان وقت الصلاة فلا بد من عمل ينبه الغافل ويذكر الساهي، حتى يكون الاجتماع عاماً، فائتمر النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فلم يرضوا، ذلك لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل. وقال الآخرون: نشعل ناراً على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضاً. وأشار آخرون ببوق وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم، فكرهه رسول الله، لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود في عمل ما، وأشار بعضهم بالناقوس، وهو ما يستعمله النصارى، فكرهه الرسول أيضاً، وأشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها فقبل هذا الرأي. وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصاري، بينما هو بين النائم واليقظان إذ عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال: بلى، فقال له: قل الله أكبر الله أكبر مرتين، وتشهَّد مرتين، ثم قل حيَّ على الصلاة مرتين، ثم قل: حيَّ على الفلاح مرتين، ثم كبِّر ربك مرتين، ثم قل لا إله إلا الله، فلما استيقظ توجه إلى النبي ﷺ وأخبره رؤياه، فقال: إنها لرؤيا حق، ثم قال له لقِّن ذلك بلالاً فإنه أندى صوتاً منك. وبينما بلال يؤذن إذ جاء عمر يجر رداءه، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله. وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة والآخر عبد الله بن أم مكتوم، وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حيَّ على الفلاح: «الصلاة خير من النوم» مرتين وأقره الرسول على ذلك. وكان عليه الصلاة والسلام يأمر في فجر رمضان بأذانين: أولهما يوقظ به الغافلون حتى ينتبهوا للسحور،

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٤٥.

والثاني للصلاة، أما الأذان للجمعة فكان أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد نداء آخر على الزوراء. رواه البخاري. ولما تولى هشام بن عبد الملك أخذ الأذان الذي زاده عثمان بالزوراء وجعله على المنار، ثم نقل الأذان الذي كان على المنار حين صعود الإمام على المنبر في العهد الأول بين يديه.

فعلم بذلك أن الأذان في المسجد بين يدي الخطيب «بدعة» أحدثها هشام بن عبد الملك، ولا معنى لهذا الأذان لأنه هو نداء إلى الصلاة، ومن هو في المسجد لا معنى لندائه، ومن هو خارج المسجد لا يسمع النداء إذا كان النداء في المسجد. ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج في المدخل.

قال الحافظ في فتح الباري: وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من الدعاء إليها بالذكر والصلاة على النبي ﷺ، فهو في بعض البلاد دون بعض، واتباع السلف الصالح أولى. اهـ.

فعلم من ذلك كله أن سنة رسول الله ﷺ في أذان الجمعة أنه كان إذا جلس على المنبر أذّن مؤذنه على المنار، فإذا انتهت الخطبة أُقيمت الصلاة وما عدا ذلك فكله ابتداع.

أما الإقامة وهي الدعوة للصلاة في المسجد، فقد اختلفت الروايات في نصها، فرواها محمد بن إدريس الشافعي مفردة إلا لفظ (قد قامت الصلاة) فمثنى، ورواها مالك بن أنس مفردة كلها، ورواها أبو حنيفة النعمان مثنى كلها.

يهود المدينة

هذا، وكما ابتلى الله المسلمين في مكة بمشركي قريش ابتلاهم في المدينة بيهودها، وهم: بنو قَيْنُقاعٍ، وقُرَيْظة، والنَّضيرِ، فإنهم أظهروا العداوة

والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبيَّن لهم أنه الحقُّ، وكانوا قبل مجيء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب، إذا شبت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه، فلما جاءهم ما عرفوا، استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوة في ولد إسماعيل، فكفروا بما أنزل الله بغياً، مع أنهم يرون أن رسول الله محمداً لم يأت إلا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها على من سبقه من المرسلين، مبيناً ما أفسده التأويل منها، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. ومما عابوه على الإسلام نسخ الأحكام، وما دروا أن القادر العليم يعلم ما يحتاج إليه الإنسان أكثر منهم، فإنه ميَّال بطبعه للترقي، والرسول عليه الصلاة والسلام وجد بادىء بدء بين جماعة من العرب أُمِّيين ليسوا على شيء من الاعتقادات الإلهية، فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدريج، لأنه لو حرم الله عليهم شرب الخمر وأكل الربا، وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا إلى آخر الأوامر والمناهي التي جاء بها الشرع الإسلامي، لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم المختلفة أهواؤهم، الذين كانوا منغمسين في كثير من الأضاليل، فجاءهم رسول الله ﷺ بالأمر شيئاً فشيئاً، حتى روضت عقولهم وهذبت نفوسهم، وكانت الأحكام لا ينزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التي تقتضيها، ليكون التأثير في النفوس أشد، ولكن اليهود أرادوا غَلَّ يد القدرة عن أن تفعل إلا ما يشتهون. وقد حاجهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد عن الحق، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1]. ثم ختم جل ذكره عدم إجابتهم بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[2].

فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين، ولم ينقل لنا عن أحد

---

(١) سورة البقرة آية: ٩٤.

(٢) سورة البقرة آية: ٩٥.

منهم أنه تمنى ذلك ولو نطقاً باللسان، وقد تبين الهدى لأحد رؤساء بني قَيْنُقاع، وهو عبد الله بن سلام[1]، فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن، وبعد أن كان اليهود يعدُّونه من رؤسائهم عدُّوه من سفهائهم حينما بلغهم إسلامه، فـ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[2] ولما استحكمت في قلوبهم عداوة الإسلام صاروا يجهدون أنفسهم في إطفاء نوره. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3].

المنافقون

وكان يساعدهم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم، فأخفوا كفرهم خوفاً على حياتهم، وكان يرأس هذه الجماعة عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي الذي كان مرشحاً لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ، ولا شك أن ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفار، لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم، ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم، كما حصل ذلك مراراً. والأساس الذي كان عليه رسول الله أن يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن، ولكنه عليه الصلاة والسلام مع ذلك كان لا يأمنهم في عمل ما. فكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ويولي عليها بعض الأنصار، ولكن لم يعهد أنه ولى رجلاً ممن عُهِد عليه النفاق، لأنه عليه السلام يعلم ما يكون منهم لو وُلُّوا عملاً، فإنهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لإضرار المسلمين، وهذا درس مهم لرؤساء الإسلام يعلِّمهم ألّا يثقوا في الأعمال المهمة إلا بمن لم تظهر عليهم شبهة النفاق، أو إظهار ما يخالف ما في الفؤاد.

(١) اسمه الحصين بن سلام حبر اليهود وعالمهم، أسلم وحسن إسلامه ودعا أهله فأسلموا.

(٢) سورة البقرة آية: ٩٠.

(٣)) سورة التوبة آية: ٣٢.

معاهدة اليهود

هـذا، وقد علمت أنـه كان يضـاد المسلمين في المدينـة فئتان: اليهـود والمنـافقون، ولكن الـرسول ﷺ قبـل من هؤلاء ظواهـرهم، وعقد مـع أولئـك عهـداً مقتضاه تـرك الحرب والأذى فـلا يحاربهم ولا يؤذيهم، ولا يعينـون عليه أحداً، وإن دهمه بالمدينة عدو ينصرونه، وأقرهم على دينهم.

مشروعية القتال

قـد علم مما تقـدم أن رسول الله ﷺ لم يقـاتل أحـداً على الدخـول في الدين، بل كان الأمر قاصراً على التبشير والإنذار، وكان الله سبحانه ينزل عليه من الآي ما يقوِّيه على الصبر أمـام ما كـان يلاقيـه من أذى قريش، ومن ذلـك قوله: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[1]. وكان كثيراً ما يقص الله عليه أنباء إخـوانه من المـرسلين قبله، ليثبت به فؤاده. ولمـا ازداد طغيان أهل مكة ألجؤوه إلى الخروج من داره بعـد أن ائتمروا على قتله، فكـانوا هم البـادئين العـداء على المسلمين، حيث أخرجهم من ديـارهم بغيـر حق، فبعـد الهجرة أذن الله للمهـاجرين بقتـال مشركي قـريش بقولـه تعـالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾[2]. ثم أمرهم بـذلك في قـوله: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

(١) سورة الأحقاف آية: ٣٥.

(٢) سورة الحج الآية ٣٩ أول آية نزلت بمشروعية القتال، وكانت في السنة الثانية للهجرة.

﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] . وبذلك لم يكن الرسول يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب. فلما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة من مشركي العرب واتحدوا عليهم مع الأعداء، أمر الله بقتال المشركين كافة بقوله: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾[2] وبذلك صار الجهاد عاماً لكل من ليس له كتاب من الوثنيين، وهذا مصداق قوله عليه السلام: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله». ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود، حيث إنهم ساعدوا المشركين في حروبهم، أمر الله بقتالهم بقوله: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[3]. وقتالهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ليأمن المسلمون جانبهم. وصار قتال رسول الله للأعداء على هذه المبادىء الآتية:

١ ـ اعتبار مشركي قريش محاربين، لأنهم بدؤوا بالعدوان، فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم، حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين.

٢ ـ متى رئي من اليهود خيانة وتحيُّز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفي أو القتل.

٣ ـ متى تعدَّت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشاً، قوتلت حتى تدين بالإسلام.

٤ ـ كل من بادأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل، حتى يذعُن بالإسلام أو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر.

---

(١) سورة البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣.

(٢) سورة التوبة آية: ٣٦.

(٣) سورة الأنفال آية: ٥٨.

٥ ـ كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحقه، والإسلام يقطع ما قبله.

وقد أنزل الله في القرآن الكريم كثيراً من الآي تحريضاً على الإقدام في قتال الأعداء وتبعيداً عن الفرار من الزحف، فقال في الموضوع الأول: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1]. وقال في الموضوع الثاني: في: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2].

بدء القتال

كانت عادة قريش أن تذهب بتجارتها إلى الشام لتبيع وتبتاع، ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عيراً، وكان يسير معها لحراستها كثير من أشراف القوم وسَراتهم. ولا بد لوصولهم الى الشام من المرور على دار الهجرة، فرأى رسول الله ﷺ أن يصادر تجارتهم ذاهبة وآيبة، ليكون في ذلك عقاب لمشركي مكة حتى تضعف قوتهم المالية، فيكون ذلك أدعى لخذلانهم في ميدان القتال الذي لا بد أن يكون، لأن قريشاً لم تكن لتسكت عمن سفّه أحلامهم وعاب عبادتهم، خصوصاً وهم قدوة العرب في الدين.

سرية [3]

ففي شهر رمضان أرسل عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، وعقد له لواءً أبيض حمله أبو مَرْثَد حليف حمزة، ليعترض عيراً لقريش آيبة من الشام فيها أبو جهل وثلاثمائة من أصحابه المشركين، فسار

---

(١) سورة النساء آية: ٧٤.
(٢) سورة الأنفال آية ١٥، ١٦.
(٣) السرية قطعة من الجيش، ونريد بها كل غزاة لم يكن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي كان فيها تسمى غزوة.

حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العيص[1]، فصادف العير هناك. فلما تصافّوا للقتال حجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني فأطاعوه وانصرفوا، وشكر عليه السلام مجدياً على عمله، لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم.

وفي شوال أرسل عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، في ثمانين راكباً من المهاجرين، وعقد له لواء أبيض حمله مِسْطح بن أُثاثة ليعترض عيراً لقريش، فيها مائتا رجل، فوافوا العير ببطن رابغ[2] فكان بينهم الرمي بالنبل، ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين فانهزموا، ولم يتبعهم المسلمون، وفرَّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين.

وفيات

وفي هذه السنة توفي من المهاجرين عثمان بن مظعون أخو رسول الله ﷺ من الرضاع، أسلم قديماً وهاجر الهجرتين. ولما دفن أمر عليه الصلاة والسلام بأن يرش قبره بالماء، ووضع على قبره حجراً وقال: أتعلم به قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي. وهذا كان القصد من وضع الأحجار على المقابر، لا ما يقصده أهل العصور الأخيرة من تشييد الهياكل على القبور، وتصويرها بصور ترى في عين الناظر كالأصنام، ليأتي أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالات كثيرة تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم. ومن العبث فعل شيء لم يفعله رسول الله ﷺ مما يتعلق بأمور الآخرة.

ومات من الأنصار أسعد بن زرارة أحد النقباء الأثني عشر. كان رضي الله عنه نقيب بني النجار، ولما مات اختار رسول الله نفسه للنقابة عليهم لأن ابن أخت القوم منهم. ومات أيضاً البراء بن معرور أحد النقباء وهو الذي كان

---

(١) عرض من أعراض المدينة أي ناحية منها. (٢) واد بين الحرمين قرب البحر.

يتكلم عن القـوم في العقبة الثـانية، ومـات من مشـركي مكـة في هـذه السنـة الوليد بن المغيرة، ولما احتضر جزع، فقال له أبـو جهل: مـا جزعـك يا عم؟ فقال: والله ما بي من جزع من الموت ولكن أخاف أن يظهر، وفيها أيضاً مات العاص بن وائل السهمي. وقد كفى الله المسلمين شر هذين الشقيَّيْنْ.

غزوة وَدَّان

ولاثنتي عشـرة ليلة خلت من السنـة الثـانيـة خـرج رسـول الله ﷺ من المدينة، بعد أن استخلف عليها سعد بن عبادة ليعترض عيراً لقريش. فسار حتى بلغ ودّان[1] وكان يحمل لواءه عمه حمزة ولم يلق هناك حرباً، لأن العير كانت قد سبقته. وفي هذه الغزوة صالح بني ضمرة على أنهم آمنون على أنفسهم ولهم النصر على من رامهم، وأن عليهم نصرة المسلمين إذا دعوا. ثم رجع المسلمون إلى المدينة بعد مضي خمس عشرة ليلة.

غزوة بُواط

ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه أن عيراً لقريش آيبة من الشام، فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فسار إليها في مائتين من المهاجرين، وذلك في ربيع الأول، وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص، فسار حتى بلغ بُواط[2] فوجد العير قد فاتته فرجع ولم يلق كيداً. وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم والاجتهاد في تعمية أخبارهم عن أهل المدينة.

غزوة العُشَيرة[3]

واعقب رجوعه عليه الصلاة والسلام خروج قريش بأعظم عير لها، فقد

(١) قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الأبواء ستة أميال.
(٢) جبال جهينة على أبراد من المدينة جهة ينبع.
(٣)) قرية من ناحية ينبع.

جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها مثقال فصاعداً إلا بعث به في تلك العير، وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلاً. فخرج لها رسول الله في جمادى الأولى ومعه مائة وخمسون من المهاجرين، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسود، وحمل لواءه عمه حمزة. ولم يزل سائراً حتى بلغ العُشَيرة فوجد العير قد مضت. وحالف [١] عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة بني مُدلج وحلفاءهم، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع.

غزوة بدر الأولى

وبعد رجوعه عليه الصلاة والسلام بقليل جاء كُرْزُ بن جابر الفِهْري، وأغار على سرح المدينة وهرب، فخرج الرسول في طلبه، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة الأنصاري، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، فسار حتى بلغ سَفَوان [٢] وفاته كُرز فلم يلق حرباً. وتسمى هذه الغزوة بدراً الأولى.

سرية [٣]

وفي رجب من هذه السنة أرسل سرية عدتها ثمانية رجال يرأسها عبد الله بن جحش، وأعطاه كتاباً مختوماً لا يفضُّه إلا بعد أن يسير يومين ثم ينظر فيه، فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب، فإذا فيه: «إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم». وإنما لم يخبرهم عليه الصلاة والسلام بمقصدهم وهم بالمدينة، حذراً من شيوع الخبر، فيدل عليهم أحد الأعداء من المنافقين أو اليهود، فتترصد لهم قريش.

---

(١) لعل الأصوب أن يقال وَادَعَ كما ورد في السِّير، حيث لم يحالفهم عليه الصلاة والسلام.

(٢) واد من ناحية بدر.

(٣) اصطلح الرواة على أن الكتيبة التي لا يكون فيها رسول الله تسمى سرية، والتي يكون فيها تسمى غزوة إن وقع فيها قتال أو لم يقع.

ولا يخفى أن عدد السرية قليل لا يمكنه المقاومة. ثم سار عبد الله رضي الله عنه، وفي أثناء السير تخلف سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، لأنهما أضلّا بعيرهما الذي كانا يعتقبانه، وسار الباقون حتى وصلوا نخلة، فمرت بهم عير قرشية تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان، فأجمع المسلمون أمرهم على أن يحملوا عليهم ويأخذوا ما معهم، فحملوا عليهم في آخر يوم من رجب فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان والحكم، وهرب نوفل، واستاقوا العير، وهي أول غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش، ثم رجعوا ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم. فلما قدموا المدينة وشاع أنهم قاتلوا في الأشهر الحرم وعابتهم قريش واليهود بذلك، عنّفهم المسلمون وقال لهم عليه الصلاة والسلام: ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم فندموا، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾[1] فسُرّي عنهم[2]. وقد طلب المشركون فداء أسيريهما، فقال عليه الصلاة والسلام: حتى يرجع سعد وعتبة، فلما رجع قبل عليه الصلاة والسلام الفدية في الأسيرين. فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه مع المسلمين، وأما عثمان فلحق بمكة كافراً.

تحويل القبلة

مكث عليه الصلاة والسلام بالمدينة ستة عشر شهراً يستقبل بيت المقدس في صلاته، وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة، ويقلب وجهه في السماء داعياً الله بذلك. فبينما هو في صلاته إذ أوحى الله إليه بتحويل القبلة

(١) سورة البقرة آية ٢١٧.

(٢) ذهب همهم وندمهم.

إلى الكعبة، فتحول وتحوَّل مَن وراءه. وكانت هذه الحادثة سبباً لافتتان بعض الذين ضعفت قلوبهم فارتدوا على أعقابهم. وقد أكثر اليهود من التنديد على الإسلام بهذا التحويل، وما دروا أن لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

صوم رمضان

وفي شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم شهر رمضان على الأمة الإسلامية، وكان عليه الصلاة والسلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر. والصيام من دعائم هذا الدين والفرائض التي بها يتم النظام، فإن الإنسان مجبول على حب نفسه والسعي فيما يعود عليها بالنفع الخاص، تاركاً ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين، فلا بد من وازع يزعه لحاجات قوم أقعدتهم قواهم عن إدراك حاجاتهم، ولا أقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش، إذ بهما تلين نفسه ويتهذب خلقه، فيسهل عليه بذل الصدقات.

صدقة الفطر

ولذلك أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر، فترى الإنسان يبذلها بسخاء نفس ومحبة خالصة.

زكاة المال[1]

وفي هذا العام فرضت زكاة الأموال. وهذه هي النظام الوحيد الذي به يأكل الفقراء والمساكين من إخوانهم الأغنياء بلا ضرر على هؤلاء، فإذا بلغت الدنانير عشرين أو الدراهم مائتين، وحال عليها الحول، وجب عليك أن تؤدي

(١) هي ركن من أركان الإسلام يعاقب تاركها، وهي لغة التطهير والنماء.

ربع عشرها (أي اثنين ونصفاً في كل مائة) وما زاد فبحسابه. وإذا بلغت الشياه أربعين والبقر ثلاثين والإبل خمساً، وحال عليها الحول، وجب عليه كذلك أن تؤدي منها جزءاً مخصوصاً حدده الشارع، ومثلها عروض التجارة ومحصولات الزراعة. كل هذا يقبضه الإمام ويوزّعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين في آية الصدقة ﴿ * إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1]. واللبيب العاقل البعيد عن التعصب يحكم لأول نظرة أن هذا النظام، مع عدم إضراره بالأغنياء، مقلّل لمصائب الفقر التي ألجأت كثيراً من فقراء الأمم أن يخالفوا نظام دولهم، ويؤسسوا مبادىء تقويض العمران وتداعي الأمن، كما يفعله الاشتراكيون وغيرهم.

غزوة بدر الكبرى[2]

لم يطل العهد بتلك العير العظيمة التي خرج لها عليه الصلاة والسلام وهي متوجهة إلى الشام، فلم يدركها ولم يزل مترقباً رجوعها، فلما سمع برجوعها ندب إليها أصحابه وقال: هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن يُنْفِلكُموها، فأجاب قوم وثقل آخرون لظنهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يرد حرباً، فإنه لم يحتفل بها بل قال: من كان ظهره حاضراً فليركب معنا. ولم ينتظر من كان ظهره غائباً. فخرج لثلاث ليالٍ خلون من رمضان، بعد أن ولى على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وكان معه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً: مائتان ونيِّف وأربعون من الأنصار، والباقون من المهاجرين، ومعهم فَرَسان وسبعون بعيراً يعتقبونها، والحامل للواء مصعب بن عمير العبدري. ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ استأجر راكباً ليأتي قريشاً ويخبرهم الخبر، فلما

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠.

(٢) بدأت موقعة بدر في صباح السابع عشر من رمضان في السنة الثانية للهجرة، وانتهت في اليوم نفسه.

علموا بذلك أدركتهم حميتهم وخافوا على تجارتهم، فنفروا سراعاً ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب بن عبد المطلب، فإنه أرسل بدله العاص بن هشام بن المغيرة، وأراد أمية بن خلف أن يتخلف لحديث حدثه إياه سعد بن معاذ حينما كان معتمراً بعد الهجرة بقليل، حيث قال ـ كما رواه البخاري ـ سمعت من رسول الله يقول: إنهم قاتلوك، قال: بمكة؟ قال: لا أدري. ففزع لذلك وحلف ألا يخرج، فعابه أبو جهل ولم يزل به حتى خرج، قاصداً الرجوع بعد قليل، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة، فإن منيته ساقته إلى حتفه رغم أنفه. وكذلك عزم جماعة من الأشراف على القعود فعيب عليهم ذلك، وبهذا أجمعت رجال قريش على الخروج فخرجوا على الصعب والذلول أمام القينات[1] يغنين بهجاء المسلمين ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[2] وقد ضرب الله عمل الشيطان هذا مثلاً يعتبر به ذوو الرأي من بعدهم، فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] وهكذا كان عمله في هذه الواقعة. ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[4] وكان عدّة من خرج من المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً معهم مائة فرس وسبعمائة بعير. أما رسول الله ﷺ فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون، ولم يكن خروجه إلا للعير، فعسكر ببيوت السقيا خارج المدينة، واستعرض الجيش فرد من ليس له قدرة على الحرب، ثم أرسل اثنين يتجسسان الأخبار عن العير: ولما بلغ الروحاء[5] جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عيرهم، وجاءه مخبراه بأن العير ستصل بدراً غداً أو بعد

---

(١) المغنيات.

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٧.

(٣) سورة الحشر الآية ١٦.

(٤) سورة الأنفال آية ٤٨.

(٥) موضع على ثلاثين أو أربعين ميلاً جنوب المدينة الغربي.

غد، فجمع عليه الصلاة والسلام كبراء الجيش وقال لهم: «أيها النـاس إن الله قد وعدني إحدى الطائفتين أنهـا لكم العِير أو النفيـر»[1] فتبين له عليـه الصلاة والسلام أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة، وهي العيـر، ليستعينوا بمـا فيها من الأموال، فقد قالوا: هلا ذكرت لنا القتال فنستعد؟ وجاء مصداق ذلك قـوله تعـالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[2].

ثم قـام المقداد بن الأسـود رضي الله عنه فقـال: يا رسـول الله امض لما أمـرك الله، فوالله لا نقـول لك كمـا قال بنـو إسرائيـل لمـوسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[3]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد لجالدْنا معك من دونـه حتى تبلغه، فدعا له بخير، ثم قـال عليه الصـلاة والسلام: أشيـروا عليَّ أيها النـاس ـ وهو يريد الأنصار ـ لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تجب عليهم نصرته إلا مـا دام بين أظهرهم، فإن فيها: «يا رسـول الله إنا بُـرآء من ذمتك حتى تصـل إلى دارنا، فإذا وصلت إليها فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنـا ونساءنـا».
فقال سعد بن معاذ سيد الأوس: كأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: أجل، فقال سعد: قد آمنا بك وصـدقناك وأعـطيناك على ذلـك عهودنـا، فامض لمـا أمرك الله، فـوالذي بعثـك بالحق لـو استعرضت بنـا هذا البحـر فخضتـه لنخـوضنـه معك، وما نكره أن تكون تلقى العـدو بنا غـداً، إنا لصُبُرٌ عنـد الحرب صُـدُقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرُّ بـه عينك فسـرْ على بركـة الله. فأشـرق وجهه عليه الصلاة والسلام وسر بذلك وقال كمـا في رواية البخـاري: «أبشروا والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم». فعلم القوم من هذه الجملة أن الحرب لا بد حاصلة، وحقيقة حصلت، فإن أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق المسلوكة وسـار متبعاً سـاحل البحـر فنجا، وأرسـل إلى قريش يعلمهم

(١) العير: القافلة. والنفير: القتال.
(٢) سورة الأنفال آية ٧.
(٣) سورة المائدة آية ٢٤.

بذلك ويشير عليهم بالرجوع، فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نحضر بدراً[1] فنقيم فيه ثلاثاً ننحر الجزور[2] ونطعم الطعام ونُسقي الخمر، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً. فقال الأخنس بن شريق الثقفي لبني زهرة، وكان حليفاً لهم: ارجعوا يا قوم فقد نجّى الله أموالكم. فرجعوا ولم يشهدوا بدراً زهري ولا عدوي ثم سار الجيش حتى وصلوا وادي بدر فنزلوا عُدْوَته القصوى[3] عن المدينة في أرض سهلة لينة.

أما جيش المسلمين فإنه لما قارب بدراً أرسل عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ليعرفا الأخبار، فصادفا سقاة لقريش فيهم غلام لبني الحجاج وغلام لبني العاص السهميين فأتيا بهما، والرسول عليه الصلاة والسلام قائم يصلي، ثم سألاهما عن أنفسهما فقال: نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء، فضرباهما لأنهما ظنا أن الغلامين لأبي سفيان، فقال الغلامان: نحن لأبي سفيان فتركاهما. ولما أتم الرسول عليه الصلاة والسلام صلاته قال: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما؟ صدقا. والله إنهما لقريش. ثم قال لهما: أخبراني عن قريش؟ قالا: هم وراء هذا الكثيب، فقال لهما: كم هم؟ فقالا: لا ندري. قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، قال: القوم ما بين التسمائة والألف. ثم سألهما عمن في النفير من أشراف قريش فذكرا له عدداً عظيماً، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها[4] ثم ساروا حتى نزلوا بُعدوة الوادي الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة، فأصبح المسلمون عطاشاً بعضهم جنب وبعضهم محدث، فحدثهم الشيطان

---

(١) محل بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب في الجنوب الغربي منها على الطريق السلطاني، وكان به سوق تعقد كل سنة ثمانية أيام.

(٢) الجزور من الإبل والشاة الذكر وانثى والجمع منها الجزر بضمتين وجزر الجزور إذا نحرها وجلدها.

(٣) عدوة الوادي: شاطئه.

(٤) قطع كبدها.

بوسوسته، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لثنيت عزائمهم، فإنه قال لهم: ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ويذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاؤوا.

فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادي، فشربوا واتخذوا الحياض على عُدوة الوادي، واغتسلوا وتوضؤوا وملأوا الأسقية، ولبدت الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام، على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين، فإنه وحّل الأرض حتى لم يعودوا يقدرون على الارتحال. ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[1] وقد أرى الله رسوله في منامه الأعداء، كما أراهموه وقت اللقاء قليلي العدة كيلا يفشل المسلمون، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[2] ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر، فقال له الحُباب بن المنذر الأنصاري، وكان مشهوراً بجودة الرأي؛ يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فإني أعرف غزارة مائه وكثرته، فننزله ونغوّر ما عداه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً فنشرب ولا يشربون. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: لقد أشرت بالرأي. ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم، ثم أمر بالآبار التي خلفهم فغُوِّرت لينقطع أمل المشركين في الشرب من وراء المسلمين، وبنى حوضاً على القَليب الذي نزل عليه. ثم قال له سعد بن معاذ

---

(١) سورة الأنفال آية ١١.

(٢) سورة الأنفال آية ٤٣، ٤٤.

سيد الأوس: يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد ندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذل ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن أشد لك حباً منهم ولا أطوع لك منهم، لهم رغبة في الجهاد ونية، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، إنما ظنوا أنها العير، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك، فقال عليه الصلاة والسلام: أو يقضي الله خيراً من ذلك. ثم بُني للرسول عريش فوق تل مشرف على ميدان الحرب. ولما اجتمعوا عدَّل عليه الصلاة والسلام صفوفهم: مناكبهم متلاصقة، فصاروا كأنهم بنيان مرصوص، ثم نظر لقريش فقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها [1] وفخرها تُحادّك [2] وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني به). وفي هذا الوقت وقع خُلْف بين رؤساء عسكر المشركين، فإن عتبة بن ربيعة أراد أن يمنع الناس من الحرب ويحمل دم حليفه عمرو بن الحضرمي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش، ويحمل ما أصيب من عيره، ودعا الناس إلى ذلك. فلما بلغ أبا جهل الخبر وسَمَه بالجبن [3] وقال: والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد. وقبل أن تقوم الحرب على ساقها خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي وقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأموتن دونه، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه فوقع على ظهره فزحف على الحوض حتى اقتحم فيه ليبرَّ قسمه فأتبعه حمزة فقتله، ثم وقف عليه الصلاة والسلام يحرض الناس على الثبات والصبر، وكان فيما قال: «وإنّ الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم». ثم ابتدأ القتال بالمبارزة، فخرج من صفوف المشركين ثلاثة نفر: عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد فطلبوا أكفاءهم، فخرج إليهم ثلاثة

---

(١) بكبريائها.

(٢) تعاديك.

(٣) وصفه بالجبن.

من الأنصار فقالوا: لا حاجة بكم إنما نريد أكفاءنا من بني عمنا. فأخرج لهم عليه الصلاة والسلام عبيدة بن الحارث بن المطلب[1] للأول. وحمزة بن عبد المطلب للثاني، وعليّ بن أبي طالب للثالث. فأما حمزة وعلي فقتلا صاحبيهما وأما عبيدة فاختلفا بضربتين كلاهما جرح صاحبه، فحمل رفيقا عبيدة على عتبة فأجهزا عليه، وحمل عبيدة بين الصفوف جريحاً يسيل مخُّ ساقه وأضجعوه الى جانب موقفه صلى الله عليه وآله وسلم فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة فوضع خده عليها، وبشَّره عليه الصلاة والسلام بالشهادة، فقال: وددت والله أن أبا طالب كان حياً ليعلم أننا أحق منه بقوله:

ونُسْلمه حتى نُصرَّع حولَه ونَذْهل عن أبنائنا والحلائل

وبعد انقضاء هذه المبارزة وقف عليه الصلاة والسلام بين الصفوف يعدِّ لها بقضيب في يده، فمرَّ بسواد بن غزية حليف بني النجار وهو خارج من الصف، فضربه بالقضيب في بطنه وقال: استقمْ يا سواد، فقال: أوجعتني يا رسول الله وقد بعثت بالحق والعدل فأَقِدْني[2] من نفسك، فكشف الرسول عليه الصلاة والسلام، عن بطنه وقال: استقد يا سواد، فاعتنقه سواد وقبَّل بطنه، فقال عليه الصلاة والسلام: ما حملك على ذلك؟ فقال: يا رسول الله قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدي جلدَك، فدعا له بخير. ثم ابتدأ عليه الصلاة والسلام يوصي الجيش فقال: «لا تحملوا حتى آمركم وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلُّوا السيوف حتى يغشَوكم» ثم حضهم على الصبر والثبات، ثم رجع إلى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر، وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشح سيفه. وكان من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام ذاك الوقت ـ كما جاء في صحيح البخاري ـ «اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تُعبد». فقال أبو بكر: حسبك فإن الله سينجز لك وعده، فخرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول:

---

(١) ورد في الأصل (عبد المطلب). والصواب ما ذكرنا.
(٢) دعني آخذ حقي منك.

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ ثم قال عليه الصلاة والسلام يحرّض الجيش: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة. ومن قتل قتيلاً فله سلَبُه» فقال عمير بن الحُمام وبيده تمرات يأكلها: بخ بخ! ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل. واشتد القتال وحمي الوطيس وأيد الله المسلمين بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم، فلم تكن إلا ساعة حتى هزم الجمع وولّوا الدبر، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فقتل من المشركين نحو السبعين، منهم من قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، قتلوا مبارزة أول القتال، وأبو البختري بن هشام، والجرّاح والد أبي عبيدة، قتله ابنه بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر، وقتل أمية بن خلف وابنه، وقد اشترك في قتلهما جماعة من الأنصار مع بلال بن رباح وعمار بن ياسر، وقد سعيا في ذلك لما كان يفعله بهما أمية في مكة. ومن القتلى حنظلة بن أبي سفيان وأبو جهل بن هشام أثخنه[1] فتيان صغيران من الأنصار، لما كانا يسمعانه من أنه كان شديد الإيذاء لرسول الله، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود. وقتل نوفل بن خويلد قتله علي بن أبي طالب، وقتل عبيدة والعاص والد أبي احيحة سعيد بن العاص بن أمية، وقتل كثيرون غيرهم. أما الأسرى فكانوا سبعين أيضاً قتل منهم عليه الصلاة والسلام، وهو راجع عقبةَ بن أبي مُعَيط، والنضرَ بن الحارث اللذين كانا بمكة من أشد المستهزئين. وكانت هذه الواقعة في ١٧ رمضان وهو اليوم الذي ابتدأ فيه نزول القرآن. وبين التاريخين ١٤ سنة قمرية كاملة.

وقد أمر عليه الصلاة والسلام بالقتلى فنُقلوا من مصارعهم التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بها قبل حصول الموقعة إلى قَلِيب بدر، لأنه عليه الصلاة والسلام كان من سننه في مغازيه إذا مر بجيفة إنسان أمر بها

---

(١) جرحه جراحاً بالغة.

فدفنت، لا يسأل عنه مؤمناً أو كافراً. ولما أُلقي عتبة والد أبي حذيفة أحد السابقين إلى الإسلام تغيَّر وجه ابنه، ففطن الرسول عليه الصلاة والسلام لذلك فقال لعلك دخلك من شأن أبيك شيء؟ فقال: لا والله، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام، فلما رأيت ما مات عليه أحزنني ذلك. فدعا له الرسول عليه الصلاة والسلام بخير.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام براحلته فشد عليها حتى قام على شفة القليب الذي رمي فيه المشركون، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان! أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فقال عمر: يا رسول الله: ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها!! فقال: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم.

وتقول عائشة رضي الله عنها: إنما قال إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق، ثم قرأت: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[1]، ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[2]، تقول يعلمون ذلك حينما تبؤوا مقاعدهم من النار (رواه البخاري). ثم أرسل عليه الصلاة والسلام المبشرين: فأرسل عبد الله بن أبي رواحة لأهل العالية[3]، وأرسل زيد بن حارثة لأهل السافلة راكباً على ناقة رسول الله. وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا[4] بالرسول ﷺ والمسلمين، عادة الأعداء في إذاعة الضّراء، يقصدون بذلك فتنة المسلمين، فجاء أولئك المبشرون بما سر أهل المدينة، وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله وزوج عثمان، ثم قفل رسول الله راجعاً، وهنا وقع خُلف بين بعض المسلمين في قسمة الغنائم: فالشبان يقولون كنا رِدْءاً[5] لكم فنشارككم. ولما كان هذا الاختلاف مما يدعو إلى الضعف، ويزرع في

(١) سورة الروم الآية ٥٢.

(٢) سورة فاطر الآية ٢٢.

(٣) قرى بظاهر المدينة وهي العوالي.

(٤) شيعوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين السوء.

(٥) مساوين لكم.

القلوب العداوة والبغضاء المؤديين إلى تشتت الشمل، أنزل الله حسماً لهذا الخلاف: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1] فسطع على أفئدتهم نور القرآن، فتآلفت بعد أن كادت تفترق، وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء ـ كما حكم القرآن ـ فقسمها عليه الصلاة والسلام على السواء الراجل مع الراجل، والفارس مع الفارس، وأدخل في الأسهام بعض من لم يحضر لأمر كُلّف به وهم: أبو لُبانة الأنصاري، لأنه كان مخلفاً على أهل المدينة، والحارث بن حاطب لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلفه على بني عمرو بن عوف ليحقق أمراً بلغه، والحارث بن الصِّمَّة، وخَوَّات بن جبير، لأنهما كُسِرا بالروحاء فلم يتمكنا من السير، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد، لأنهما أرسلا يتجسسان الأخبار فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب، وعثمان بن عفان، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلفه على ابنته رقية يمرضها، وعاصم بن عدي، لأنه خلفه على أهل قُباء والعالية. وكذلك أسهم لمن قتل ببدر وهم أربعة عشر منهم عبيدة بن الحارث بن المطلب بن هاشم الذي جرح في المبارزة الأولى، فإنه رضي الله عنه مات عند رجوع المسلمين من بدر ودفن بالصفراء. ولما قارب عليه الصلاة والسلام المدينة، تلقّته الولائد بالدفوف يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيُّها المبعوث فينا جئتَ بالأمر المطاع

أسرى بدر

ولما دخلوا المدينة استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك،

(١) سورة الأنفال آية ١.

فأرى ان تمكنني من فلان لقريب له فأضرب عنقه. وتمكن حمزة من أخيه العباس، وعلياً من أخيه عقيل. وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين. ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة. وقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله بك فيكونوا لك عضداً. فقال عليه الصلاة والسلام: إن الله ليُلينُ قُلوب أقوام حتى تكونٍ ألين من اللبن، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[2] ورأى عليه الصلاة والسلام رأي أبي بكر بعد أن مدح كلاً من الصاحبين لأن الوجهة واحدة وهي إعزاز الدين، وخذلان المشركين، ثم قال لأصحابه: أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء. وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه الرسول في أمر الأسرى فناحت على القتلى شهراً، ثم أشير عليهم من كبارهم ألا يفعلوا، كيلا يبلغ محمد وأصحابه جزعهم فيشمتوا بهم، فسكتوا وصمموا على ألا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم، وتواصَوْا فيما بينهم ألّا يعجلوا في طلب الفداء لئلا يتغالى المسلمون فيه.

الفداء

فلم يلتفت إلى ذلك المطلب بن أبي وداعة السهمي، وكان أبوه من الأسرى، فخرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم، وعند ذلك بعثت قريش في فداء أسراها وكان أربعة آلاف درهم، ومن لم يكن معه

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٦.

(٢) سورة نوح آية ٢٦.

فـداء وهو يحسن القـراءة والكتابـة، أعطوه عشـرة من غلمان المـدينـة يعلمهم وكان ذلك فداءه.

(ومن) الأسـرى عمرو بن أبي سفيـان، ولما طُلب من أبيـه فداؤه قـال: والله لا يجمع محمد بين ابني ومـالي، دعوه يمسكـوه في أيديهم مـا بدا لهم. فبينما أبو سفيان بمكة إذ وجـد سعد بن النعمـان الأنصاري معتمـراً فعدا عليـه فحبسه بابنه عمرو، فمضى قـوم سعد إلى رسـول الله وأخبروه فـأعطاهم عَمْـراً ففكوا به سعداً.

(ومن) الأسرى أبو العـاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول، وكان عليه الصلاة والسلام قد أثنى عليه خيراً في مصاهرته، فـإنه لمـا استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله بمكة طلبوا من أبي العاص أن يطلق زينب كما فعل ابنا أبي لهب بابنتي الرسول، فامتنـع وقال: والله لا أفـارق صاحبتي وأحب أن لي بها امرأة من قريش. ولما أُسر ارسلت زينب في فدائـه قلادة لهـا كانت حلَّتهـا بها أمها خديجة ليلة عرسها، فلما رأى عليه الصـلاة والسلام تلك القـلادة رقَّ لها رقَّة شـديدة، وقـال لأصحابـه: إن رأيتم أن تطلقـوا لها أسيـرها وتـردوا لها قلادتها فافعلوا، فرضي الأصحاب بذلك، فأطلقه عليه الصلاة والسلام بشـرط أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة. فلما وصل إلى مكة أمرها باللحـاق بأبيهـا، وكـان الرسـول أرسل لهـا من يـأتي بهـا فـاحتملوهـا. (هـذا) ولمـا أسلم أبـو العاص بن الربيع قبيل الفتح رد عليه امرأته بالنكاح الأول.

(ومن) الأسرى سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه، فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسـول الله أنزع ثنيتي سهيل يدلع(١) لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال عليه الصـلاة والسـلام: «لا أُمثِّل(٢) فيمثِّـل الله بي وإن كنت نبياً، وعسى أن يقـوم مقامـاً لا تذمه» وقدم بفدائه مُكْرز بن حفص. ولما ارتضى معهم على مقدار حبس نفسه

---

(١) يخرج.

(٢) لا أشوه، والتشويه مثلاً نزع الأذن أو الأنف أو العين في الإنسان، وهذا لا يجوز.

بدله حتى جاء بالفداء. هذا، وقد حقق الله خبر الرسول في سهيل، فإنه لما مات عليه الصلاة والسلام أراد أهل مكة الارتداد، كما فعل غيرهم من الأعراب، فقام سهيل هذا خطيباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[1] وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾[2] ثم قال: والله إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها فلا يغرنكم هذا (يريد أبا سفيان) من أنفسكم فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم، لكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم وكلمته تامة، وإن الله ناصر من نصره ومقوٍّ دينه، وقد جمعكم الله على خيركم (يريد أبا بكر) وإن ذلك لم يرد الإسلام إلا قوة، فمن رأيناه ارتدّ ضربنا عنقه. فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه، وكان هذا الخبر من معجزات نبينا ﷺ.

(ومن) الأسرى الوليد بن الوليد أفتكه[3] أخواه خالد وهشام، فلما افتُدي ورجع إلى مكة أسلم فقيل له: هلا أسلمت قبل الفداء؟ فقال: خفت أن يعدّوا إسلامي خوفاً. ولما أراد الهجرة منعه أخواه ففر إلى النبي في عمرة القضاء.

(ومن) الأسرى السائب بن يزيد، وكان صاحب الراية في تلك الحرب، فدى نفسه وهو الجد الخامس للإمام محمد بن إدريس الشافعي.

(ومنهم) وهب بن عمير الجُمحي، كان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش كثير الإيذاء لرسول الله، جلس يوماً بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر، فقال عمير: والله لولا دين عليَّ ليس

---

(١) سورة الزمر آية ٣٠.

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤

(٣) افتداه فدفع ثمن فكاكه من الأسر.

عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهم الفقر بعدي، كنت آتي محمداً فأقتله، فإن ابني أسير في أيديهم، فقال صفوان: دينك عليَّ وعيالك مع عيالي، فأخذ عمير سيفه وشحذه وسمَّه، وانطلق حتى قدم المدينة، فبينا عمر مع نفر من المسلمين إذ نظر إلى عمير متوشحاً سيفه، فقال: هذا الكلب عدو الله ما جاء إلا بشرّ، ثم قال للنبي ﷺ هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، فقال: أدخله عليَّ. فأخذ عمر بحمائل سيفه وأدخله، فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال: أطلقه يا عمر، ادن يا عمير فدنا، وقال: انعموا صباحاً، فقال ﷺ قد أبدلنا الله تحية خيراً من تحيتك وهي السلام، ثم قال: ما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف؟ قال: قبَّحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال عليه الصلاة والسلام: اصدُقْني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك. قال عليه الصلاة والسلام: كلا بل قعدت أنت وصفوان في الحِجْر وقلتما كَيْتَ وَكَيْتَ فأسلم عُمير وقال: كنا نكذبك بما تأتي به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان!! فقال عليه الصلاة والسلام فقّهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا أسيره. فعاد عمير إلى مكة وأظهر إسلامه.

(ومن) الأسرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، مرَّ به أخوه فقال للذي أسره: شدّ يدك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه. فقال له: يا أخي هذه وصايتك بي! ثم بعثت أمه بفدائه أربعة آلاف درهم.

(ومن) الأسرى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ كان قد خرج لهذه الحرب مكرهاً، ولما وقع في الأسر طلب منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن أبي طالب فقال: علام ندفع وقد استكرهنا على الخروج؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لقد كنت في الظاهر علينا فأخذت منه فدية نفسه وابن أخيه، ثم قال للرسول: لقد تركتني فقير قريش ما بقيت، قال: كيف وقد تركت لأم الفضل أموالاً، وقلت لها: إن متُّ فقد تركتك غنية. فقال العباس: والله ما

اطلّع على ذلك أحد. وهذا العمل غاية ما يفعل من العدل والمساواة، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يُعْفِ عمه مع علمه بأنه إنما خرج مكرهاً، وقد أعفى غيره جماعة تحقق له فقرهم فهكذا العدل. ولا غرابة فذلك أدب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

(ومن) الأسرى أبو عَزَّة الجُمحي الشاعر، كان شديد الإيذاء لرسول الله بمكة، فلما أسر قال: يا محمد إني فقير وذو عيال وذو حاجة قد عرفتها فامنن، فمنَّ عليه فضلاً منه.

العتاب من الفداء

ولما تم الفداء أنزل الله في شأنه: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2]. نهى سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الإثخان في قتل الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون دين الله من الانتشار، وعاب بعض المسلمين على إرادة عرض الدنيا وهو الفدية، ولولا حكم سابق من الله ألا يعاقب مجتهداً على اجتهاده ما دام المقصد خيراً لكان العذاب، ثم أباح لهم الأكل من تلك الفدية المبني أخذها على النظر الصحيح. وهذا من أقوى الأدلة على صدق نبينا عليه الصلاة والسلام فيما جاء به، لأنه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل عمله بناءً على رأي كثير من الصحابة. وقد وعد الله الأسرى الذين يعلم في قلوبهم خيراً بأن يؤتيهم خيراً مما أُخذ منهم ويغفر لهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ

(١) سورة المائدة آية ٨.

(٢) سورة الأنفال آية ٦٧، ٦٨.

لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

وهذه الغزوة هي التي أعز الله بها الإسلام وقوّى أهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله، مع قلة المسلمين وكثرة عدوهم، فهي آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالإسلام وأهله، ما كان عليه العدو من القوة بسوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيل المسوَّمة والخيلاء الزائدة، ولذلك قال الله ممتناً على عباده بهذا النصر: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[2] أي قليل عددكم لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله فهي أعظم غزوات الإسلام إذ بها كان ظهوره، وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره، فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الأعداء الألداء للإسلام، ودخل الرعب في قلوب العرب الآخرين، فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش ويهزمون الرجال، فلا جرم أن شكرنا العلي الأعلى على هذه العناية، واتخذنا يوم النصر في بدر، وهو السابع عشر من رمضان، عيداً نتذكر فيه نعمة الله على رسوله وعلى المسلمين.

غزوة بني قَيْنُقاع

هذا، وإذا كان للشخص عدوّان فانتصر على أحدهما حرك ذلك شجو الآخر وهاج فؤاده، فتبدو بغضاؤه غير مكترث بعاقبة عدائه، وهذا ما حصل من يهود بني قينقاع عند تمام الظفر في بدر، فإنهم نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه وأظهروا مكنون ضمائرهم، فبدت البغضاء من أفواههم وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار، وهذا مما يدعو المسلمين للتحرز منهم وعدم ائتمانهم في المستقبل إذا شبت الحرب في المدينة بين المسلمين وغيرهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) سورة الأنفال آية ٧٠.

(٢) سورة ال عمران آية ١٢٣.

* فانبذ أي فاطرح لهم العهد على طريق مستو، قصداً بأن تظهر لهم نبذ العهود ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد لأن ذلك خيانة ولذا قال: ﴿إِنَّ الله لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

ٱلْخَآئِنِينَ﴾[1] فدعا عليه الصلاة والسلام رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغي ونكث العهد فقالوا: يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب، ولو لقيتنا لتعلمنَّ أنا نحن الناس، وكانوا أشجع يهود، فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[2] وعند ذلك تبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج وتشبَّث بالحلف عبد الله بن أبيّ وقال: إني رجل أخشى الدوائر، فأنزل الله تعليماً للمسلمين: ﴿* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[3]. وعندما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم سار إليهم عليه الصلاة والسلام في نصف شوال من هذه السنة، يحمل لواءه عمه حمزة، وخلف على المدينة أبا لُبابة الأنصاري فحاصرهم خمس عشرة ليلة.

جلاء بني قَيْنُقاع

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركهم الرعب، سألوا رسول الله أن يخلي سبيلهم، فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية، وللمسلمين الأموال. فقبل ذلك عليه الصلاة والسلام ووكل بجلائهم عبادة بن الصامت وأمهلهم ثلاث ليال فذهبوا الى أذْرِعات[4] ولم يحل عليهم الحول

(١) سورة الأنفال، آية ٥٨.

(٢) آل عمران آية ١٢.

(٣) سورة المائدة آية ٥١.

(٤) بلدة بالشام، ولعلها تسمى اليوم درعا.

حتى هلكوا وخمّس[1] عليه الصلاة والسلام أموالهم وأعطى سهم ذوي القربى لبني هاشم ولبني المطلب، دون بني أخويهما عبد شمس ونوفل، ولما سئل عن ذلك قال: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد في الجاهلية والإسلام هكذا وشبك بين أصابعه.

غزوة السَّوِيق[2]

كان أبو سفيان متهيجاً لأنه لم يشاهد بدر التي قتل فيها ابنه وذوو قرباه، فحلف ألا يمس رأسه الماء حتى يغزو محمداً، وليبرَّ بقسمه خرج بمائتين من أصحابه يريد المدينة، ولما قاربها أراد أن يقابل اليهود من بني النضير ليهيجهم ويستعين بهم على حرب المسلمين. فأتى سيدهم حُيَيَّ بن أخطب فلم يرض مقابلته، فأتى سلام بن مِشْكَم فأذن له واجتمع به، ثم خرج من عنده وأرسل رجالاً من قريش إلى المدينة فحرَّقوا في بعض نخلها ووجدوا أنصارياً فقتلوه، ولما علم رسول الله ﷺ خرج في أثرهم في مائتين من أصحابه لخمس خلون من ذي الحجة، بعد أن ولى على المدينة بشير بن عبد المنذر، ولكن لم يلحقهم لأنهم هربوا، وجعلوا يخففون ما يحملونه ليكونوا أقدر على الإسراع، فألقوا ما معهم من جُرُب السَّويق فأخذه المسلمون، ولذلك سمّيت هذه الغزوة بغزوة السويق.

صلاة العيد

وفي هذا العام سنَّ الله للعالم الإسلامي سنة عظيمة، بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين أن يجددوا عهود الإخاء، ويقووا عروة الدين الوثقى، وهي الاجتماع في يومي عيد الفطر وعيد الأضحى وكان عليه الصلاة

---

(١) قسمها خمسة أقسام.

(٢) سميت بهذا الاسم لأن القوم طرحوا ما معهم من السويق. والسويق: مطحون الحنطة أو الشعير وكانت العرب تأكله ممزوجاً باللبن والعسل.

والسلام، يجمع المسلمين في صعيد واحد ويصلي بهم ركعتين، تضرعاً إلى الله ألا يفصم عروتهم وأن ينصرهم على عدوهم، ثم يخطبهم حاضاً على الإئتلاف، ومذكراً لهم ما يجب عليهم لأنفهسم، ثم يصافح المسلمون بعضهم بعضاً، وبعد ذلك يخرجون لأداء الصدقات للفقراء والمساكين، حتى يكون السرور عاماً لجميع المسلمين، فبعد الفطر زكاته، وبعد الأضحى تضحيته. نسأله تعالى أن يؤلف بين قلوبنا ويوفقنا لأعمال سلفنا.

زواج علي بفاطمة عليهما السلام

وفي هذه السنة تزوّج عليٌ بن أبي طالب وعمره إحدى وعشرون سنة بفاطمة بنت رسول الله، وسنُّها خمس عشرة سنة، وكان منها عقب رسول الله ﷺ بنوه: الحسن والحسين وزينب، وفيها دخل عليه الصلاة والسلام بعائشة بنت أبي بكر وسنُّها إذاك تسع سنوات.



يـا لله! يُقضى على الشقي بالشقـاوة حتى لا يسمـع ولا يبصـر، فيتخـذ الغـدر رداءً والخيانـة شعاراً، فـلا ينجح معـه إلا إراحة العـالم من شرّه، هـذا كعب بن الأشـرف اليهودي عـظيم بني النضير، أعمتـه عـداوة المسلمين حتى خلع بُـرقع الحيـاء وسار يحـرّض قـريشـاً على حـرب رسـول الله ﷺ ويهجـوه بـالشعر، ويجتهـد في إثارة الشحنـاء بين المسلمين، فكلما جبـر عليه السـلام كسراً هاضه هذا الشقي بما ينفثه من سموم لسانه.

قتل كعب بن الأشرف

ولما انتصر المسلمون ببدر ورأى الأسرى مقرَّنين في الحبال، خرج إلى قـريش يبكي قتلاهم ويحـرضهم على حـرب المسلمين، فقـال عليـه الصـلاة والسـلام: من لكعب بن الأشرف فـإنه قـد آذى الله ورسولـه؟ فقال محمـد بن مسلمة الأنصاري الأوسي: أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال أنـا لك بـه وائذن لي أن أقول شيئاً أتمكن به، فأذن له. ثم خرج ومعه أربعة من قـومه حتى أتى كعباً فقال له: إن هذا الرجل (يريد رسول الله) قد سألنا صدقة، وإنه قد عنَّـانا وإني قد أتيتك أستسلفك، قال: وأيضـاً والله لتَمَلُّنّه، قـال: إنا قـد اتَّبعناه فـلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنـا وسقاً أو وسقين. قال: نعم ولكن ارْهَنُوني. قـالوا: أي شيء تـريد؟ قـال: ارْهَنُـوني نسـاءكم. قالـوا: كيف نرهُنـك نساءنـا وأنت أجمل العـرب؟ قـال: ارهنُـوني أبنـاءكم. قالـوا: كيف نرهنـك أبناءنـا فيسبّ أحـدهم، فيقـال رهن بـوسق أو

وسقين، هذا عار علينا، ولكن نرهنك اللأمَة (يعني السلاح) فرضي فواعده ليلاً أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة أخو كعب من الرضاع وعباد بن بشر والحارث ابن أُويس وأبو عبس بن جبر (كلهم أوسيون) فناده محمد بن مسلمة فأراد أن ينزل فقالت له امرأته: أين تخرج الساعة وإنك امرؤ محارب؟ فقال: إنما هو ابن أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة. إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب. ثم قال محمد لمن معه إذا جاءني فإني آخذ بشعره فأشمّه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فاضربوه، فنزل إليهم متوشحاً سيفه وهو ينفح منه ريح المسك، فقال محمد: ما رأيت كاليوم ريحاً أطيب أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم فشمّه، فلما استمكن منه قال: دونكم فاقتلوه ففعلوا وأراح الله المسلمين من شر أعماله التي كان يقصدها بهم. ثم أتوا النبي فأخبروه. وكان قتل هذا الشقي في ربيع الأول من هذا العام وكان عليه الصلاة والسلام إذا رأى من رئيس غدراً ومقاصد سوء ومحبة لإثارة الحرب، أرسل له من يريحه من شره. وقد فعل كذلك مع أبي عَفَك اليهودي وكان مثل كعب في الشر.

غزوة غَطَفَان

بلغ رسول الله أن بني ثعلبة ومحارب من غَطَفَان تجمعوا برياسة رئيس منهم اسمه دُعْثُور يريدون الغارة على المدينة، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يغل أيديهم كيلا يتمكنوا من هذا الاعتداء، فخرج إليهم من المدينة في أربعمائة وخمسين رجلاً، لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، وخلف على المدينة عثمان بن عفان. ولما سمعوا بسير رسول الله هربوا إلى رؤوس الجبال، ولم يزل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماءً يسمى ذا أَمَرّ فعسكروا به، وحدث أنه عليه الصلاة والسلام نزع ثوبه يجففه من مطر بلّله وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون، فأبصره دُعْثُور فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه وقال: من يمنعك مني يا محمد؟ فقال: الله. فأدركت الرجل هيبة

ورعبٌ أسقطا السيف من يده، فتناوله عليه الصلاة والسلام وقال لـدعثور: من يمنعك مني؟ قال: لا أحد. فعفا عنه فأسلم الرجل ودعا قومه للإسلام وحوّل الله قلبه من عداوة رسول الله ﷺ وجمْع الناس لحربه الى محبته وجمْع الناس له ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[1]. وهذا ما ينتجه حسن المعاملة والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[2].

غزوة بُحران

بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من بني سُليم يريدون الغارة على المدينة، فسار إليهم في ثلاثمائة من أصحابه لستٍّ خلون من جمادى الأولى، وخلف على المدينة ابن أم مكتوم. ولما وصل بُحران[3] تفرقوا ولم يلق كيداً فرجع.

سرية

لما تيقنت قريش أن طريق الشام من جهة المدينة أغلق في وجه تجارتهم، ولا يمكنهم الصبر عنها لأن بها حياتهم، أرسلوا عيراً إلى الشام من طريق العراق، وكان فيها جمع من قريش منهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، فجاءت أخبارهم لرسول الله ﷺ فأرسل لهم زيد بن حارثة في مائة راكب يترقبونهم، وكان ذلك في جمادى الآخرة، فسارت السرية حتى لقيت العير على ماء اسمه (القَرْدَة) بناحية نجد،

---

(١) سورة الحديد آية ٢١.

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.

(٣) موضع بناحية الفرع، وهذا موضع من أضخم أعراض المدينة.

فأخذت العِير وما فيها وهرب الرجال، وقد خمَّس الرسول عليه الصلاة والسلام هذه حينما وصلت له.

غزوة أُحد[1]

لما أصاب قريشاً ما أصابها ببدر وأغلقت في وجوههم طرق التجارة، اجتمع من بقي من أشرافهم إلى أبي سفيان رئيس تلك العير التي جلبت عليهم المصائب ـ وكانت موقوفة بدار الندوة ولم تكن سلّمت لأصحابها بعد ـ فقالوا: إن محمداً قد وتَرنا وقتل خيارنا وإنا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعداداً لحرب محمد وأصحابه، وقد رضي بذلك كل من له فيها نصيب، وكان ربحها نحواً من خمسين ألف دينار، فجمعوا لذلك الرجال، فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم الأحابيش (وهم حلفاؤهم من بني المصطلق وبني الهون بن خزيمة) ومعهم أبو عامر الراهب الأوسي، وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله ﷺ ومعه عدد ممن هم على شاكلته، وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة، وقال صفوان بن أمية لأبي عزة الشاعر، الذي لا ينسى القارىء أن الرسول منَّ عليه ببدر وأطلقه من غير فداء: إنك رجل شاعر فأعنَّا بلسانك، فقال: إني عاهدت محمداً ألاّ أُعين عليه، وأخاف أن وقعت في يده مرة ثانية ألا أنجو، فلم يزل به صفوان حتى أطاعه وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين. ودعا جبير بن مُطْعِم غلاماً حبشياً له اسمه وَحْشي، وكان رامياً قلّما يخطىء، فقال له: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة بعمِّي طُعَيْمة فأنت حر. ثم خرج الجيش ومعهم القِيَان والدفوف والمعازف والخمور، واصطحب الأشراف منهم نساءهم كيلا ينهزموا، ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحُليفة. أما رسول الله عليه الصلاة والسلام فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به إليه عمه العباس بن عبد المطلب الذي لم يخرج مع المشركين في هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم

---

(١) وقعت هذه الغزوة في السنة الثالثة في شهر شوال قرب جبل أحد فسميت باسمه.

بدر. ولما وصلت الأخبار باقتراب المشركين جمع عليه الصلاة والسلام أصحابه وأخبرهم الخبر وقال: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدّعوهم حيث نزلوا فإن هم أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم، فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار ورأى ذلك أيضاً عبد الله بن أبي، أما الأحداث وخصوصاً من لم يشهد بدراً منهم، فأشاروا عليه بالخروج وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب، وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم لأنهم الأكثرون عدداً والأقوون جلداً، فصلى الجمعة بالناس في يومها لعشر خلون من شوال وحضهم في خطبتها على الثبات والصبر وقال لهم: «لكم النصر ما صبرتم» ثم دخل حجرته ولبس عدته فظاهر بين درعين[1] وتقلد السيف وألقى الترس وراء ظهره. ولما رأى ذوو الرأي من الأنصار أن الأحداث استكرهوا الرسول ﷺ على الخروج لاموهم وقالوا: ردّوا الأمر لرسول الله ﷺ فما أمر ائتمرنا. فلما خرج عليه الصلاة والسلام قالوا: يا رسول الله تتّبع رأيك فقال: ما كان لنبي لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحُباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن الحضير، وخرج من المدينة بألف رجل. فلما وصلوا رأس الثنية نظر عليه الصلاة والسلام، إلى كتيبة كبيرة فسأل عنها، فقيل: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أُبي من اليهود فقال إنا لا نستعين بكافر على مشرك، وأمر بردّهم، لأنه لا يأمن جانبهم من حيث أن لهم اليد الطولى في الخيانة. ثم استعرض الجيش فردَّ من استصغر، وكان فيمن ردّ: رافع بن خديج وسَمُرة بن جُندب، ثم أجاز رافعاً لما قيل له إنه رامٍ فبكى سَمُرة وقال لزوج أمه: أجاز رسول الله رافعاً وردَّني مع أني أصرعه، فبلغ رسول الله الخبر فأمرهما بالمصارعة، فكان الغالب سَمُرة فأجازه. ثم بات عليه الصلاة والسلام محله ليلة السبت، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة، وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس. وفي السحر سار الجيش حتى إذا كان بالشوط

(١) أي لبس درعاً فوق درع وهما ذات الفضول، وفضة التي أصابها من قينقاع.

(وهـو بستان بين أُحـد والمدينـة) رجع عبـد الله بن أبيٌّ بثلاثمائة من أصحـابـه وقال: عصاني وأطـاع الولـدان فعلامَ نقتـل أنفسنا؟ فتبعهم عبـد الله بن عمرو والد جابر وقال: يا قوم! أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم ﴿ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَـٰكُمْ ﴾[1]. فقال لهم: أبعدكم الله فسيغني الله عنكم نبيه. ولمـا فعل ذلـك عبد الله بن أبي همت طـائفتان من المؤمنين أن تفشـلا: بنـو حـارثـة من الخـزرج وبنو سَلِمـة من الأوس فعصمهما الله، وقـد افترق المسلمـون فرقتين فيما يفعلون بالمنخذلين، فقوم يقولون نقاتلهم وقوم يقولوم نتركهم، فأنـزل الله تعـالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[2]. ثم سـار الجيش حتى نـزل الشعب من أحـد[3] وجعـل ظهـره للجبـل ووجهـه للمـدينـة؛ أمـا المشـركون فنـزلوا ببـطن الوادي من قبـل أحد، وكـان على ميمنتهم خالـد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمـة بن أبي جهل، وعلى المشـاة صفوان بن أميـة، فجعل عليه الصلاة والسلام الزبير بن العـوّام بإزاء خـالد، وجعـل آخرين أمـام البـاقين، واستحـضـر الرمـاة وكانـوا خمسين رجـلاً يـرأسهم عبـد الله بن جبيـر الأنصـاري، فـوقفهم خلف الجيش على ظهـر الجبـل وقـال: لا تبـرحـوا: إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهـروا علينا فـلا تبرحـوا. ثم عدّل عليه الصلاة والسلام الصفوف وخطب المسلمين، وكان فيما قـال: ألقى في قلبي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها لا ينقص منـه شيء وإن أبطأ عنهـا. فاتقـوا ربكم وأجملوا في طلب الـرزق لايحملنّكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله، والمؤمن من المؤمن كالـرأس من الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده، ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخـرج رجل من صفوف المشركين فبـرز له الـزبير فقتله، ثم حمـل اللواء طلحة بن أبي طلحـة فقتله عليّ، فحمل اللواء أخوه عثمان فقتله حمزة، فحمله أخ لهمـا اسمه أبـو

(١) سورة آل عمران اية ١٦٧.

(٢) سورة النساء آية ٨٨.

(٣) جبل شمالي المدينة الشرقي.

سعيد فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم قضى عليه، فتناوب اللواء بعده أربعة من أولاد طلحة بن أبي طلحة وكلهم يقتلون. وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبي بكر يطلب البراز فأراد أبوه أن يبرز له. فقال عليه الصلاة والسلام: متِّعْنا بنفسك يا أبا بكر. ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون. ولما التقت الصفوف وحميت الحرب، ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف وينشدن الأشعار تهييجاً لعواطف الرجال، وكان عليه الصلاة والسلام، كلما سمع نشيد النساء يقول: «اللهم بك أَجُول وبك أَصُول وفيك أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل» وفي هذه المعمعة قتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله سيد الشهداء، غافله وحشي وهو يجول في الصفوف وضربه بحربة لم تخطىء ثنايا بطنه.

هذا، ولما قتل حملة اللواء من المشركين ولم يقدر أحد على الدنوّ منه ولّوا الأدبار ونساؤهم يبكين ويولولن، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب. فلما رأى ذلك الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل قالوا: ما لنا في الوقوف من حاجة، ونسوا أمر السيد الحكيم ﷺ فذكّرهم رئيسهم به فلم يلتفتوا وانطلقوا ينتهبون. أما رئيسهم فثبت وثبت معه قليل منه. فلما رأى خالد بن الوليد أحد رؤساء المشركين خلوَّ الجبل من الرماة، انطلق ببعض الجيش فقتل من ثبت من الرماة وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم، فلما رأوا ذلك البلاد دهشوا وتركوا ما بأيديهم وانتقضت صفوفهم واختلطوا من غير شعور، حتى صار يضرب بعضهم بعضاً، ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء فاجتمعوا حوله، وكان من المشركين رجل يقال له ابن قميئة قتل مصعب بن عمير صاحب اللواء، وأشاع أن محمداً قد قتل فدخل الفشل في المسلمين حتى قال بعضهم: علامَ نقاتل إذا كان محمد قد قتل؟ فارجعوا إلى قومكم يؤمِّنوكم، وقال جماعة: إذا كان محمد قتل فقاتلوا عن دينكم، وكان من نتيجة هذا الفشل أن انهزم جماعة من المسلمين من بينهم

الوليد بن عقبة، وخارجة بن زيد، ورفاعة بن المعلى، وعثمان بن عفان، وتوجهوا إلى المدينة ولكنهم استحيوا أن يدخلوها فرجعوا بعد ثلاث، وثبت رسول الله ﷺ ومعه جماعة منهم أبو طلحة الأنصاري استمر بين يديه يمنع عنه بحَجَفته[1]، وكان رامياً شديد الرمي، فنثر كنانته بين يدي رسول الله ﷺ وصار يقول: وجهي لوجهك فداء، وكل من كان يمرّ ومعه كنانة يقول له عليه الصلاة والسلام: انثرها لأبي طلحة، وكان ينظر إلى القوم ليرى ماذا يفعلون فيقول له أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، لا تنظر يصيبك سهم القوم! نحري دون نحرك.

وممن ثبت سعد بن أبي وقاص، فكان عليه الصلاة والسلام يقول له: «ارم سعد! فداك أبي وأمي». ومنهم سهل بن حُنيف وكان من مشاهير الرماة نضح عن رسول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس..

(ومنهم) أبو دجانة سِمَاك بن خَرَشَة الأنصاري تترَّس على رسول الله، فصار النبل يقع على ظهره وهو منحنٍ حتى كثر فيه.

(وكان) يقاتل عن الرسول ﷺ زيادة بن الحارث حتى أصابت الجراح مقاتله، فأمر به فأدني منه ووسَّده قدمه حتى مات، وقد أصابه عليه الصلاة والسلام شدائد عظيمة تحمَّلها بما أعطاه الله من الثبات، فقد أقبل أُبي بن خلف يريد قتله، فأخذ عليه الصلاة والسلام الحربة ممن كانوا معه وقال: خلّوا طريقه. فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه وهو راجع، ولم يقتل رسول الله ﷺ غيره لا في هذه الغزوة ولا في غيرها.

(وكان) أبو عامر الراهب قد حفر حفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون، فوقع الرسول في حفرة منها فأغمي عليه وخدشت ركبتاه، فأخذ علي بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله وهما ممن ثبت حتى استوى قائماً فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته، فتبعه حاطب بن أبي بلتعة فقتله، وشجّ وجهه عليه

(١) الحَجَفَة: حاء بعدها جيم؛ هي الترس من الجلد.

الصلاة والسلام عبد الله بن شهاب الزهري، وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتي المغفر فيهما من ضربة ضربه بها ابن قميئة، غضب الله عليه، فجاء أبو عبيدة وعالج الحلقتين حتى نزعهما فكسرت في ذلك ثنيتاه وقال حينئذ عليه الصلاة والسلام: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1] وكان أول من عرف رسول الله بعد هذه الدهشة كعب بن مالك الأنصاري فنادى: يا معشر المسلمين أبشروا، فأشار إليه الرسول أن اصمت. ثم سار بين سعد بن أبي وقاص وسعد بن عبادة يريد الشِّعب، ومعه جمع أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث ابن الصِّمَّة، وأقبل عليه إذ ذاك عثمان بن عبد الله بن المغيرة يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا، فعثر به فرسه ووقع في حفرة فمشى إليه الحارث بن الصِّمَّة وقتله. لما وصل الشعب جاءت فاطمة فغسلت عنه الدم، وكان علي يسكب الماء، ثم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم. ثم أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلو الصخرة التي في الشعب فلم يمكنه القيام. لكثرة ما نزل من دمه، فحمله طلحة بن عبيد الله حتى أصعده، فنظر إلى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال: لا ينبغي لهم أن يعلونا، اللهم لا قوة لنا إلا بك، ثم أرسل إليهم عمر بن الخطاب في جماعة فأنزلوهم.

(وقد) أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسول الله كثير من الجراحات، لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفاً أن يصل للرسول، فوجد بطلحة نيِّف وسبعون جراحة وشَلَّت يده وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة. أما القتلى فكانوا نيفاً وسبعين منهم ستة من المهاجرين والباقون من الأنصار.

(ومن) المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير. ومن الأنصار حنظلة بن أبي عامر، وعمرو بن الجموح وابنه خلاد بن عمرو وأخو

(١) سورة آل عمران آية ١٢٨.

زوجه والد جابر بن عبد الله، فأتت زوج عمرو، هند بنت عمرو حرام وحملتهم: زوجها وابنها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة، فنهى عليه الصلاة والسلام عن الدفن خارج أحد فرجعوا. وقتل سعد بن الربيع، وأرسل عليه الصلاة والسلام من يأتيه بخبره فوجده بين القتلى وبه رمق، فقيل له: إن رسول الله يسأل عنك، فقال لمبلغه: قل لقومي يقول لكم سعد بن الربيع الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة، فوالله ما لكم عندي عذر. وقتل أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، فإنه لما سمع بقتل رسول الله قال: يا قوم ما تصنعون بالبقاء بعده؟ موتوا على ما مات عليه إخوانكم، فلم يزل يقاتل حتى قتل رضي الله عنه.

ومثلت قريش بقتلى أحد حتى إن هنداً زوج أبي سفيان بقرت بطن حمزة وأخذت كبده لتأكلها فلاكتها ثم أرسلتها، وفعلوا قريباً من ذلك بإخوانه الشهداء. ثم إن أبا سفيان صعد الجبل ونادى بأعلى صوته: أنعمْتَ فعال إن الحرب سجال يوم بيوم بدر، وموعدكم بدر العام المقبل. ثم قال: إنكم ستجدون في قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني، ثم إن المشركين رجعوا إلى مكة ولم يعرجوا على المدينة، وهذا مما يدل على أن المسلمين لم ينهزموا في ذلك اليوم وإلا لم يكن بدٌّ من تعقب المشركين لهم حتى يغيروا على مدينتهم. ثم تفقد عليه الصلاة والسلام القتلى وحزن على عمه حمزة حزناً شديداً، ودفن الشهداء كلهم بأُحد كل شهيد بثوبه الذي قتل فيه، وكان يدفن الرجلين والثلاثة في لحد واحد، لما كان عليه المسلمون من التعب، فكان يشق عليهم أن يحفروا لكل شهيد حفرة. ولما رجع المسلمون إلى المدينة سخر منهم اليهود والمنافقون وأظهروا ما في قلوبهم من البغضاء وقالوا لإخوانهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾[1].

وهذا الذي ابتلي به المسلمون درس مهم لهم، يذكرهم بأمرين عظيمين تركهما المسلمون فأصيبوا، أولهما طاعة الرسول في أمره، فقد قال للرماة لا

(١) سورة آل عمران آية ١٥٦.

تبرحوا مكانكم إن نحن نصرنا أو قهرنا، فعصوا أمره ونزلوا، الثاني: أن تكون الأعمال كلها لله غير منظور فيها لهذه الدنيا التي كثيراً ما تكون سبباً في مصائب عظيمة، وهؤلاء أرادوا عرض الدنيا والتهوا بالغنائم حتى عوقبوا، وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فسبب هذا الابتلاء التنازع فينبغي الاتفاق، والفشل فينبغي الثبات، والعصيان فينبغي طاعة الرئيس. نسأل الله التوفيق.

غزوة حمراء الأسد

ولما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أصبح حذراً من رجوع المشركين إلى المدينة ليتمموا انتصارهم، فنادى في أصحابه بالخروج خلف العدو، وألا يخرج إلا من كان معه بالأمس، فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، فضمدوا جراحاتهم وخرجوا واللواء معقود لم يحلّ، فأعطاه علي بن أبي طالب وولّى على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار الجيش حتى وصلوا إلى حمراء الأسد[2] وقد كان ماظنه الرسول حقاً، فإن المشركين تلاوموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة حتى يتم لهم النصر، فأصروا على الرجوع، ولكن لما بلغهم خروج الرسول في أثرهم ظنوا أنه قد حضر معه من لم يحضر بالأمس، وألقى الله الرعب في قلوبهم فتمادّوا في سيرهم إلى مكة، وظفر عليه الصلاة والسلام وهم في حمراء الأسد، بأبي عزّة الشاعر الذي منّ عليه ببدر بعد أن تعهّد ألا يكون على المسلمين فأمر بقتله، فقال: يا محمد أقلْني وامنن عليَّ ودعني لبناتي، وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت، فقال عليه الصلاة والسلام لا والله! لا تمسح عارضيك

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٢.

(٢) موضع على ثلاثة أميال من المدينة بطريق مكة.

بمكة وتقول: خدعت محمداً مرتين، لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرتين، اضرب عنقه يا زيد فضرب عنقه. وفي هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف، فإن الرجل الذي لا يحترز مما أُصيب منه ليس بعاقل، فلا بد من الحزم لإقامة دعائم المُلْك.

حوادث

وفي هذه السنة زوج عليه الصلاة والسلام بنته أم كلثوم لعثمان بن عفان بعد أن ماتت رقية عنده، ولذلك كان يسمّى ذا النورين، وفيها تزوج عليه السلام حفصة بنت عمر بن الخطاب، وأمها أخت عثمان بن مظعون وكانت قبله تحت خُنيس بن حذافة السهمي رضي الله عنه، فتوفي عنها بجراحة أصابته ببدر، وفيها تزوج عليه الصلاة والسلام زينب بنت خزيمة الهلالية من بني هلال بن عامر، كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش فقتل عنها بأحد، وهي أخت ميمونة بنت الحارث لأمها، وفيها ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما، وفيها حرمت الخمر وكان تحريمها بالتدريج، لما كان عليه العرب من المحبة الشديدة لها، فيصعب إذاً تحريمها دفعة واحدة، وكان ذلك التحريم تابعاً لحوادث تنفر عنها، لأن المنكر إذا أسند تحريمه لحادثة أقر الجميع على تقبيحها، كان ذلك أشد تأثيراً في النفس. فأول ما بيّن فيها قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[1]. فمنفعة الميسر التصدق بربحه على الفقراء، كما كانت عادة العرب، ومنفعة الخمر تقوية الجسم[2] ولما شربها بعض المسلمين وخلط في القراءة حرمت الصلاة على السكران،

(١) سورة البقرة آية ٢١٩.

(٢) كما يخيل لشاربها. وقد أجمع الأطباء على شدة أضرارها، ولعل المراد بالنفع هو ما يجنى من ربح خبيث في بيعها.

فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[1]. ولما حدث من شربها اعتداء بعض المسلمين على إخوانهم حرمت قطعياً بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ(*) وَٱلْأَزْلَـٰمُ(**) رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[2]. وقد أجاب المسلمون على ذلك بقولهم: انتهينا. فليُجب المسلمون الآن.

---

(١) سورة النساء آية ٤٣.

(*) الأنصاب: هي حجارة تنصب عليها الذبائح وتعمد.

(**) الأزلام: هي القداح التي كانوا يستقسمون بها، وفي قرن الخمر والميسر بالأنصاب والأزلام نهاية في التنفير، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: شارب الخمر كعابد الوثن.

(٢) سورة المائدة آية ٩٠.



السنة الرابعة

في بدء السنة الرابعة بلغ رسول الله أن طلحة وسلمة ابني خويلد الأسديين يدعوان قومهما بني أسد لحربه عليه الصلاة والسلام، فدعا أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي وعقد له لواء وقال له: سر حتى تنزل أرض بني أسد بن خزيمة فأغِرّ عليهم، وأرسل معه رجالاً، فسار معه في هلال المحرم حتى بلغ قطناً[1] فأغار عليهم، فهربوا من منازلهم ووجد أبو سلمة إبلاً وشاءً فأخذها ولم يلق حرباً، ورجع بعد عشرة أيام من خروجه.

وفي بدئها أيضاً بلغه عليه الصلاة والسلام أن سفيان بن خالد بن نُبْيح الهزلي المقيم بعُرنة[2] يجمع الجموع لحربه، فأرسل له عبد الله بن أنيس الجهني وحده ليقتله، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يتقوّل حتى يتمكن، فأذن له وقال: انتسب لخزاعة، فخرج لخمس خلون من المحرم، ولما وصل إليه قال له سفيان: ممن الرجل؟ قال: من خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك، فقال له: أجل إني لفي الجمع له، فمشى عبد الله معه وحدثه وسفيان يستحلي حديثه، فلما انتهى إلى خبائه تفرق الناس عنه، فجلس معه عبد الله حتى نام فقام وقتله، ثم ارتحل حتى أتى المدينة ولم يلحقه الطلب وكفى الله المؤمنين القتال.

---

(١) جبل لبني أسد بناحية فيد شرقي المدينة.

(٢) موضع قريب من عرفات.

سرية

وفي صفر أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال عيوناً[1] على قريش مع رهط [2] عضل والقارة الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يطلبون من يفقههم في الدين وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، فخرجوا يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى إذا كانوا بالرجيع[3] غدر بهم أولئك الرهط ودلوا عليهم هذيلاً قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي كان قتله عبد الله بن أنيس فنفروا إليهم فيما يقرب من مائتي رامٍ واقتفوا آثارهم حتى قربوا منهم، فلما أحس بهم رجال السرية لجؤوا إلى الجبل هناك فقال لهم الأعداء: انزلوا ولكم العهد ألا نقتلكم، فنزل إليهم ثلاثة اغتروا بعهدهم وقاتلهم الباقون، ومعهم عاصم غير راضين بالنزول في ذمة مشرك. ولما رأى الثلاثة الذين سلَّموا عين الغدر امتنع أحدهم فقتلوه، وأما الاثنان فباعوهما بمكة ممن كان له ثأر عند المسلمين وهناك قتلا. وقد قال أحدهما وهو خُبيب بن عدي حين أرادوا قتله:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلْوٍ ممزَّع

سرية

وفي صفر وفد على رسول الله أبو براء عامر بن مالك مُلاعب الأسنَّة، وهو من رؤوس بني عامر، فدعاه عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، بل قال: إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً، ولو بعثت معي رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك، رجوت إلي أن يستجيبوا لك، فقال عليه الصلاة والسلام: إني أخشى عليهم أهل نجد. فقال أبو براء عامر: أنا لهم جار، فأرسل معهم المنذر بن عمرو في سبعين من أصحابه كانوا يُسمون

---

(١) جواسيس.
(٢) الرهط من الثلاثة إلى التسعة.
(٣) ماء لبني هذيل بين مكة وعسفان.

القراء لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن، فساروا حتى نزلوا بئر معونة[١] فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب إلى عامر بن الطفيل سيد بني عامر، فلما وصل إليه لم يلتفت إلى الكتاب بل عدا على حرام فقتله، ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابه من بني عامر فلم يرضوا أن يخفروا جوار ملاعب الأسنة، فاستصرخ عليهم قبائلهم من بني سُليم وهم رعْل وذكوان وعُصَيَّة فأجابوه وذهبوا معه، حتى إذا التقوا بالقراء أحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم، بعد دفاع شديد لم يجدهم نفعاً لقلة عددهم وكثرة عدوهم، ولم ينج إلا كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظُن أنه منهم، وعمرو بن أمية كان في سرح القوم. وأبلغ عليه الصلاة والسلام خبر القراء فخطب في أصحابه، وكان فيما قال: «إن إخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم، وإنهم قالوا ربنا بلّغ قومنا أنّا قد لقينا ربنا فرضينا عنه ورضي عنا»، وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع في يوم واحد فحزن عليهم ﷺ حزناً شديداً، وأقام يدعو على الغادرين بهم شهراً في الصلاة.

غزوة بني النَّضير

يا لله ما أسوأ عاقبة الطيش، فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح، فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم، وهذا ما حصل ليهود بني النضير حلفاء الخزرج الذين كانوا يجاورون المدينة، فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر، ولكن بنو النضير لم يوفوا بهذه العهود حسداً منهم وبغياً. فبينما رسول الله ﷺ وبعض من أصحابه في ديار بني النضير، إذ ائتمر جماعة منهم على قتله، بأن يأخذ أحد منهم صخرة ويلقيها عليه من علو فأُطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم فرجع وتبعه أصحابه، ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة يقول لهم: اخرجوا من بلادي فقد هممتم بما هممتم من

---

(١) شرقي المدينة بين أرض بني عامر وحرة بني سليم.

الغدر (إذ الحزم كل الحزم ألا يتهاون الإنسان مع من عرف منه الغدر) فتهيأ القوم للرحيل فأرسل لهم إخوانهم المنافقون يقولون لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[1] ولكن اليهود طمعوا بهذا الوعد وتأخروا عن الجلاء، فأمر عليه الصلاة والسلام بالتهيؤ لقتالهم، فلما اجتمع الناس خرج بهم واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى رايته علياً. أما بنو النضير فتحصَّنوا في حصونهم وظنوا أنها مانعتهم من الله، فحاصرهم عليه الصلاة والسلام ست ليالٍ، ثم أمر بقطع نخيلهم ليكون أدعى إلى تسليمهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب ولم يروا من عبد الله بن أُبي مساعدة، بل خذلهم كما خذل بني قينقاع من قبلهم، فسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب، ففعل وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون. ولما سار اليهود نزل بعضهم بخيبر، ومنهم أكابرهم حييّ بن أخطب وسلّام بن أبي الحُقَيق، ومنهم من سار إلى أذرعات بالشام، وأسلم منهم اثنان يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب، ولم يخمِّس رسول الله ما أخذ من بني النضير، فإنه فيءٌ لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، ومثل هذا يكون لمعدات الحرب وللرسول يطعم منه أهله، ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كما قال تعالى: ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾[2] فأعطى عليه الصلاة والسلام من هذا الفيء فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وردّوا لإخوانهم من الأنصار ما

---

(١) سورة الحشر آية ١١.

(٢) سورة الحشر آية ٧.

كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم، وأخذ عليه الصلاة والسلام أرضاً يزرعها ويدخر منها قوت أهله عاماً.

غزوة ذات الرقاع[1]

وفي ربيع الآخر بلغه عليه الصلاة والسلام أن قبائل من نجد يتهيؤون لحربه، وهم: بنو محارب وبنو ثعلبة، فتجهز لهم وخرج في سبعمائة مقاتل، وولى على المدينة عثمان بن عفان، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم فلم يجدوا فيها أحداً غير نسوة فأخذهن، فبلغ الخبر رجالهم فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال، ثم اجتمع جمع منهم وجاؤوا للحرب فتقارب الناس وأخاف بعضهم بعضاً. ولما حانت صلاة العصر وخاف عليه الصلاة والسلام أن يغدر بهم الأعداء وهم يصلُّون، صلى بالمسلمين صلاة الخوف، فألقى الله الرعب في قلوب الأعداء وتفرقت جموعهم خائفين منه ﷺ.

ومال الإمام البخاري إلى أن هذه الغزوة كانت في السنة السابعة وأجمع أهل السِّير على خلافه.

غزوة بدر الآخرة

لما أهلّ شعبان هذا العام كان موعد أبي سفيان، فإنه بعد انقضاء غزوة أحد قال للمسلمين: موعدنا بدر العام المقبل، فأجابه الرسول إلى ذلك. وكان بدر محل سوق تعقد كل عام للتجارة في شعبان يقيم التجار فيه ثمانياً. فلما حل الأجل وقريش مجدبون، لم يتمكن أبو سفيان من الإيفاء بوعده، فأراد أن يخذل المسلمين عن الخروج كيلا يوسم بخلف الوعد، فاستأجر نُعيم بن مسعود الأشجعي، ليأتي المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من

---

(١) سميت بهذا الاسم لأنهم رقعوا فيها راياتها وفي حديث أبي موسى إنما سميت بذلك لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم الخرق من شدة الحر.

الجموع العظيمة، فقدم نُعيم المدينة وقال للمسلمين: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[1] ولم يلتفت عليه الصلاة والسلام لهذا الإرجاف اتكالاً على ربه، بل خرج بألف وخمسمائة من أصحابه، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبيّ، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا بدراً فلم يجدوا بها أحداً، لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج على نية الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين، ظاناً أن إرجاف نُعيم يفيد فيكون المخلف هم المسلمون، فسار حتى أتى مجنة وهي سوق معروفة من ناحية مر الظهران ـ فقال لقومه: إن هذا عام جدْب[2] ولا يصلحنا إلا عام عشب فارجعوا، أما المسلمون فأقاموا ببدر لا يشاركهم في تجارته أحد ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[3]. ولما سمع بذلك صفوان بن أمية قال لأبي سفيان: قد والله نهيتك أن تعد القوم قد اجترؤوا علينا ورأوا أنّا أخلفناهم.

حوادث

وفي هذا العام ولد الحسين بن علي، وفيه توفيت زينب بنت خزيمة أم المؤمنين، وفيه توفي أبو سلمة رضي الله عنه ابن عمة رسول الله وأخوه من الرضاعة وأول من هاجر إلى الحبشة، وفيه تزوج عليه الصلاة والسلام أم سلمة هنداً زوج أبي سلمة بعد وفاته.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٧٣.
(٢) الجدب ضد الخصب.
(٣) سورة آل عمران آية ١٧٤.

غزوة دُومة الجندل[1]

في ربيع الأول من هذا العام بلغ النبي ﷺ أن جمعاً من الأعراب بدُومة الجندل، يظلمون من مر بهم وأنهم يريدون الدنو من المدينة، فتجهز لغزوهم، وخرج في ألف من أصحابه بعد أن ولّى على المدينة سباع بن عُرْفُطة الغِفاري، ولم يزل يسير الليل ويكمن النهار حتى قرب منهم، فلما بلغهم الخبر تفرقوا، فهجم المسلمون على ما شيتهم ورعائهم، فأصيب من أصيب وهرب من هرب، ثم نزل بساحتهم فلم يلق أحداً، وبث السرايا فلم يجد منهم أحداً، فرجع عليه الصلاة والسلام غانماً، وصالح وهو عائد عُيَيْنة بن حصن الفَزاري، وهو الذي كان يسميه عليه الصلاة والسلام: الأحمق المطاع، لأنه كان يتبعه ألف قناة، وأقطعه عليه الصلاة والسلام أرضاً يرعى فيها بَهْمَهُ[2] على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، لأن أرضه كانت قد أجدبت.

غزوة بني المصطلق[3]

في شعبان بلغه عليه الصلاة والسلام أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أحد، يجمع الجموع

(١) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليالٍ، وبينها وبين طيبة خمس عشرة ليلة، وهي بضم الدال وقد تفتح.
(٢) البهم: صغار الغنم.
(٣) هي غزوة المريسيع.

لحربه، فخرج له عليه الصلاة والسلام في جمع كثير، وولى على المدينة زيد بن حارثة، وخرج معه من نسائه عائشة وأم سلمة، وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط في غزوة قبلها، يرجون أن يصيبوا من عرض الدنيا، وفي أثناء مسيره عليه الصلاة والسلام التقى بعَيْن[1] بني المصطلق، فسأله عن أحوال العدو فلم يجب فأمر بقتله. ولما بلغ الحارث ـ رئيس الجيش ـ مجيء المسلمين لحربه وأنهم قتلوا جاسوسه، خاف هو وجيشه خوفاً شديداً، حتى تفرق عنه بعضهم، ولما وصل المسلمون الى المريسيع[2] تصافَّ الفريقان للقتال، بعد أن عرض عليهم الإسلام فلم يقبلوا، فتراموا بالنبل ساعة، ثم حملَ المسلمون عليهم حملة رجل واحد فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالاً للهرب، بل قتلوا عشرة منهم، وأسروا باقيهم مع النساء والذرية واستاقوا الإبل والشياه، وكانت الإبل ألفي بعير والشياه خمسة آلاف، واستعمل الرسول على ضبطها مولاه شُقْران وعلى الأسرى بُرَيْدة. وكان في نساء المشركين بَرَّة بنت الحارث سيد القوم، وقد أخذ من قومها مئتا بنت أسرى وزعت على المسلمين، وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم، فإن بني المصطلق من أعز العرب داراً، فأسر نسائهم بهذه الحال صعب جداً، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يجعل المسلمين يمنّون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم، فتزوج بَرَّة بنت الحارث التي سماها جويرية، فقال المسلمون: أصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم في أيدينا فمنّوا عليهم بالعتق، فكانت جويرية أيمن امرأة على قومها كما قالت عائشة رضي الله عنها. وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة، أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم.

وقد حصل في هذه الغزوة نادرتان لولا أن صاحبتْهما حكمة رسول الله ﷺ لعادتا بالتفريق على المسلمين.

---

(١) العين: الجاسوس.

(٢) ماء لخزاعة على يوم من الفرع.

(فأولاهما) أن أجيراً لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج، فضرب الأجير الحليف حتى سال دمه، فاستصرخ بقومه الخزرج، واستصرخ الأجير بالمهاجرين، فأقبل الذعر من الفريقين وكادوا يقتتلون، لولا أن خرج عليهم رسول الله فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ (وهي ما يقال في الاستغاثة يا لفلان) فأخبر الخبر، فقال: دعوا هذه الكلمة فإنها منتنة. ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه وبذلك سكنت الفتنة. فلما بلغ عبد الله بن أبيّ هذا الخصام غضب. وكان عنده رهط من الخزرج فقال: ما رأيت كاليوم مذلة، أو قد فعلوها؟ نافرونا في ديارنا والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يأكلْك، أما والله ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾[1] ثم التفت إلى من معه وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد فأيتمتم أولادكم وقلَلْتُم وكثروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضُّوا من عنده. وكان في مجلسه شاب حديث السن قوي الإسلام اسمه زيد بن أرقم، فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه، وقال: يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت؟ فقال: والله يا رسول الله لقد سمعته، قال: لعله أخطأ سمعك. فاستأذن عمر الرسول في قتل ابن أُبيّ أو أن يأمر أحداً غيره بقتله، فنهاه عن ذلك وقال: كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، ثم أذن بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر، يقصد بذلك عليه الصلاة والسلام شَغْل الناس عن التكلم في هذا الموضوع، فجاء أُسيد بن حضير وسأله عن سبب الإرتحال في هذا الوقت؟ فقال: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: أنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم سار عليه الصلاة والسلام بالناس حثيثاً حتى آذتهم الشمس، فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ

---

(١) المنافقون ٨.

الأرض حتى وقعوا نياماً. وكلم رجال من الأنصار عبد الله بن أبيّ في أن يطلب من الرسول الاستغفار فلوى رأسه واستكبر. وهنا نزل على الرسول سورة المنافقين التي فضحت عبد الله بن أبيّ وإخوانه وصدّقت زيد بن أرقم. ولما بلغ ذلك عبد الله بن عبد الله بن أبيّ استأذن رسول الله في قتل أبيه حذراً من أن يكلف بذلك غيره، فيكون عنده من ذلك أضعاف وأحقاد، فأمره عليه الصلاة والسلام بالإحسان إلى أبيه.

حديث الإفك

(النادرة الثانية) وهي أفظع من الأولى وأجلب منها للمصائب، وهي رمي عائشة الصديقة زوج رسول الله بالإفك، فاتهموها بصفوان بن المعطّل السُّلمي. وذلك أنهم لما دنوا من المدينة أذن عليه الصلاة والسلام ليلة بالرحيل، وكانت السيدة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش. فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها فلمست صدرها فإذا عقد لها من جَزْع ظِفار قد انقطع، فرجعت تلتمس عقدها فحبسها ابتغاؤه، فأقبل الرهط الذين يرحلونها فاحتملوا هودجها ظانّين أنها فيه، لأن النساء كن إذ ذاك خفافاً لم يغشهن اللحم، فلم يستنكر القوم خفة الهودج، وكانت عائشة جارية حديثة السن، فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها وليس بالمنزل داع، ولا مجيب، فغلبتها عيناها فنامت، وكان الذي يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوان بن المعطّل، فأصبح عند منزلها فعرفها، لأنه كان رآها قبل الحجاب، فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه وسترت وجهها بجلبابها، فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة. ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة، فقامت قيامة أهل الإفك، وقالوا ما قالوا في عائشة وصفوان، والذي تولّى كبر الإفك عبد الله بن أبي[1]. ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً،

---

(١) كان عبد الله بن ابي آول من أثار هذه الفتنة وتقول عليهما الأقاويل.

والناس يفيضون في قول أهل الإفك، وهي لا تشعر بشيء، وكانت تعرف في رسول الله رقة إذا مرضت فلم يعطها نصيباً منها في هذا المرض، بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله: كيف حالكم؟ مما جعلها في ريب عظيم. فلما نقهت، خرجت هي وأم مِسْطَح بن أُثاثة أحد أهل الإفك للتبرز خارج البيوت، فعثرت أم مِسْطح في مرضها فقالت: تَعِس مِسْطَح!! فقالت عائشة: بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت يا هَنْتاه أولم تسمعي ما قالوا؟ فسألتها عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر، فازدادت مرضاً على مرضها. ولما جاءها عليه الصلاة والسلام كعادته، استأذنته أن تمرّض في بيت أبيها، فأذن لها، فسألت أمها عما يقول الناس فقالت: يا بنية هوّني عليك فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقالت عائشة: سبحان الله!! أوقد تحدّث الناس بهذا؟ وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم. وفي خلال ذلك كان عليه الصلاة والسلام يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل، فقال له أسامة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة: أهلك أهلك، ولا نعلم عليهم إلا خيراً، وقال علي بن أبي طالب: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك. فدعا عليه الصلاة والسلام بريرة جارية عائشة وقال لها: هل رأيت من شيء يريبك؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتي الداجن فتأكله. فقال عليه الصلاة والسلام من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون وقال: من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل على أهلي إلا معي. فقال سعد بن معاذ أنا يا رسول الله أعذرك منه، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج امرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد بن عبادة الخزرجي وقال كذبت لعَمْر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أنه يقتل، فقام أُسيد بن حضير وقال لسعد بن عبادة: كذبت لعَمْرُ الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين. وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج، لولا أن

رسول الله نزل من فوق المنبر وخفضهم حتى سكتوا. وأما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم. وبينما هي مع أبويها إذ دخل النبي عليه الصلاة والسلام فسلم ثم جلس فقال: أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممْت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف وتاب تاب الله عليه. فتقلص دمع عائشة وقالت لأبويها: أجيبا رسول الله، فقالا: والله ما ندري ما نقول، فقالت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدّقني فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حيث قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1]. ثم تحولت واضطجعت على فراشها ولم يزاول رسول الله ﷺ مجلسه حتى نزلت عليه الآيات ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ

---

(١) سورة يوسف آية ١٨.

رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[١]، فسُرِّي عن رسول الله وهو يضحك، وبشر عائشة بالبراءة، فقالت لها أمها: قومي واشكري رسول الله، فقالت: لا والله، لا أشكر إلا الذي برأني وبعد ذلك أمر عليه الصلاة والسلام بأن يجلد من صرح بالإفك ثمانين جلدة وهي حد القاذف، وكانوا ثلاثة: حَمْنَة بنت جحش، ومِسْطَح بن أثاثة، وحسان بن ثابت. وكان أبو بكر ينفق على مِسْطَح بن أُثاثة لقرابته منه، فلما تكلم بالإفك قطع عنه النفقة فأنزل الله ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢]. فقال أبو بكر: بل نحب ذلك يا رسول الله، وأعاد النفقة على مِسْطح. فهذه مضار المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهرين لهم المحبة وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن، فمتى رأوا باباً لها ولجوه فنعوذ بالله منهم.

غزوة الخندق[٣]

لم يقر لعظماء بني النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وإرث المسلمين لها، بل كان في نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ويستردوا بلادهم، فذهب جمع منهم إلى مكة وقابلوا رؤساء قريش وحرضوهم على حرب رسول الله، ومنّوهم المساعدة فوجدوا منهم قبولاً لما طلبوه، ثم جاؤوا إلى قبيلة غَطَفان وحرضوا رجالها كذلك، وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوجدوا منهم ارتياحاً. فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان،

---

(١) سورة النور اية ١١ - ١٩.   (٢) سورة النور آية ٢٢.

(٣) أول من أشار على النبي ﷺ فكرة الخندق هو سلمان الفارسي وتقبل النبي ﷺ والمسلمون لهذه الفكرة وحفروا الخندق. وكانت غزوة الخندق في شوال السنة الخامسة للهجرة.

ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، وعددهم أربعة آلاف معهم ثلثمائة فارس وألف بعير. وتجهزت غطفان يرأسهم عُيَيْنة بن حصن الذي جازى إحسان رسول الله كفراً فإنه، كما قدمنا، أقطعه أرضاً يرعى فيها سوائمه، حتى إذا سمن خفُّه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه، وكان معه ألف فارس، وتجهزت بنو مرّة يرأسهم الحارث بن عوف المري وهم أربعمائة، وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود[1] بن رُخَيلة، وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس، وهم سبعمائة، وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدي، وعدَّة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان.

ولما بلغه عليه الصلاة والسلام أخبار هذه التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع: أيمكث بالمدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار؟ فأشار عليه سلمان الفارسي بعمل الخندق، وهو عمل لم تكن العرب تعرفه، فأمر عليه الصلاة والسلام المسلمين بعمله وشرعوا في حفره شمالي المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، وهذه هي الجهة التي كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها. أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل، لا يتمكن العدو من الحرب جهتها. وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في حفر الخندق، لأنهم لم يكونوا في سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل. وعمل معهم عليه الصلاة والسلام، فكان ينقل التراب متمثلاً بشعر بن رواحة:

اللهمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزلنْ سكينةً علينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقَيْنا
والمشركون قد بغَوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أَبَيْنا

وأقام الجيش في الجهة الشرقية مسنداً ظهره إلى سلع، وهو جبل مطل على المدينة، وعدتهم ثلاثة آلاف. وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة،

---

(١) الصواب: مِسْعَر بن رخيلة.

ولـواء الأنصار مـع سعد بن عبـادة. أما قـريش فنزلت بمجمـع الأسيال، وأمـا غطفان فنزلت جهة أحد.

وكان المشركون معجبين بمكيدة الخنـدق التي لم تكن العرب تعـرفها، فصاروا يترامون مع المسلمين بـالنبل. ولمـا طال المـطال عليهم أكره جمـاعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق، منهم عكرمـة بن أبي جهل وعمـرو بن ودّ وآخرون، وقد برز علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لعمـرو بن ودّ فقتله وهـرب إخوانـه، وهوى في الخنـدق نوفـل بن عبد الله فـانـدقت عنقـه، ورُمي سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم قطع أكحله، وهو شريـان الذراع واستمـرت المناوشة والمراماة بـالنبل يـوماً كـاملاً، حتى فاتت المسلمين صلاة ذاك اليـوم وقضـوها بعـد، وجعل عليـه الصلاة والسـلام على الخنـدق حـراسـاً حتى لا يقتحمه المشركون بالليل، وكان يحرس بنفسه ثلمة فيه مـع شدّة البـرد، وكان عليـه الصلاة والسـلام يبشر أصحـابه بـالنصـر والـظفـر ويعـدهم الخيـر. أمـا المنافقون فقد أظهروا في هذه الشدة ما تكنّه ضمائرهم حتى قالوا: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1] وانسحبوا قـائلين: إن بيوتنـا عورة نخـاف أن يغير عليهـا العـدوّ ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[2] واشتـدت الحـال بالمسلمين، فإن هـذا الحصار صـاحبه ضيق على فقـراء المدينـة، والذي زاد الشدة عليهم ما بلغهم من أن يهود بني قريظة الذين يسـاكنونهم في المـدينة، قد انتهزوا هذه الفرصـة لنقض العهود، وسبب ذلـك أن حُييَّ بن أخطب سيـد بني النضير المجْلِيِّين توجه إلى كعب بن أسعد القرظي سيد بني قريظة، وكـان له كالشيطان إذ قال للإنسان اكفـر، فحسَّن له نقض العهـد، ولم يزل بـه حتى أجابه لقتال المسلمين. ولما بلغت هذه الأخبار رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آلـه وسلم، أرسـل مسلمـة بن أسلم في مـائتين، وزيـد بن حـارثـة في ثلاثمائة، لحراسة المدينة خوفاً على النساء والذراري، وأرسل الزبير بن العوام

(١) سورة الأحزاب آية ١٢.
(٢) سورة الأحزاب آية ١٣.

يستجلي له الخبر. فلما وصلهم وجدهم حانقين يظهر على وجوههم الشر، ونالوا من رسول الله ﷺ والمسلمين أمامه. فرجع وأخبر الرسول بذلك، وهنالك اشتد وجل المسلمين وزلزلوا زلزالاً شديداً، لأن العدو جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وظنوا بالله الظنون، وتكلم المنافقون بما بدا لهم، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يرسل لعُيَيْنَةَ بن حصن ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان، فأبى الأنصار ذلك قائلين: إنهم لم يكونوا ينالون منا قليلاً من ثمارنا ونحن كفار، أفبعد الإسلام يشاركوننا فيها؟ وإذا أراد الله العناية بقوم هيَّأ لهم أسباب الظفر من حيث لا يعلمون. فانظر إلى هذه العناية من المتمسكين بدينه القويم: جاء نُعيم بن مسعود الأشجعي، وهو صديق قريش واليهود من غطفان. فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وقومي لا يعلمون بإسلامي، فمُرني بأمرك حتى أساعدك. فقال: أنت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذّل عنا ما استطعت فإن الحرب خُدعة.

الخُدعة في الحرب

فخرج من عنده وتوجه إلى بني قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين، فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم، فقال: يا بني قريظة تعرفون ودّي لكم وخوفي عليكم، وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني، قالوا: نعم، فقال: لقد رأيتم ما وقع ببني قَيْنُقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم. وأما أنتم فتساكنون الرجل - يريد الرسول - ولا طاقة لكم بحربه وحدكم، فأرى ألا تدخلوا في هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم، بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً، فاستحسنوا رأيه وأجابوه إلى ذلك.

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش، فاجتمع برؤسائهم وقال أنتم

تعرفون ودي لكم ومحبتي إياكم وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني قالوا: نفعل، فقال لهم: إن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد، وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه، فقالوا له: أيرضيك أن نأخذ جمعاً من أشرافهم ونعطيهم لك وترد جناحنا الذي كسرت (يريد بني النضير)؟ فرضي بذلك منهم، وها هم مرسلون إليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفاً، ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشاً، فأرسل أبو سفيان وفداً لقريظة يدعوهم للقتال غداً، فأجابوا: إنا لا يمكننا أن نقاتل في السبت (وكان إرساله ليلة سبت) ولم يصبنا ما أصابنا إلا من التعدي فيه. ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم، فتحققت قريش وغطفان كلام نُعيم بن مسعود، وتفرقت القلوب فخاف بعضهم بعضاً.

وكان عليه الصلاة والسلام قد ابتهل إلى الله الذي لا ملجأ إلا إليه، ودعاه بقوله: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم» وقد أجاب الله دعاءه عليه الصلاة والسلام، فأرسل إلى الأعداء ريحاً باردة في ليلة مظلمة، فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم في الليل المدلهمة، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح. ولما سمع عليه الصلاة والسلام الضوضاء في جيش العدو، قال لأصحابه: لا بدّ من حادث فمن منكم ينظر لنا خبر القوم؟ فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثاً، وكان فيهم حذيفة بن اليمان، فقال عليه الصلاة والسلام: تسمع صوتي منذ الليلة ولا تجيب! فقال: يا رسول الله البرد شديد، فقال: اذهب في حاجة رسول الله واكتشف لنا خبر القوم، فخاطر رضي الله عنه بنفسه في خدمة نبيه حتى اطلع على جلية الخبر، وأنّ الأعداء عازمون على الرحلة.

هزيمة الأحزاب

. وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم: ليتعرف كل منكم أخاه وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو، وقد حلّ عقال بعيره

يريد أن يبدأ بالرحيل. وقال له صفوان بن أمية: إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضي، فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل، وترك خالد بن الوليد في جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم، وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي تحزَّب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين. ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منةً منه وفضلاً لساءت الحال. وكان جلاء الأحزاب في ذي القعدة، وكان حقاً على الله أن يسميه نعمة بقوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[1].

غزوة بني قريظة

ولما رجع عليه الصلاة والسلام بأصحابه وأراد أن يخلع لباس الحرب، أمره الله باللحوق ببني قريظة، حتى يطهر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود، ولا تربطهم المواثيق ولا يأمن المسلمون جانبهم في شدة، فقال لأصحابه؛ لا يصلينَّ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة، فساروا مسرعين وتبعهم عليه الصلاة والسلام راكباً على حماره، ولواؤه بيد علي بن أبي طالب، وخليفته على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف. وقد أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر في الطريق فصلاها

---

(١) سورة الأحزاب اية ٩ ـ ١٣.

بعضهم، حاملين أمر الرسول بعدم صلاتهم على قصد السرعة، ولم يصلّها الآخرون إلا في بني قريظة بعد مضي وقتها، حاملين الأمر على حقيقته، فلم يعنف فريقاً منهم.

ولما رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب في قلوبهم، وأرادوا التنصل من فعلتهم القبيحة، وهي الغدر بمن عاهدهم وقت الشغل بعدو آخر، ولكن أنى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرهم، فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم، وحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة، فلما رأوا أن لا مناص من الحرب، وأنهم إن استمروا على ذلك ماتوا جوعاً طلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح، فلم يقبل الرسول ﷺ، فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم من غير سلاح فلم يرض أيضاً، بل قال: لا بد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيراً كان أو شراً، فقالوا له: أرسل لنا أبا لُبابة نستشيره، وكان أوسيّاً من حلفاء قريظة له بينهم أولاد وأموال. فلما توجه إليهم استشاروه في النزول على حكم الرسول. فقال لهم: انزلوا وأومأ بيده إلى حلقه يريد أن الحكم الذبح، ويقول أبو لبابة: لم أبارح موقفي حتى علمت أني خنت الله ورسوله، فنزل من عندهم قاصداً المدينة خجلاً من مقابلة رسول الله، وربط نفسه في سارية من سواري المسجد حتى يقضي الله فيه أمره. ولما سأل عنه عليه السلام أخبر بما فعل، فقال: أما لو جاءني لاستغفرت له، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضي الله فيه.

ثم إن بني قريظة لما لم يروا بدّاً من النزول على حكم رسول الله فعلوا، فأمر برجالهم فكتّفوا، فجاءه رجال من الأوس وسألوه أن يعاملهم كما عامل بني قَيْنُقاع حلفاء إخوانهم الخزرج، فقال لهم: ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم؟ فقالوا: نعم. واختار سيدهم سعد بن معاذ الذي كان جريحاً من السهم الذي أصيب به في الخندق، وكان مقيماً بخيمة في المسجد معدة لمعالجة الجرحى، فأرسل عليه السلام من يأتي به، فحملوه على حماره

والتف عليه جماعة من الأوس يقولون له: أحسن في مواليك؟ فقال رضي الله عنه: لقد آن لسعد ألّا تأخذه في الله لومة لائم. ولما أقبل على الرسول وأصحابه وهم جلوس، قال عليه الصلاة والسلام: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، ففعلوا وقالوا له: إن رسول الله قد ولّاك أمر مواليك لتحكم فيهم.

وقال له الرسول: أحكم فيهم يا سعد! فالتفت سعد للناحية التي ليس فيها رسول الله وقال عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت، فقالوا: نعم، فالتفت إلى الجهة التي فيها الرسول وقال: وعلى من هنا كذلك؟ وهو غاضٌ طرفه إجلالاً، فقالوا: نعم قال: فإني أحكم أن تقتلوا الرجال وتسبُوا النساء والذرية، وتغنموا الأموال فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد» لأن هذا جزاء الخائن الغادر.

ثم أمر بتنفيذ الحكم فنفذ عليهم، وجمعت غنائمهم، فكان ألفاً وخمسمائة سيف وثلثمائة درع وألفي رمح وخمسمائة ترس وحِجَفَة، ووجد أثاثاً كثيراً وآنية وأجمالاً نواضح وشياهاً، فخمّس ذلك كله مع النخل والسبي للراجل ثلث الفارس، وأعطى النساء اللاتي يمرضن الجرحى، ووجد في الغنيمة جرار خمر فأُريقت. وبعد تمام هذا الأمر انفجر جرح سعد بن معاذ فمات رضي الله عنه وأرضاه. كان في الأنصار كأبي بكر في المهاجرين، وقد كان له العزم الثابت في جميع المشاهد التي تقدمت الخندق، وكان عليه الصلاة والسلام يحبه كثيراً وبشره بالجنة على عظيم أعماله. وعقب رجوع المسلمين إلى المدينة تاب الله على أبي لُبابة بقوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]. وقد عاهد الله أن يهجر ديار قريظة التي حصلت فيها هذه الزلة، وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم تبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها، وهم كانوا

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٢.

السبب في إثارة الأحزاب. وسيأتي للقارىء قريباً اليوم الذي يعاقبون فيه.

زواج زينب بنت جحش

وفي هذا العام تزوج عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش - وأمها أميمة عمته - بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة، وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول ﷺ خطبها له، فتأفف أهلها من ذلك لمكانها في الشرف العظيم، فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالي، ويعتقدون أن لا كفء من سواهم لبناتهم، وزيد وإن كان الرسول تبنّاه ولكن هذا لا يلحق بالأشراف، فلما نزل قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾(١) لم يروا بدّاً من القبول، فلما دخل عليه زيد أرته من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله، فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها إلى أن ضاقت نفسه، فأخبره بالعزم على طلاقها وقرّر ذلك، ولما كانت العشرة بين هذين الزوجين ضرباً من العبث، أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها، حسماً لهذا الشقاق من جهة، وحفظاً لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى، ولكن رسول الله خشي من لوم اليهود والعرب له في زواجه بزوج ابنه، فقال لزيد: أمسك عليك زوجك واتق الله، وأخفى في نفسه ما أبداه الله فبتَّ الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهي: تحريم زوج المتبنّى بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(٢)
ثم إن الله حرّم التبنّي على المسلمين، لما فيه من الأضرار وأنزل فيه:
﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾(٣). ومن هذا الحين صار اسم زيد (زيد بن حارثة)

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٦.
(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧.
(٣) سورة الأحزاب آية ٤٠.

بدل (زيد بن محمد) ، وأبدل بذلك أن ذكر اسمه في القرآن يتلى على مر الدهور والأعوام.

يقول المؤرخون وذوو المقاصد السافلة منهم في هذه القصة أقوالاً لا تجوز إلا ممن ضاع رشده، ولم يفقه حقيقة ما يقول، فإنهم يذكرون أن الرسول توجه يوماً لزيارة زيد فرأى زوجه مصادفة، لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت في قلبه فقال: سبحان الله، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها، فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك الخ. وهذا مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه، وزينب بنت عمته وأسلمت قديماً ورسول الله بمكة، فكيف لم يرها وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات وهي بنت عمته، إلا حينما رفعت الريح الستر مصادفة، ورسول الله هو الذي زوَّجها زيداً، فلو كان له رغبة حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك. ومن منَّا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه إنه مرسل من ربه ويتلو عليهم صباح مساء أمر الله له بقوله: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾[1] وفي قوله أيضاً: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2] ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه وينظر إلى زوجه مصادفة ثم يشتهي زواجها؟ إن هذا لأمر عظيم تشعر بذلك صدورنا. ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه، فكيف بمن اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقاً، وأبعدهم عن الدنايا، وأشدهم ذكاء وفراسة، حتى مدحه الله بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[3] لا شك أن هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرانيق، وضعها أعداء الدين ليصلوا بها إلى أغراضهم، والحمد لله قد ناقضت النقل والعقل، فلم تبق شبهة في أن الحقيقة ما نقلناه لك أولاً. وهو الذي يستفاد من القرآن

---

(١) سورة الحجر آية ٨٨.
(٢) سورة طه آية ١٣١.
(٣) سورة القلم آية ٤.

الشـريف قال تعـالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَـٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(١) والذي أبداه هو زواجه بها ،لم يبد غير ذلـك. وهذا القـرآن أعظم شاهد.

الحجاب

وفيه نزلت آية الحجاب وهو خاص بنسـاء رسول الله ﷺ ، كـان عمر بن الخطاب قبل نـزول آيته يحبـه ويذكـره كثيراً، ويـود أن ينزل فيه قرآن. وكـان يقـول: لو أُطـاع فيكن مارأتكنَّ عين. فنـزّل تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾(٢) فقال بعضهم: أننهى أن نكلم بنـات عمنـا إلا من وراء حجـاب؟ لئن مـات محمـد لأتـزوجن عائشة! فنزل بعد الآيـة المتقدمـة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾(٣) أما غير أزواجـه عليه الصلاة والسلام من المؤمنات فأمرن بغض الأبصـار وحفظ الفروج، كمـا أمر بذلك الرجال، وأمرن ألاّ يبدين زينتهن للأجانب إلا ما ظهـر منها كـالخاتم في الإصبـع، والخضاب في اليـد، والكحل في العين. أمـا ما خفي منهـا فلا يحل ابداؤه كـالسوار للذراع، والـدُّملج للعضد، والخلخـال للرِّجل، والقـلادة للعنق، والإكليـل للرأس، والوشـاح للصدر، والقـرط للأذن. والمـراد بالـزينة الظاهرة والخفية موضعها. وأمرن أيضاً بأن يضربن بخمُرهنّ على الجيوب كيلا تبقى صدورهن مكشوفـة، فإن النسـاء إذ ذاك كانت جيـوبهن واسعة تبـدو منها

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧ ـ ٣٨.
(٢) سورة الأحزاب آية ٥٣.
(٣) سورة الأحزاب آية ٥٣.

نحورهن وصدورهن وما حواليها، وكن يسدلن الخُمُر من ورائهن. ونهين عن أن يضربن بأرجلهن ليعلم أنهم ذوات خلخال. وإذا كان النهي عن إظهار صوت الحليّ بعد ما نهين عن إظهار الحلي، عُلم بذلك أن النهي عن إظهار مواضع الحلي أبلغ وأبلغ قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(1) وكان النساء في أول الإسلام، كما كنّ في الجاهلية، متبذلات تبرز المرأة في درع وخمار لا فرق بين الحرة والأمة، وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل إلى مقاضي حوائجهن في النخيل والغيطان، وربما تعرضوا للحرة بعلة الأمة يقولون حسبناها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيّهن زي الإماء بأن يدنين عليهنّ من جلابيبهن الوجه والأعطاف، ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(2).

أما حجب المرأة عمن يريد خطبتها فهو أمر لم يكن يفعل في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد السلف الصالح. فإن الشارع الحكيم سنّ ذلك ليكون الرجل على علم مما يقدم عليه، حتى يتم الوفاق والوئام بين الزوجين في أمر أجمع عليه أئمة الدين. قال حجة الإسلام الغزالي في الإحياء: وقد ندب الشرع، إلى مراعاة أسباب الإلفة، ولذلك استحب النظر فقال: إذا أوقع

---

(1) سورة النور آية ٣١.

(2) سورة الأحزاب آية ٥٩.

الله في نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما، أي يؤلف بينهما: من وقوع الأدمة على الأدَمَة وهي الجلدة الباطنة، والبشرة الجلدة الظاهرة. وإنما ذكر ذلك للمبالغة في الائتلاف. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن في أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن» قيل: كان في أعينهن عمش وقيل صغر. وكان بعض الصالحين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور. وقال الأعمش: كل تزويج يقع على غير نظر فآخره همّ وغمّ، ولا يبعد أن يكون فساد الزمن والابتعاد عن التربية الدينية التي تسوق إلى مكارم الأخلاق قد حسَّنا عند عامة المسلمين في العصور الأولى حجب المرأة مطلقاً حسماً للمفاسد ودرْءاً للفتنة.

فرض الحج

وفي هذا العام، على ما عليه الأكثرون، فرض الله على الأمة الإسلامية حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ليجتمع المسلمون من جميع الأقطار، فيتجهوا إلى الله ويبتهلوا إليه أن يؤيدهم بنصره ويعينهم على اتباع دينه القويم، وفي ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى.



السنة السادسة

سرية

ولعشر خلون من محرم السنة السادسة، أرسل عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشن الغارة على بني بكر بن كلاب الذين كانوا نازلين بناحية ضَرِيَّة[1] فسار إليهم يكمن النهار ويسير الليل، حتى دهمهم فقتل منهم عشرة وهرب باقيهم، فاستاقت السرية النَّعَم والشياه وعادوا راجعين إلى المدينة، وقد التقوا وهم عائدون بثُمامة بن أُثال الحنفي من عظماء بني حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه، فلما أتوا به رسول الله عرفه وعامله بمنتهى مكارم الأخلاق، فإنه أطلق إساره بعد ثلاث أبى فيها الانقياد للإسلام بعد أن عرض عليه. ولما رأى ثمامة هذه المعاملة وهذه المكارم، رأى من العبث أن يتبع هواه ويترك ديناً عماده المحامد، فرجع إلى رسول الله وأسلم غير مُكره، وخاطب الرسول بقوله: «يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليَّ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إليَّ من دينك، فقد أصبح أحب الدين كله إليَّ والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك فقد أصبح أحب البلاد إلي» فسرَّ عليه الصلاة والسلام كثيراً بإسلامه لأن من ورائه قوماً يطيعونه. ولما رجع ثُمامة إلى بلاده مرَّ بمكة معتمراً وأظهر فيها إسلامه، فأرادت قريش إيذاءه فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التي منها ثُمامة فتركوه، ومع ذلك فقد حلف هو ألا يرسل إليهم من اليمامة حبوباً حتى يؤمنوا، فجهدوا جدّاً ولم يروا بدّاً من الاستغاثة برسول الله، فعاملهم عليه الصلاة والسلام بما جبل عليه من الشفقة والمرحمة، وأرسل لثمامة أن يعيد عليهم ما كان يأتيهم من أقوات

---

(١) موضع على سبع ليال من المدينة في طريق البصرة.

اليمامة ففعل. وقد كان لهذا الرجل الكريم الأصل قدم راسخة في الإسلام عقب وفاة الرسول حينما ارتدّ أكثر أهل بلاده، فكان ينهى قومه عن اتباع مسيلمة ويقول لهم: إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه، فثبت معه كثير من قومه رضي الله عنه.

غزوة بني لحيان

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت وإخوانه، ولم يزل رسول الله حزيناً عليهم متشوقاً للقصاص من عدوهم حتى ربيع الأول من هذه السنة، فأمر أصحابه بالتجهيز ولم يظهر لهم مقصده، كما هي عادته عليه الصلاة والسلام في غالب الغزوات، لتعمى الأخبار عن الأعداء، وولى على المدينة ابن أم مكتوم، وسار في مائتي راكب معهم عشرون فارساً، ولم يزل سائراً حتى مقتل أصحاب الرجيع فترحَّم عليهم ودعا لهم، ولما سمع به بنو لحْيان تفرقوا في الجبال، فأقام عليه السلام بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحداً، ثم أرسل بعضاً من أصحابه ليأتوا عُسفان[1] حتى يعلم بهم أهل مكة فيداخلهم الرعب. فذهبوا إلى كُراع الغَميم[2]، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وهو يقول: «آيبون تائبون لربنا حامدون. أعوذ بالله من وعْثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال».

غزوة الغابة

كان للنبي عليه الصلاة والسلام عشرون لِقْحة ترعى بالغابة[3] فأغار عليها عُيَيْنة بن حصن في أربعين راكباً واستلبها من راعيها، فجاءت الأخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام، والذي بلَّغه هو سلمة بن الأكوع أحد رماة

---

(١) موضع قرب مكة.

(٢) جبل جنوب عسفان بثمانية أميال.

(٣) موضع على بريد من المدينة جهة غطفان.

الأنصار وكان عدّاءً، فأمره الرسول بأن يخرج في أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون، فخرج يشتد في أثرهم حتى لحقهم وجعل يرميهم بالنبل، فإذا وجهت الخيل نحوه رجع هارباً فلا يلحق، فإذا دخلت الخيل بعض المضايق علا الجبل فرمى عليها الحجارة حتى ألقوا كثيراً مما بأيديهم من الرماح والأبراد، ليخففوا عن أنفسهم حتى لا يلحقهم الجيش. ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق به الجيش، فإنّ الرسول دعا أصحابه فأجابوه. وأول من انتهى إليه المقداد بن الأسود فقال له: أخرج في طلب القوم حتى ألحقك وأعطاه اللواء فخرج، وتبعته الفرسان حتى أدركوا أواخر العدو، فحصلت بينهم مناوشات قتل فيها مسلم ومشركان، واستنقذ المسلمون غالب اللّقاح، وهرب أوائل القوم بالبقية. وطلب سلمة بن الأكوع من رسول الله أن يرسله مع جماعة في أثر القوم ليأخذهم على غِرَّة وهم نازلون على أحد مياههم، فقال عليه الصلاة والسلام: «ملكت فاسجحْ» ثم رجع بعد خمس ليال.

سرية

كان بنو أسد الذين مر ذكرهم كثيراً ما يؤذون من يمر بهم من المسلمين، فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام عُكاشة بن محصن في أربعين راكباً ليغير عليهم. ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا. وهناك وجدوا رجلاً نائماً فأمَّنُوه ليدلهم على نعم القوم، فدلَّهم عليها فاستاقوها، وكانت مائة بعير ثم قدموا المدينة ولم يلقوا كيداً.

سرية

وفي ربيع الأول بلغه عليه الصلاة والسلام أن من بذي القصة[1] يريدون الإغارة على نعم المسلمين التي ترعى بالهيفاء[2]، فأرسل لهم محمد بن

(١) موضع على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة في طريق الرَّبَذَة.
(٢) موضع قرب المدينة.

مسلمة في عشرة من المسلمين فبلغ ديارهم ليلاً، وقد كمن المشركون حينما علموا بهم، فنام المسلمون ولم يشعروا إلا والنبل قد خالطهم فتواثبوا على أسلحتهم، ولكن تغلّب عليهم الأعداء فقتلوهم غير محمد بن مسلمة تركوه لظنهم أنه قتل، فعاد إلى المدينة وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام، فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح في ربيع الآخر ليقتص من الأعداء، فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين، فاستاق نعمهم ورجع.

سرية

عاكس بنو سُليم الذين كانوا من المتحزبين في غزوة الخندق المسلمين في سيرهم، فأرسل عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة في ربيع الآخر ليغير عليهم في الجَمُوم[1]، فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا، ووجدوا هناك امرأة من مزينة دلتهم على منازل بني سُليم، فأصابوا بها نعماً وشاءً، ووجدوا رجالاً وأسروهم، وفيهم زوج تلك المرأة، فرجعوا بذلك إلى المدينة فوهب الرسول لهذه المرأة نفسها وزوجها.

سرية

بلغ الرسول أن عيراً لقريش أقبلت من الشام تريد مكة، فأرسل لها زيد بن حارثة في مائة وسبعين راكباً ليعترضها، فأخذها وما فيها وأسر من معها من الرجال، وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله، وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانة. فاستجار بزوجه زينب فأجارته، ونادت بذلك في مجمع من قريش، فقال عليه الصلاة والسلام: «المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجرت» وهذا أبلغ ما قيل في المساواة بين أفراد المسلمين، وردّ عليه الرسول ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً فذهب إلى

---

(١) ناحية من بطن نخل.

مكة فأدى لكل ذي حق حقه، ورجع إلى المدينة مسلماً، فرد عليه رسـول الله زوجه.

سرية

وفي جمادى الآخرة أرسل عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة في خمسة عشر رجلاً للإغارة على بني ثعلبة الذين قتلوا أصحـاب محمد بن مسلمـة وهم مقيمون بالطرف[1] فتوجهت السرية لـذلك، ولمـا رآهم الأعداء ظنـوهم طليعة لجيش رسول الله، فهربوا وتركوا نعمهم وشاءهم، فاستاقها المسلمون ورجعوا إلى المدينة بعد أربع ليال.

سرية

وفي رجب أرسل عليه الصـلاة والسلام، زيـد بن حارثـة ليغير على بني فزارة، لأنهم تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام، فسلبوا مـا معه وكـادوا يقتلونه، فلما جاء المدينة وأخبر الرسول الخبر أرسله مع رجـاله للقصـاص من فزارة المقيمين في وادي القرى[2]، فساروا حتى داهموا العدوا وأحاطـوا بهم، وقتلوا منهم جمعاً كثيراً وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة، فاستوهبها عليه الصلاة والسلام ممن أسرها وفدى بها أسيراً كان بمكة.

سرية

وفي شعبـان أرسل عليـه الصـلاة والسـلام عبـد الـرحمن بن عـوف مـع سبعمائة من الصحابة لغـزو بني كلب في دومة الجنـدل[3]، وقد وصـاهم عليه الصلاة والسلام قبل السفر بقوله: «اغزوا جميعاً في سبيـل الله فقاتلوا من كفـر

---

(١) ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة في طريق العراق.

(٢) موضع شمالي المدينة.

(٣) حصن وقرى بينها وبين دمشق ليال وبين المدينة خمس عشرة ليلة.

بالله، ولا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم» ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلوا بديار العدو، فدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ بن عمرو النصراني، وأسلم معه جمع من قومه وبقي آخرون راضين بإعطاء الجزية، فتزوج عبد الرحمن بنت رئيسهم كما أمره بذلك عليه الصلاة والسلام. وهذه أقرب واسطة لتمكين صلات الود بين الأمراء، بحيث يهمُّ كلًّا ما يهمُّ الآخر. فنعما هي سياسة السلم والمحبة.

سرية

وفي شعبان أرسل عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب في مائة لغزو بني سعد بن بكر بفدك[1]، لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر خيبر. فسارت السرية، وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس العدو، وأرسلوه إلى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها، فطلبوا منه أن يدلهم على القوم وهو آمن، فدلهم على موضعهم، فاستاق منه المسلمون نعَم القوم، وهرب الرعاة، فحذّروا قومهم فداخلهم الرعب وتفرقوا، فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير وألفا شاة. وردّ الله كيد المشركين فلم يمدوا اليهود بشيء.

قتل أبي رافع

وكان المحرك لأهل خيبر على حرب المسلمين، وهو سيدهم أبو رافع سلام بن أبي الحُقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز، لما كان له من المهارة في التجارة، وكان ذا ثروة طائلة يقلّب بها قلوب اليهود كما يريد، فانتدب له عليه

---

(١) قرية بينها وبين المدينة ست ليال من جهة خيبر.

الصلاة والسلام من يقتله، فأجاب لذلك خمسة رجال[1] من الخزرج رئيسهم عبد الله بن عتيك، ليكون لهم مثل أجر إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف، فإن من نعم الله على رسوله أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله، فلا تعمل الأوس عملاً إلا اجتهد الخزرج في مثله. فأمرهم الرسول بذلك بعد أن وصاهم ألا يقتلوا وليداً ولا امرأة، فساروا حتى أتوا خيبر فقال عبد الله لأصحابه: مكانكم فإني منطلق للبواب ومتلطّف له لعلي أدخل. فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنّع بثوب كأنه يقضي حاجته وقد دخل الناس فهتف به البواب: ادخل يا عبد الله إن كنت تريد الدخول فإني أريد أن أغلق الباب، فدخل وكمن حتى نام البواب فأخذ المفاتيح وفتح ليسهل له الهرب، ثم توجه إلى بيت أبي رافع وصار يفتح الأبواب التي توصل إليه. وكلما فتح باباً أغلقه من داخل حتى انتهى إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله فلم يمكنه تمييزه فنادى يا أبا رافع قال من؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئاً، وعند ذلك قالت امرأته: هذا صوت ابن أبي عتيك، فقال لها: ثكلتك أمك وأين ابن أبي عتيك الآن؟ فعاد عبد الله للنداء مغيراً صوته قائلاً: ما هذا الصوت الذي نسمعه يا أبا رافع؟ قال: لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف، فعمد إليه فضربه أخرى لم تغن شيئاً، فتوارى ثم جاء كالمغيث وغيَّر صوته فوجده مستلقياً على ظهره، فوضع السيف في بطنه وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم. ثم خرج من البيت وكان نظره ضعيفاً فوقع من فوق السلم فانكسرت رجله، فعصبها بعمامته ثم انطلق إلى أصحابه وقال: النجاة! قتل والله أبو رافع، فانتهوا إلى الرسول فحدثوه. ثم قال لعبد الله: ابسط رجلك فمسحها عليه الصلاة والسلام فكأنه لم يشتكها قط وعادت أحسن ما كانت، فانظر رعاك الله

---

(١) وهم مسعود بن سنان، وأبو قتادة الحارث، وعبد الله بن أنيس، وخزاعي بن أسود وقدموا على رسول الله ﷺ كلهم يدعي قتل عدو الله. فقال: هاتوا أسيافكم. فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنس «هذا قتله، أرى فيه أثر الطعان».

إلى ما كان عليه المسلمون من استسهال المصاعب ما دامت في إرضاء رسول الله ﷺ، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

سرية

ولما قتل كعب ولى اليهود مكانه أسير بن رزام، فأرسل عليه الصلاة والسلام من يستعلم له خبره، فجاءته الأخبار بأنه قال لقومه: سأصنع بمحمد ما لم يصنعه أحد قبلي، أسير إلى غطفان فأجمعهم لحربه. وسعى في ذلك، فأرسل عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة الخزرجي في ثلاثين من الأنصار لاستمالته، فخرجوا حتى قدموا خيبر وقالوا لأسير: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له، قال: نعم ولي مثل ذلك، فأجابوه. ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله ويترك ما عزم عليه من الحرب فيوليه الرسول على خيبر فيعيش بسلام، فأجاب إلى ذلك وخرج في ثلاثين يهودياً كل يهودي رديف لمسلم. وبينما هم في الطريق ندم أُسير على مجيئه، وأراد التخلص مما فعل بالغدر بمن أمَّنوه، فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن رواحة فقال له: أغدراً يا عدو الله! ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامة فخذه ولم يلبث أن هلك، فقام المسلمون على من معه من اليهود فقتلوهم عن آخرهم، وهذه عاقبة الغدر.

قصة عُكْل وعُرَيْنَة

قدم على رسول الله في شوال جماعة من عُكْل وعُرَيْنَة فأظهروا الإسلام وبايعوا رسول الله، وكانوا سقاماً[1] مصفرة ألوانهم عظيمة بطونهم، فلم يوافقهم هواء المدينة، فأمر لهم عليه الصلاة والسلام بذَوْدٍ من الإبل معها راعٍ، وأمرهم باللحوق بها في مرعاها ليشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا. ولما

---

(١) ضعافاً.

تم شفاؤهم جازوا الإحسان كفراً فقتلوا الراعي ومثَّلوا به واستاقوا الإبل، فلما بلغ ذلك رسول الله أرسل وراءهم كرز بن جابر الفهري في عشرين فارساً، فلحقوا بها وقبضوا على جميعهم. ولما جيء بهم إلى المدينة أمر عليه الصلاة والسلام أن يمثَّل بهم كما مثَّلوا بالراعي، فقطعت أيديهم وأرجلهم وسُمِلت أعينهم وأُلقوا بالحَرة حتى ماتوا. فهكذا يكون جزاء الخائن الذي لا ينتظر منه صلاح، وعمل هؤلاء الشريرين مما يدل على فساد الأصل ولؤم العشيرة. وقد نهى رسول الله ﷺ بعد ذلك عن المثلة.

سرية

جلس أبو سفيان بن حرب يوماً في نادي قومه فقال: ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غدراً، فإنه يمشي بالأسواق لنستريح منه؟ فتقدم له رجل وتعهد له بما أراد، فأعطاه راحلة ونفقة وجهزه لذلك. فخرج الرجل حتى وصل إلى المدينة صبح سادسة من خروجه فسأل عن رسول الله فدل عليه، وهو بمسجد بني عبد الاشهل، فلما رآه عليه الصلاة والسلام، قال: إن هذا الرجل ليريد غدراً وإن الله مانعي منه. فذهب لينحني على الرسول، فجذبه أُسَيد بن حضير من إزاره، وهنالك سقط الخنجر، فندم الرجل على فعلته. ثم سأله عليه الصلاة والسلام عن سبب عمله فصدقه بعد أن توثق من حفظ دمه، فخلّى عليه الصلاة والسلام سبيله. فقال الرجل: والله يا محمد ما كنت أخاف الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي، ثم إنك اطلعت على ما هممت به مما لم يعلمه أحد، فعرفت أنك ممنوع، وأنك على حق وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان ثم أسلم، وعند ذلك أرسل عليه الصلاة والسلام عمرو بن أمية الضمري، وكان رجلاً جريئاً فاتكاً في الجاهلية، وأصحبه برفيق ليقتلا أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه، فلما قدما مكة توجّها ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلا له، فعرف عَمْراً أحد رجال مكة فقال: هذا عمرو بن أمية ما جاء إلا بشرّ، فلما رآهم علموا به لم يجد مناصاً من الهرب فاصطحب معه رفيقه ورجعا إلى المدينة، وكأنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن

يعيش أبو سفيان حتى يسلم بيده مفاتيح الكعبة للمسلمين ويعتنق الدين الحنيفي القويم.

غزوة الحديبية[1]

رأى عليه الصلاة والسلام في نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين حالقين رؤوسهم ومقصرين، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه، حذراً من أن تردّهم قريش عن عمرتهم، ولكن هؤلاء الأعراب أبطؤوا عليه، لأنهم ظنوا ألا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وتخلصوا بأن قالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، فخرج عليه الصلاة والسلام بمن معه من المهاجرين والأنصار، تبلغ عدّتهم ألفاً وخمسمائة، وولى على المدينة ابن أمّ مكتوم وأخرج معه زوجه أمّ سلمة، وأخرج الهدي ليعلم الناس أنه لم يأت محارباً، ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح إلا السيوف في القُرُب، لأن الرسول ﷺ لم يرض أن يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون، ثم سار الجيش حتى وصل عُسْفان[2] فجاءه عينه[3] يخبره أن قريشاً أجمعت رأيها أن يصدّوا المسلمين عن مكة، وألا يدخلوها عليهم عَنْوة أبداً وتجهزوا للحرب وأعدوا خالد بن الوليد في مائتي فارس طليعة لهم ليصدّوا المسلمين عن التقدّم. فقال عليه الصلاة والسلام: هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم؟ فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسار بهم في طريق وعرة، ثم خرج بهم إلى مستو سهل يملك مكة من أسفلها، فلما رأى خالد ما فعل المسلمون رجع إلى

---

(١) غزوة الحديبية كانت في السنة السادسة للهجرة، وفي هذه السنة فرض الحج والعمرة. والحديبية هي بئر في قرية سميت هذه الغزوة باسمها بينها وبين مكة مرحلة وبينها وبين المدينة ٩ مراحل. والمرحلة مسيرة يوم بالإبل: وهي نحو ٣٠ كيلو متر.

(٢) موضع على مرحلتين من مكة.

(٣) العين: من يرسل ليلتقط الأخبار من العدو. وهو هنا بشر ابن سفيان الكعبي.

قريش وأخبرهم الخبر، ولما كان عليه الصلاة والسلام بثنية المرار[1] بركت ناقته، فزجروها فلم تقم، فقالوا: خلأت[2] القَصْوَاء فقال عليه الصلاة والسلام: ما خلأت وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفس محمد بيده لا تدعوني قريش لخصلة فيها تعظيم حرمات الله إلا أجبتهم إليها، مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم في مثل هذا الوقت لظفروا بهم، ولكن كف الله أيدي المسلمين عن قريش، وكف أيدي قريش عن المسلمين، كيلا تنتهك حرمات البيت الذي أراد الله أن يكون حرماً آمناً يوطّد المسلمون من جميع الأقطار دعائم أخوتهم فيه. ثم أمرهم عليه الصلاة والسلام بالنزول أقصى الحديبية[3] وهناك جاء بُدَيل بن وَرْقَاء الخزاعي رسولاً من قريش يسأل عن سبب مجيء المسلمين، فأخبره عليه الصلاة والسلام بمقصده، فلما رجع بُديل إلى قريش وأخبرهم بذلك لم يثقوا به، لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله كما كانت كذلك لأجداده، وقالوا: أيريد محمد أن يدخل علينا في جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عَنْوَةً وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا؟ والله لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف، ثم أرسلوا حُلَيْس بن علقمة سيد الاحابيش وهم حلفاء قريش، فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال: هذا من قوم يعظمون الهدْي ابعثوه في وجهه حتى يراه، ففعلوا واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك حليس رجع وقال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا أتحج لخم وجذام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب؟ هلكت قريش ورب البيت، إن القوم أتوا معتمرين!! فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له: اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك بالمكايد، ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف، فتوجه إلى رسول الله وقال: يا محمد قد جمعت أوباش الناس ثم جئت إلى أهلك وعشيرتك لتُفضّها بهم! إنها قريش قد خرجت تعاهد الله ألا تدخلها عليهم عَنْوة أبداً. وآيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك، فنال منه

---

(١) مهبط الحديبية.

(٢) خلأت الناقة حرنت وبركت بدون سبب.

(٣) بئر قرب مكة سميت الأرض باسمها.

أبو بكر وقال: نحن ننكشف عنه؟ ويحك! وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله، فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده إذا أراد ذلك، ثم رجع عروة وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا كادوا يقتتلون عليه يتمسَّحون به، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، ولا يحدّون النظر إليه، فقال: والله يا معشر قريش جئت كسرى في ملكه وقيصر في عظمته، فما رأيت ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه. ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فانظروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم فإني لكم ناصح، مع أني أخاف ألا تنصروا عليه. فقال قريش: لا تتكلم بهذا. ولكن نردّه عامنا ويرجع إلى قابل. ثم إنّ الرسول اختار عثمان بن عفان رسولاً من عنده إلى قريش حتى يعلمهم مقصده، فتوجه وتوجه معه عشرة استأذنوا الرسول في زيارة أقاربهم، وأمر عليه الصلاة والسلام عثمان أن يأتي المستضعفين من المؤمنين بمكة، فيبشرهم بقرب الفتح وأن الله مظهر دينه، فدخل عثمان مكة في جوار أبان بن سعيد الأموي فبلّغ ما حمل فقالوا: إنَّ محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً. ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت، فقال: لا أطوف ورسول الله ممنوع. ثم إنهم حبسوه، فشاع عند المسلمين أن عثمان قتل، فقال عليه الصلاة والسلام حينما سمع ذلك: «لا نبرح حتى نناجزهم الحرب».

بيعة الرضوان

ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك[1] (سميت بعد بشجرة الرضوان) على الموت، فشاع أمر هذه البيعة في قريش فداخلهم منها رعب عظيم، وكانوا قد أرسلوا خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر من المسلمين علهم يصيبون منهم غرة، فأسرهم حارس الجيش

---

(١) أمر عمر بقطعها زمن خلافته لما رأى تبرك الناس بها، فليتأمل.

محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم. ولما علمت بذلك قريش جاء جمع منهم وابتدؤوا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم اثنا عشر رجلاً، وقتل من المسلمين واحد.

صلح الحديبية

وعند ذلك خافت قريش وأرسلت سهيل بن عمرو للمكالمة في الصلح، فلما جاء قال: يا محمد إن الذي حصل ليس من رَأي عقلائنا بل شيء قام به السفهاء منا، فابعث إلينا بمن أسرت، فقال: حتى ترسلوا من عندكم، وعندئذ أرسلوا عثمان والعشرة الذين معه. ثم عرض سهيل الشروط التي تريدها قريش، وهي وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات من جاء المسلمين من قريش يردّونه، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون بردّه، أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام، ثم يأتي العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش، فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القراب والقوس. من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

فقبل عليه الصلاة والسلام كل هذه الشروط. أما المسلمون فداخلهم منها أمر عظيم وقالوا: سبحان الله! كيف نردّ اليهم من جاءنا مسلماً، ولا يردّون من جاءهم مرتداً؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم، فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً. أما الأمر الثالث وهو صدّ المسلمين عن الطواف بالبيت، فكان أشدّ تأثيراً في قلوبهم، لأن الرسول أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت آمنين، وقد سأل عمر أبا بكر في ذلك فقال رضي الله عنه: وهل ذكر أنه في هذا العام؟ ثم كتبت شروط الصلح بين الطرفين، وكان الكاتب عليّ بن أبي طالب فأملاه عليه الصلاة والسلام: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: اكتب باسمك اللهم، فأمره الرسول بذلك، ثم قال هذا ما صالح عليه محمد رسول الله.

فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك، اكتب محمد بن عبد الله، فأمر عليه الصلاة والسلام علياً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله فامتنع، فمحاها النبي بيده. وكتبت نسختان: نسخة لقريش ونسخة للمسلمين. وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جندل[1] بن سهيل يحجِل[2] في قيوده، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه، فقال عليه الصلاة والسلام: اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً فلا نغدر بهم. هذا، وقد دخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله ودخل بنو بكر في عهد قريش.

ولما انتهى الأمر أمر عليه السلام أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا الهَدْي ليتحللوا من عمرتهم، فاحتمل المسلمون من ذلك همّاً عظيماً، حتى إنهم لم يبادروا بالامتثال، فدخل عليه الصلاة والسلام على أمّ المؤمنين أمّ سلمة وقال لها: هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا، فقالت: يا رسول الله اعذرهم فقد حملت نفسك أمراً عظيماً في الصلح، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون، ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد، فإذا رأوك فعلت اتبعوك، فتقدم عليه الصلاة والسلام إلى هَدْيه فنحره، ودعا بالحلاق فحلق رأسه، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهَدْي فنحروه وحلقوا. ثم رجع المسلمون إلى المدينة وقد أمن كل فريق الآخر. ولما قرّ قرارهم جاءتهم مهاجرة أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت عثمان لأمه، فطلبها المشركون فقالت: يا رسول الله إني امرأة وإن رجعت اليهم فتنوني في ديني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ

---

(١) من المسلمين الأوائل، وكان ممن عذب كثيراً بسبب إسلامه شهد بدراً، واستشهد باليمامة.

(٢) الحجل بفتح الحاء وكسرها القيد. ويحجل في قيوده يمشي مشية الغلام على رجل واحدة أو على رجلين.

﴿يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

فكانت المرأة المهاجرةُ تُستحلف أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، ولا من بغض زوج، ولا لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين، وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله، ومتى حلفت لا تردّ بل يعطى لزوجها المشرك ما أنفقه عليها، ويجوز للمسلم تزوّجها. وفي الآية تحريم إمساك الزوجة الكافرة، بل تردّ إلى أهليها بعد أن يعطوا ما أنفقوا عليها. وقد تمكن أبو بصير، عتبة بن أسيد الثقفي رضي الله عنه، من الفرار إلى رسول الله، فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه، فأمره عليه الصلاة والسلام بالرجوع معهما، فقال: يا رسول الله أتردني إلى الكفار يفتنونني في ديني بعد أن خلصني الله منهم؟ فقال: إن الله جاعل لك ولإخوانك فرجاً، فلم يجد بداً من اتباعه فرجع مع صاحبيه. ولما قارب ذا الحُليفة عدا على أحدهما فقتله، وهرب منه الآخر، فرجع إلى المدينة وقال: يا رسول الله وفَتْ ذمتك أما أنا فنجوت، فقال له: اذهب حيث شئت ولا تُقم بالمدينة، فذهب إلى محل بطريق الشام تمرّ به تجارة قريش فأقام به، واجتمع معه جمع ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا، وسار إليه أبو جندل بن سهيل، واجتمع إليه جمع من الأعراب، وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الأمداد، فأرسل رجال قريش لرسول الله يستغيثون به في إبطال هذا الشرط ويعطونه الحق في إمساك من جاءه مسلماً، فقبل منهم ذلك، وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي لم يتمكنوا من تحملها في الحديبية حينما أمرهم عليه الصلاة والسلام بردّ أبي جندل، وعلموا أن رأي رسول الله أفضل وأحسن من رأيهم، حيث كان فيه أمن تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين، فخالطت بشاشة الإسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس

---

(١) الممتحنة ١٠.

قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد. وفي رجوعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح وقال سبحانه وتعالى في أولها: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[1] وفي تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديق لما قدمنا لك عن الصدّيق.

مكاتبة الملوك

بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر سنة ست وأمن الطريق من قريش، كاتب عليه الصلاة والسلام ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، واتخذ إذا ذاك خاتماً من فضة يختم به خطاباته، وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجه دحية الكلبي بكتاب إلى قيصر ملك الروم، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى الملك.

كتاب قيصر

وكان الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد بن عبد الله إلى هِرَقْل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[2] ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[3].

حديث أبي سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال: انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه

(١) سورة الفتح آية ١.
(٢) الفلاحين.
(٣) سورة آل عمران آية ٩٤.

وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة، فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب، ولما قدموا عليه في القدس قال لترجمانه: سلْهم أيُّهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا، لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره، فقال قيصر: ادن مني، ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من ردّ كذبه عليه إذا كذب، ثم سأله: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل تكلّم بهذا القول أحد منكم قبله؟ قال: لا. قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قال: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، قال: فهل يزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون، قال هل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه؟ قال: لا، قال: هل يغدر إذا عاهد؟ قال: لا، ونحن الآن منه في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: فهل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف حربكم وحربه؟ قال: الحرب بيننا وبينه سجال مرة لنا ومرة علينا. قال: فيمَ يأمركم؟ قال: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وينهى عما كان يعبد آباؤنا، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

فقال الملك: إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فزعمت أن لا، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتمّ بقول قيل قبله، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فقلت: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فقلت لا، فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلت: بل يزيدون،

وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل يرتدّ أحد منهم سخطة لـدينه؟ فقلت: لا، وكذلك الإيمـان حين تخالط بشـاشته القلوب، وسـألتك: هـل قاتلتموه؟ فقلت: نعم، وإن الحرب بينكم وبينه سجال، وكذلك الرسـل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: بماذا يأمر؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفـاف والوفاء بـالعهد وأداء الأمـانة، وسـألتك: هـل يغدر؟ فـذكرت أن لا، وكـذلك الرسل لا تغدر، فعلمت أنه نبي، وقد علمت أنه مبعوث، ولم أظن أنه فيكم، وإن كان ما كلمتني به حقاً فسيملك موضع قدمّي هاتين، ولو أعلم أني أخلص إليه لتكلفت ذلك. قال أبو سفيان: فعلَتْ أصوات الذين عنده وكثر لغَطُهم فلا أدري ما قالوا وأُمر بنا فأخرجنا، فلما خرج أبـو سفيان مـع أصحابـه قال: لقـد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر!

ولمـا سار قيصـر إلى حمص أذن لعظمـاء الروم في دسكـرة لـه ثم أمـر بأبوابها فأغلقت، ثم قال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبـايعـوا هـذا النبي؟ فحـاصـوا حَيْصـة حُمُـر الـوحـوش إلى الأبـواب فوجدوها مغلقة، فلمـا رأى قيصر نفـرتهم قال: ردُّوهم عليَّ، فقـال لهم: إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم فسكتوا له ورضـوا عنه، فغلبـه حب ملكه على الإسلام، فذهب بإثمه وإثم رعيته كمـا قال عليـه الصلاة والسـلام، ولكنه ردّ دحية ردّاً جميلاً.

كتاب أمير بصرى

وأرسل عليه الصـلاة والسلام الحـارث بن عمير الأزدي بكتـاب إلى أمير بصرى فلما بلغ مؤتة (وهي قرية من عمل البلقاء بالشام) تعرّض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال له: أين تريد؟ قال: الشام، قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، فأمر به فضربت عنقه. ولم يقتـل لرسـول الله عليه الصـلاة والسلام رسول غيره وقد وجَد لذلك وجْداً شديداً.

كتاب الحارث بن أبي شِمر

ووجَّه عليه السلام شجاعَ بن وهب إلى أمير دمشق من قبل هرقل الحارث بن أبي شِمر، وكان يقيم بغوطتها، وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شِمْر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدّق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك. فلما قرأ الكتاب رمى به، وقال: من ينزع ملكي مني؟ واستعد ليرسل جيشاً لحرب المسلمين، وقال لشجاع أخبر صاحبك بما ترى. ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك، وصادف أن كان عنده دِحْيَة فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيىء بإيليا ما يلزم لزيارته، فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها. فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة.

كتاب المقَوْقِس

ووجّه عليه الصلاة والسلام حاطب بن أبي بَلْتَعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر، وكان فيه (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى. أمّا بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة. إلخ الآية). فأوصله له حاطب بالإسكندرية، فلما قرأه قال: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال حاطب: ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله، فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه؟ قال: أحسنت! أنت حكيم جاء من عند حكيم. ثم قال: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضالّ ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة: إخراج الغائب المستور، والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

ثم كتب ردّ الجواب يقول فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم) لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك. أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي وكنت أظنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب، وأهديت إليك بغلة تركبها. والسلام) وإحدى الجاريتين مارية التي تسرَّى بها عليه الصلاة والسلام وجاء منها بولده إبراهيم، والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت. ولم يسلم المقوقس.

كتاب النَّجاشي

ووجَّه عليه الصلاة والسلام عمرو بن أمية الضمري بكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة، وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة. سلام أما بعد فإني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل. وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى).

ولما وصله الكتاب احترمه غاية الاحترام، وقال لعمرو: إني أعلم والله أن عيسى بشَّر به، ولكن أعواني بالحبشة قليل، فأنظرني حتى أكثر الأعوان وأُليِّن القلوب. وقد عرض عمرو على من بقي من مهاجري الحبشة الرجوع، إلى رسول الله بالمدينة، وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج عبيد الله بن جحش الذي كان أسلم وهاجر بها، ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصَّر، فتزوج عليه السلام أم حبيبة وهي بالحبشة، والذي زوّجها له النجاشي بتوكيل منه عليه الصلاة والسلام.

كتاب كسرى

ووجّه عليه الصلاة والسلام عبد الله بن حُذافة السَّهمي[1] بكتاب إلى كسرى ملك الفرس، وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) فلما وصله الكتاب مزَّقه استكباراً. ولما بلغه عليه الصلاة والسلام ذلك قال: «مزَّق الله ملكه كل مُمزَّق». وقد فعل، فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً. وقد بدأ هذا الشقي بالعدوان، فأرسل لعامله على اليمن أن يوجه إلى الرسول من يأتي به إليه، فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له، ثم أرسل لعامله باليمن ينهاه عما أمره به أبوه.

كتاب المنذر بن ساوَى

ووجّه عليه الصلاة والسلام العلاء بن الحضرمي بكتاب إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، يدعوه فيه إلى الإسلام وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم، له ذمة الله وذمة الرسول، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ومن أبى فإن عليه الجزية، فأَسْلَمَ. وكتب في ردّ الجواب: (أما بعد يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كره، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إليَّ في ذلك أمرك، فكتب إليه عليه الصلاة

---

(١) عبد الله بن حذافة السهمي واحد من الأبطال الذي دافعوا عن الإسلام بعزة ووفاء، وهو واحد من الستة الذين اختارهم رسول الله ﷺ ليحملوا كتبه إلى ملوك العرب والعجم. مات في خلافة عثمان.

والسلام (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى. سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفَّعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك، من أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية).

كتاب مَلِكي عُمان

ووجّه عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص بكتاب إلى جَيْفَر وعبد ابني الجُلَنْدي ملكي عُمان وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى جَيْفَر وعبد ابني الجُلَنْدي. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوكما بدعاية الإسلام. أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام ولَّيتكما وإن أبيْتما فإن ملككما زائل، وخيلي تحلُّ بساحتكما وتظهر نبوَّتي على ملككما).

فلما دخل بناديهما عمرو سأله عبد بن الجُلَندى عما يأمر به الرسول وينهى عنه، فقال: يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان والزنى وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب، فقال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخي أضنّ بملكه من أن يدعه ويصير تابعاً. قال عمرو: إن أسلم أخوك ملَّكه رسول الله على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم، فقال عبد: إن هذا لخلقٌ حسن. وما الصدقة؟ فأخبره بما فرض الله من الصدقات في الأموال، ولما ذكر

المواشي قال: يا عمرو ويؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى فيٰ الشجر وترد المياه؟ قال: نعم، فقال عبد: والله ما أرى قومي على بعد دارهم وكثرة عددهم يرضون بهذا. ثم إن عبداً أوصل عَمْراً لأخيه جَيْفَر فتكلم معه عمرو بما ألان قلبه حتى أسلم هو وأخوه ومكّناه من الصدقات.

كتاب هَوْذة بن علي

ووجّه عليه الصلاة والسلام سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هَوْذة بن علي ملك اليمامة وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هَوْذة بن علي: سلام على من اتبع الهدى. وأعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك) فلما جاء الكتاب كتب في رده: (ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر أتبعك). ولما بلغ ذلك رسول الله قال: لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت. بادَ وباد ما في يديه). فلم يلبث أن مات مُنصرف الرسول ﷺ من فتح مكة. وكان عليه الصلاة والسلام يولّي على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم.



غزوة خَيْبَر

وفي محرم السنة السابعة أمر عليه الصلاة والسلام بالتجهيز لغزو يهود خيبر الذين كانوا أعظم مهيج للأحزاب ضد رسول الله في غزوة الخندق، والذين لا يزالون مجتهدين في محالفة الأعراب ضد رسول الله، كما قدمنا ذلك في قصة كعب بن الأشرف، وقد استنفر رسول الله لذلك مَنْ حوله من الأعراب الذين كانوا معه بالحديبية، وجاء المخلَّفون عنها ليؤذن لهم، فقال عليه الصلاة والسلام: لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً. وأمر منادياً ينادي بذلك. ثم خرج عليه الصلاة والسلام بعد أن ولّى على المدينة سباع بن عُرْفُطة الغِفاري، وكان معه من أزواجه أم سلمة، ولما وصل جيش المسلمين إلى خيبر التي تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربي، رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء، فقال عليه الصلاة والسلام: «ارفقوا بأنفسكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم».

وكانت حصون خيبر ثلاثة منفصلاً بعضها عن بعض، وهي حصون النَّطَاة، وحصون الكثيبة، وحصون الشقّ. والأولى ثلاثة: حصن ناعم، وحصن الصعب. وحصن قلة. والثانية حصنان: حصن أبيّ، وحصن البريء. والثالثة ثلاثة حصون: حصن القَمُوص، وحصن الوَطِيح، وحصن السُّلالِم، فبدأ عليه الصلاة والسلام بحصون النَّطاة، وعسكر المسلمون شرقيها بعيداً عن مدى النبل، وأمر عليه الصلاة والسلام أن يقطع نخلهم ليرهبهم حتى يسلموا، فقطع المسلمون نحو أربعمائة نخلة. ولما رأى عليه الصلاة والسلام تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع، ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم بالمراماة،

وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين، فلم يصنع في ذلك اليوم شيئاً، وفيه مات محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة، وصار عليه الصلاة والسلام يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة، ويخلف على العسكر أحد المسلمين حتى إذا كانوا في الليلة السابعة ظفر حارس الجيش وهو عمر بن الخطاب، بيهودي خارج في جوف الليل، فأتى به رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولما أدرك الرجل الرعب قال: إن أمَّنتُموني أدلكم على أمر فيه نجاحكم. فقالوا دلَّنا فقد أمَّناك، فقال: إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى الحصن الشق وسيخرجون لقتالكم غداً، فإذا فتح عليكم هذا الحصن غداً، فإني أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات[1] ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون، فإنكم تنصبون المنجنيق، ويدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن فتفتحه من يومك. فقال عليه الصلاة والسلام لمحمد بن مسلمة: سأعطي الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه، فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنونها، حتى قال عمر بن الخطاب: ما تمنيت الإمارة إلا ليلتئذ، فلما كان الغد سأل عليه الصلاة والسلام عن عليّ بن أبي طالب فقيل له إنه أرمد، فأرسل من يأتيه به، ولما جاء تفَل في عينيه فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شيء، ثم أعطاه الراية، فتوجَّه مع المسلمين للقتال. وهناك وجدوا اليهود متجهزين، فخرج يهودي يطلب البراز فقتله علي، ثم خرج مَرْحَب وهو أشجع القوم فألحقه برفيقه، فخرج أخوه ياسر فقتله الزبير بن العوام، ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم، وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة، وانهزم الأعداء إلى الحصن الذي يليه، وهو حصن الصعب، وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الخبز والتمر، ثم تتبعوا اليهود إلى حصن الصعب فقاتل عنه اليهود قتالاً شديداً حتى رُدّ عنه المسلمون، ولكن ثبت الحُباب بن المنذر ومن معه، وقاتلوا قتالاً شديداً حتى هزموا اليهود، فتبعوهم حتى افتتحوا

---

(١) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبونها وهم في جوفها.

عليهم الحصن، فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام، فأمر عليه الصلاة والسلام منادياً يقول: كلوا واعلفوا دوابَّكم ولا تـأخذوا شيئـاً. ثم إن الذين انهـزموا من هذا الحصن ساروا إلى حصن قلة، فتبعهم المسلمون وحاصـروهم ثلاثـة أيام حتى استصعب عليهم فتحه، وفي اليوم الرابع دلهم يهودي على جداول المـاء التي يستقي منهـا اليهود فمنعـوها عنهم، فخـرجوا وقـاتلوا قتالاً شـديـداً انتهى بهـزيمتهم إلى حصون الشقّ، فتبعهم المسلمـون وبدؤوا بحصن أبيّ، فخـرج أهله، وقاتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه أبو دُجانة الأنصاري بلاءً حسنـاً حتى تمكن من دخول الحصن عَنْوة، ووجد المسلمون فيه أثاثاً كثيراً ومتاعاً وغنماً وطعاماً، وهـرب المنهـزمـون منـه إلى حصن البـريء فتمنعـوا بـه أشـد التمنـع، وكـان أهله أشد اليهود رمياً بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله بعض منه، فنصب المسلمون عليه المنجنيق فوقع في قلب أهله الرعب وهربوا منه من غير عناء شديد. فوجـد فيـه المسلمون أواني لليهـود من نحاس وفخـار، فقـال عليـه الصـلاة والسـلام: اغسلوهـا واطبخوا فيهـا. ثم تتبع المسلمـون بقايـا العدو إلى حصن الكتيبـة، وبدؤوا بحصن القَمُوص، فحاصروه عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد علي بن أبي طـالب، ومنـه سُبيت صفيـة بنت حُيَيّ بن أخـطب. ثم سـار المسلمـون لحصار حصني الوطيح والسُّلالم، فلم يقـاوم أهلها، بـل سلّموا طـالبين حقن دمائهم، وأن يخرجـوا من أرض خيبر بـذراريهم لا يصطحب الـواحد منهم إلا ثـوباً واحـداً على ظهره، فـأجابهم رسـول الله إلى ذلك، وغنم المسلمـون من هذين الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمـائة قـوس عربيـة ووجدوا صحفاً من التـوراة فسلّموهـا لطالبيهـا. وقد أمـر عليه الصـلاة والسلام بقتـل كنانـة بن الربيـع بن أبي الحُقيق، لأنه أنكـر حليّ حُيَيّ بن أبي أخطب، وقد عثر عليها المسلمون، فوجدوا فيها أساور ودمالج وخلاخيل وقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك.

هذا، والذين استشهـدوا من المسلمين بخيبر خمسـة عشر رجـلاً، وقتل من اليهود ثلاثـة وتسعون رجـلاً. وفي هذه الغـزوة أهدت إحـدى نساء اليهـود

كُراع[1] شاةٍ مسمومة لرسول الله، فأخذ منها مضغة ثم لفظها، حيث أُعلم أنها مسمومة. وأكل منها بشر بن البراء فمات لوقته، واحتجم رسول الله ﷺ، وجيء له بالمرأة التي فعلت هذه الفعلة، فسألها عن سبب ذلك، فأجابت: قلت إن كان نبياً لن يضرّه، وإن كان كاذباً أراحنا الله منه، فعفا عنها عليه الصلاة والسلام.

زواج صفية[2]

وبعد تمام الظفر والنصر، تزوج عليه الصلاة والسلام صفية بنت حُيَيّ سيد بني النضير وأصدقها عِتْقها، وقد أسلمت رضي الله عنها، فشرفت بأمومة المؤمنين.

النهي عن نكاح المتعة[3]

ونهى عليه الصلاة والسلام وهو بخيبر عن نكاح المتعة، وهي النكاح لأجل. وقد كان حلالاً في الجاهليةّ، واستعمل في بدء الإسلام حتى حرّمه الشرع في هذه السنة. ونهى كذلك أكل لحوم الحمُر الأهلية، فأكفأ المسلمون قدورها بعد أن نضجت ولم يطعموها.

رجوع مهاجري الحبشة

وحين رجوع المسلمين من خيبر، قدِم من الحبشة جعفر بن أبي طالب

---

(١) أقدام شاة.

(٢) من سبي خيبر أخذها النبي ﷺ وأعتقها وتزوجها، وكانت صفية سيدة فاضلة في قومها يؤخذ برأيها. توفيت سنة ٥٢ للهجرة.

(٣) ويسمى المؤقت وهو أن يعقد الرجل على امرأة أسبوعاً أو شهراً أو أقل أو أكثر، وهو زواج متفق على تحريمه بين أئمة المذاهب. وعن علي كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الأهلية.

ومعه الأشعريون: أبو موسى وقومه، بعد أن أقاموا فيها نحواً من عشر سنين آمنين مطمئنين، وفرح عليه الصلاة والسلام بمقدِمهم فرحاً عظيماً، وأعطى للأشعريين من غنائم الحصون المفتوحة صلحاً. وكان مع جعفر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين. وقدم في هذا الوقت على النبي عليه الصلاة والسلام الدَّوْسيُّون إخوان أبي هريرة رضي الله عنه وهو معهم، فأعطاهم أيضاً رسول الله ﷺ.

فتح فَدَك

وبعد تمام الفتح أرسل عليه الصلاة والسلام من يطلب من يهود فَدَك[1] الانقياد والطاعة، فصالحوا رسول الله على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال، وكانت أرض فدك هذه لرسول الله خاصة ينفق منها على نفسه، ويعول منها صغير بني هاشم ويزوج منها أيِّمهم.

صلح تَيْماء

ولما بلغ يهودَ تَيْماء[2] ما فعله المسلمون بيهود خيبر، صالحوا على دفع الجزية ومكثوا في بلادهم آمنين مطمئنين.

فتح وادي القُرى

ثم دعا عليه الصلاة والسلام يهود وادي القرى إلى الاستسلام، فأبوا وقاتلوا، فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم أحد عشر رجلاً، وغنموا منهم مغانم كثيرة خمَّسها عليه الصلاة والسلام، وترك الأرض في أيدي أهلها يزرعونها

---

(١) حصن قريب من خيبر على ست ليال من المدينة.

(٢) قرية على ثمان مراحل من المدينة.

بشـطر ما يُخـرجون منهـا، وكذلـك صنـع بـأرض خيبـر، وكـان يـرسـل اليهم عبد الله بن رواحة لتقدير الثمر، وكان تقديره شديداً عليهم، فـأرادوا أن يرشـوه فقـال لهم: يا أعـداء الله تعطوني السُّحت[1]؟ والله لقـد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على ألا أعدل. هـذا، وبانقيـاد جميع اليهـود المجاورين للمدينـة ارتاح المسلمون من شر عدو كان يتربص بهم الدوائر، مهما كـان بين الفريقين من العهود والمواثيق، ورجع المسلمون مؤيدين ظافرين.

إسلام خالد ورفيقيه

وأعقب هذه الغزوة وهذا الفتح المبين إسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليـد الـطولى في قيـادة الجيـوش لحـرب المسلمين، وهم: خـالـد بن الـوليـد المخـزومي، وعمرو بن العـاص السهمي، وعثمـان بن أبي طلحـة العبـدري، فسرَّ بهم عليه الصـلاة والسلام سـروراً عظيمـاً وقال لخـالد: الحمـد لله الذي هـداك، قد كنت أرى لـك عقلاً رجـوت ألا يسلمك إلا إلى خيـر، فقـال: يـا رسول الله ادعُ لي الله أن يغفر تلك المواطن التي كنت أشهدهـا عليك، فقـال عليه الصلاة والسلام: «الإسلام يقطع ما قبله».

سرية

وفي شعبـان بلغه عليـه الصلاة والسـلام أن جمعاً من هـوازن بتـربـة[2] يظهرون العداوة للمسلمين، فأرسـل لهم عمر بن الخـطاب في ثلاثين رجـلاً، فسار إليهم. ولما بلغهم الخبر تفرقوا فلم يجد عمر واحداً فرجع.

---

(١) الحرام.

(٢) وادٍ بالقرب من مكة على مسافة يومين منها.

سرية

ثم أرسل بشير بن سعد الأنصاري لقتال بني مرَّة بناحية فَدَك، فلما ورد بلادهم لم ير منهم أحداً، فأخذ نعمهم وذهب بها إلى المدينة. أما القوم فكانوا في الوادي فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيراً ليلاً وهو راجع فترامَوْا بالنبل، ولما أصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالاً شديداً، حتى قتل غالب المسلمين وجرح بشير جرحاً شديداً حتى ظن أنه مات، ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء إلى رسول الله وأخبره الخبر.

وفي رمضان أرسل عليه الصلاة والسلام غالب بن عبيد الله الليثي إلى أهل الميفَعَة[1] في مائة وثلاثين رجلاً، فساروا حتى هجموا على القوم، فقتلوا بعضاً وأسروا آخرين، وفي أثناء الحرب طارد أسامة بن زيد رجلاً من المشركين، ولما رأى المشرك الموت في يد أسامة تشهَّد، فظن أُسامة أن عدوه إنما قال ذلك تخلصاً فقتله. ولما رجع المسلمون إلى المدينة وأخبر رسول الله بفعلة أسامة قال: أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله، فكيف تصنع بلا إله إلا الله؟! قال: يا رسول الله إنما قالها متعوِّذاً من القتل، قال عليه الصلاة والسلام: فهلّا شققْت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟! فقال: يا رسول الله، استغفر لي. قال عليه الصلاة والسلام: فكيف بلا إله إلا الله؟! فما زال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم، وأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾[2]. ثم أمر عليه السلام أسامة أن يعتق رقبة كفّارة لأنه قتل خطأ.

سرية

وفي شوال بلغه عليه الصلاة والسلام أن عُيَيْنة بن حصن واعد جماعة

---

(١) على ثمانية بُرُد من المدينة بناحية نجد.

(٢) سورة النساء آية ٩٤.

من غَطَفان كانوا مقيمين قريباً من خيبر بأرض اسمها يَمْن وجَبَار للإغارة على المدينة، فأرسل لهم بشير بن سعد في ثلثمائة رجل، فساروا إليهم يكمنون النهار ويسيرون الليل، حتى أتوا محلتهم فأصابوا نعماً كثيرة، وتفرق الرِّعاء فأخبروا قومهم ففزعوا ولحقوا بعُلْيا بلادهم، ولم يظفر المسلمون إلا برجلين أسلما ثم رجعوا بالغنائم إلى المدينة.

عمرة القضاء

لما حال الحَول على عمرة الحديبية، خرج عليه الصلاة والسلام بمن صدّ معه فيها ليقضي عمرته، واستخلف على المدينة أبا ذرّ الغفاري. وساق معه الهَدْي ستين بدَنة، وأخرج معه السلاح حذراً من غدر قريش، وكان معه مائة فرس عليها بشير بن سعد. وأحرم عليه الصلاة والسلام من باب المسجد المدني، ولما انتهى إلى ذي الحُليفة قدَّم الخيل أمامه فقيل: يا رسول الله، حملت السلاح، وقد شرطوا ألا تحمله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لا ندخل الحرم به ولكن يكون قريباً منا، فإنِ هاجنا هائج فزعنا له. فلما كان بمرِّ الظَّهْران قابله نفر من قريش، ففزعوا من هذه العدَّة، وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم، فجاءه فتيان منهم وقالوا: والله يا محمد ما عرفت بالغدر صغيراً ولا كبيراً، وإنا لم نحدث حدثاً!! فقال: إنا لا ندخل الحرم بالسلاح. ولما حان وقت دخوله مكة، خرج أهلوها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت، فدخل عليه الصلاة والسلام وأصحابه متوشّحين سيوفهم من ثنيَّة كداء[1] وأمامه عبد الله بن رواحة يقول: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، وطاف عليه الصلاة والسلام بالبيت وهو على راحلته واستلم الحجر بمحْجَنه، وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهاراً للقوة؛ لأن المشركين قالوا: سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حُمّى يثرب،

---

(١) اسم موضع قرب جدة.

فقال عليه الصلاة والسلام: رحم الله امرءاً أراهم من نفسه قوة، واضطبع عليه الصلاة والسلام بردائه وكشف عضده اليمنى شأن الفتوة وفعل مثله المسلمون. وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين كما رأى عليه الصلاة والسلام في منامه.

زواج ميمونة

وتزوج ﷺ وهو بمكة ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد أحد، وخالة عبد الله بن العباس، وهي آخر نسائه زواجاً، ولم يدخل بها إلا بعد الخروج من مكة، حيث كان بِسَرف[1]، ولما خرج عليه الصلاة والسلام أمر الذين كان تركهم لحراسة الخيل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فرحاً مسروراً بما حباه الله من تصديق رؤياه.

---

(١) موضع قرب التنعيم.



سرية

وفي صفر أرسل عليه الصلاة والسلام غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوِّح، وهم قوم من العرب يسكنون بالكديد،(١)، فسار القوم حتى إذا كانوا بقُدَيد التقوا بالحارث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء، وكان خصماً لدوداً فأسروه، فقال لهم: ما جئت إلا للإسلام. فقالوا له: إن تكن مسلماً لن يضرك رباط ليلة وإلا استوثقنا منك، ثم ساروا حتى وصلوا محلة بني الملوّح فاستاقوا النعَم والشاء، وخرج الصريخ إلى القوم فجاءهم ما لا قبل لهم به، ولكن منّ الله على المسلمين فأرسل سيلاً شديداً حال بينهم وبين عدوهم، حتى صار المشركون يرونْ نعمهم تساق وهم لا يقدرون على ردّها.

سرية

ولما رجع غالب إلى المدينة ظافراً أرسله عليه الصلاة والسلام في مائتي رجل ليقتصَّ من بني مرّة بفَدك، وهم الذين أصابوا سرية بشير بن سعد، فساروا حتى إذا كانوا قريباً من القوم خطب غالب فيمن معه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً، فإنه لا رأي لمن لا يطاع) ثم آخى بين الجند فقال: يا فلان أنت وفلان، ويا فلان أنت وفلان، لا يفارق أحد منكم زميله. وإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له: أين صاحبك؟ فيقول: لا أدري، فإذا كبَّرت فكبِّروا، فلما أحاطوا بالعدو وكبَّر كبَّروا وجرَّدوا السيوف فلم يفلت من عدوهم أحد، واستاقوا نعمهم، فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبعرة.

---

(١) موضع بين عُسْفان وقديد.

سرية

وفي ربيع الأول أرسل عليه الصلاة والسلام كعب بن عُمير الغفاري إلى ذات أطلاح من أرض الشام في خمسة عشر رجلاً، فوجدوا جمعاً كثيراً، فدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا وقاتلوا وكانوا أكثر عدداً، فاستشهد المسلمون عن آخرهم إلا رئيسهم كعب بن عُمير فإنه نجا وأتى بالخبر إلى رسول الله فشقَّ عليه، وأراد أن يبعث إليهم من يقتص منهم، فبلغه أنهم تحولوا من منزلهم فعدل عن ذلك.

غزوة مُؤْتة

جهَّز عليه الصلاة والسلام في جمادى الأولى جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عُمير الأزدي رسوله إلى أمير بُصرى، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة وقال لهم: إن أُصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة. وكانت عدة الجيش ثلاثة آلاف، فساروا وشيعهم عليه الصلاة والسلام، وكان فيما وصاهم به: «اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً». ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا مؤتة[1] مقتل الحارث بن عمير، وهناك وجدوا الروم قد جمعوا لهم جمعاً عظيماً، منهم ومن العرب المتنصِّرة. فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه: أيرسلون لرسول الله يطلبون منه مدداً أم يقدمون على الحرب؟ فقال عبد الله بن رواحة: يا قوم والله إن الذي تكرهون هو ما خرجتم له، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل بعدد ولا بقوة ولا بكثرة، ما نقاتل إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فإنما هي إحدى الحسنَيين إما الظهور وإما الشهادة، فقال الناس: صدق والله بن رواحة، ومضوا للقتال فلقوا

---

(١) قرية قريبة من الكرك وهي مشارف الشام.

هذه الجموع المتكاثرة، فقاتل زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى استشهد، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب وهو يقول:

يا حبَّذا الجنةُ واقترابُها طيبةٌ وباردٌ شرابُها
والرومُ رومٌ قد دنا عذابُها كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها

عليَّ إذ لاقيْتُها ضرابها

ولم يزل يقاتل حتى استشهد رضي الله عنه، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم ثم تردد بعض التردد، فقال يخاطب نفسه:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنَّهْ طائعة أو لتكرهنَّهْ
إن أجلب الناس وشدُّوا الرَّنه مالي أراك تكرهين الجنَّهْ!
قد طالما كنتِ مطمئنَّه هل أنت إلا نُطفة في شَنَّهْ؟

ثم اقتحم بفرسه المعمعة، ولم يزل يقاتل رضي الله عنه حتى استشهد، فهم بعض المسلمين بالرجوع إلى الوراء، فقال لهم عقبة بن عامر[1] يا قوم: يقتل الإنسان مقبلاً خير من أن يقتل مدبراً، فتراجعوا واتفقوا على تأمير الشهم الباسل خالد بن الوليد، وبهمّته ومهارته الحربية حمى هذا الجيش من الضياع، إذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفاً؟ فإنه لما أخذ الراية قاتل يومه قتالاً شديداً، وفي غده خالف ترتيب العسكر، فجعل الساقة مقدمة، والمقدمة ساقة، والميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة، فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين فرعبوا. ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع الوراء حتى انحاز إلى مؤتة، ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام، ثم تحاجز الفريقان، لأن الكفار ظنوا أن الأمداد تتوالى للمسلمين، وخافوا أن يجروهم إلى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص، وبذلك انقطع القتال. وقد نعى النبي ﷺ زيداً

---

(١) كان محدثاً فقيهاً مقرئاً شهد مع رسول الله ﷺ أحداً وما بعدها من المغازي، وكان أحد قادة جيوش المسلمين التي فتحت مصر. دفن في سفح جبل المقطم في القاهرة.

وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، وكان عينا رسول الله تذرفان، ثم قال: حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم. وجاءه رجل فقال: يا رسول الله إن نساء جعفر يبكين، فأمره أن ينهاهنّ، فذهب الرجل ثم أتى فقال: قد نهيتهن فلم يُطِعن! فأمره فذهب ثانياً، ثم جاء فقال: والله لقد غلبْننا، فقال عليه الصلاة والسلام: أحث في أفواههن التراب، ولما أقبل الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم يا فُرّار، فقال عليه الصلاة والسلام بل هم الكُرار! ظنّ المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش هزيمة، ولكن رسول الله ﷺ أراهم أن ذلك من مكايد الحرب وأثنى على خالد في مهارته.

سرية

وفي جمادى الآخرة بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من قضاعة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القُرى، ليغيروا على المدينة، فأرسل لهم عمرو بن العاص في ثلاثمائة رجل من سَراة المهاجرين، ثم أمده بأبي عبيدة بن الجراح في مائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر،- فلحقوا عَمْراً قبل أن يصل إلى القوم. وقد أراد رجال من الجيش إيقاد نار فمنعهم عمرو، فأنكر عليه عمر بن الخطاب فقال أبو بكر: إنما بعثه رسول الله علينا رئيساً لمعرفته بالحرب أكثر منا فلا تعصه، فامتثل. ولما حلوا بساحة القوم حملوا عليهم، فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين، فجمعوا غنائمهم وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم، ثم رجعوا إلى المدينة ظافرين، وبينا هم في الطريق أدركت عمرو بن العاص جنابة في ليلة باردة فلما أصبح قال: إن أنا اغتسلت هلكت والله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1] ثم تيمَّم وصلّى، ثم أمر بالسير حتى إذا وصلوا المدينة، قام رسول الله عليه الصلاة

(١) سورة البقرة آية ١٩٥.

والسلام يسأل عن أنباء سفرهم كما هي عادته، فأخبروه بما نقموه من عمرو بن العاص، من نهيهم عن إيقاد النار، ونهيهم عن اتباع العدو وصلاته جُنُباً، فسأله عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال: منعتهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قلَّتهم فيطمع فيهم، ونهيتهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين، وصلَّيت جنباً لأن الله يقول: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[1] وإن أنا اغتسلت هلكت فتبسم عليه الصلاة والسلام وأثنى على عمرو خيراً.

سرية

وفي رجب أرسل عليه الصلاة والسلام أبا عبيد عامر بن الجراح في ثلاثمائة فارس لغزو قبيلة جُهينة التي تسكن ساحل البحر، وزوّد عليه الصلاة والسلام هذا الجيش جراباً من التمر. فساروا حتى إذا وصلوا الساحل أقاموا فيه نحو نصف شهر ينتظرون العدو، وقد فني زادهم حتى أكلوا الخَبَط (وهو ورق السَّمُر) يبلونه بالماء ويأكلونه، إلى أن تقرحت أشداقهم. وكان في القوم الكريم ابن الكريم قيس بن سعد بن عبادة فنحر لهم ثلاث جزر في كل يوم جزور. وفي اليوم الرابع أراد أن ينحر فنهاه رئيسه أبو عبيدة لأن قيساً كان أخذ تلك الجزر بدين على أبيه، فخاف أبو عبيدة ألا يفي له أبوه بما استدان، فقال قيس: أترى سعداً يقضي ديون الناس ويطعم في المجاعة، ولا يقضي ديناً استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله؟! ولما يئسوا من لقاء عدوهم رجعوا إلى المدينة، فقال قيس بن سعد لأبيه: كنت في الجيش فجاعوا. قال: انحر، قال: نحرت. قال: ثم جاعوا؟ قال: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا؟ قال: انحر. قال نُهيت.

غزوة الفتح الأعظم

إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه وأزال موانعه، فقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم أنه لا تذل العرب حتى تذل قريش، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة؛

---

(١) سورة البقرة، آية ١٩٥.

فكان يتشوق لفتحها، ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التي أعطاها قريشاً في الحديبية وهو سيد من وفى. ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه، فقد علمت أن قبيلة خُزاعة دخلت في عهد رسول الله، وقبيلة بكر دخلت في عهد قريش، وكان بين خزاعة وبكر دماء في الجاهلية كمنت نارها بظهور الإسلام، فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء رسول الله ﷺ، على مسمع من رجل خزاعي، فقام هذا وضربه فحرّك ذلك كامن الأحقاد، وتذكر بنو بكر ثأرهم فشدّوا العزيمة لحرب خصومهم، واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سراً بالعدة والرجال، ثم توجهوا إلى خزاعة وهم آمنون، فقتلوا منهم ما يربو على العشرين، ولما رأى ذلك حلفاء السيد الأمين أرسلوا منهم وفداً برياسة عمرو بن سالم الخزاعي ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش فلما حلّوا بين يديه وأخبروه الخبر قال: والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه. أما قريش فإنهم لما رأوا أن ما عملوه نقض للعهود التي أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا، وأرادوا مداواة هذا الجرح، فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليشدّ العقد ويزيد في المدة، فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد، حتى إذا جاء المدينة نزل على أم المؤمنين أم حبيبة بنته، وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه، فقال: يا بنيّة أرغبت به عني أم رغبت بي عنه؟ فقالت ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس، فقال: لقد أصابك بعدي شرّ. ثم خرج من عندها وأتى النبي في المسجد، وعرض عليه ما جاء له، فقال له عليه الصلاة والسلام: هل كان من حَدَث؟ قال: لا، فقال عليه الصلاة والسلام فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد عن ذلك. فقام أبو سفيان ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش لعلّهم يساعدونه على مقصده، فلم يجد منهم مُعيناً وكلهم قالوا: جوارنا في جوار رسول الله، فرجع الى قومه ولم يصنع شيئاً، فأتهموه أنه خانهم واتبع الإسلام، فتنسّك عند الأوثان لينفي عن نفسه هذه التهمة.

أما رسول الله ﷺ فتجهز للسفر، وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصدّيق بالوجهة فقال له: يا رسول الله أو ليس بينك وبين قريش عهد؟ قال: نعم،

ولكن غدروا ونقضوا، ثم استنفر عليه الصلاة والسلام الأعراب الذين حول المدينة وقال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجُهينة، وطوى عليه الصلاة والسلام الأخبار عن الجيش، كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب، والرسول عليه الصلاة والسلام لا يريد أن يقيم حرباً بمكة، بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها. فدعا مولاه جل ذكره وقال: «اللهم خُذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبْغتها في بلادها» فقام حاطب بن أبي بلتعة أحد الذين شهدوا بدراً، وكتب كتاباً لقريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على جُعْلٍ فأعلم الله رسوله ذلك، فأرسل في أثرها علياً والزبير والمقداد وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها. فانطلقوا حتى أتوا الروضة فوجدوا بها المرأة فقالوا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب! قالوا: لتخرِجنّ الكتاب أو لنلقين الثياب! فأخرجته من عِقاصِها، فأتوا به رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجلْ عليّ، إني كنت حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاءً بالكفر بعد الإسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: أما إنه قد صدقكم، فقال عمر، دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله أطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1]. ثم سار عليه الصلاة والسلام بهذا

(١) الممتحنة ١

الجيش العظيم في منتصف رمضان ، بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم ، وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ، ولما وصل الأبواء ، لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه وهما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر ، وصهره عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة وشقيق زوجه أم سلمة ، وكانا يريدان الإسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما شديد الفرح وقال : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (١) . ولما وصل عليه الصلاة والسلام الكديد رأى أن الصوم شق على المسلمين فأمرهم بالفطر وأفطر هو أيضاً ، وقد قابل عليه الصلاة والسلام في الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله ، فأمره أن يعود معه الى مكة ويرسل عياله الى المدينة . ولما وصل عليه الصلاة والسلام مرَّ الظهران أمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، وكانت قريش قد بلغهم أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدري وجهته ، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله . فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرَّ الظهران ، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ! فقال أبو سفيان : ما هذه لكأنها نيران عرفه ! فقال بديل بن ورقاء : نيران بني عمرو ، فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله ، فأسلم أبو سفيان ، فلما سار قال للعباس : احبس أبا سفيان عند خَطْم الجبل ، حتى ينظر إلى المسلمين ، فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان ، وهو يسأل عنها ويقول : مالي ولها ، حتى إذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عبادة فقال سعد : يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة ، فقال أبو سفيان : يا عباس حبذا يوم الذمار ، ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيها رسول الله ﷺ وأصحابه ، وحامل الراية الزبير بن العوام ، فأخبر أبو سفيان رسول الله ﷺ بمقالة سعد ، فقال عليه السلام : كذب

---

(١) سورة يوسف آية ٩٢ .

سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة. ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن تركز رايته بالحجون[1] وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كدي[2]، ودخل هو من أعلاها من كداء ونادى مناديه: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وهذه أعظم منة له. واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الإسلام وأهله عظيم الأذى، فأهدر دمهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة. منهم عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح الذي أسلم وكتب لرسول الله الوحي، ثم ارتد وافترى الكذب على الأمين المأمون فكان يقول: إن محمداً كان يأمرني أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم، فيقول كل جيد! ومنهم عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وهبار بن الأسود، والحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية، وكعب بن زهير، ووحشي قاتل حمزة، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وقليل غيرهم، ونهى عن قتل واحد سوى هؤلاء إلا من قاتل، فأما جيش خالد بن الوليد فقابله الذعر من قريش يريدون صدّه، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين، وقتل من جيشه اثنان ودخلها عَنْوة من هذه الجهة، وأما جيش رسول الله ﷺ فلم يصادف مانعاً، وهو عليه الصلاة والسلام راكب راحلته منحن على الرحل تواضعاً لله وشكراً له على هذه النعمة حتى تكاد جبهته تمسُّ الرحل، وأسامة بن زيد رديفه، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان، حتى وصل إلى الحجون موضع رايته، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة فاستراح قليلاً، ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ الفتح حتى بلغ البيت، وطاف سبعاً على راحلته، واستلم الحجر بمحجنه، وكان حول الكعبة إذ ذاك ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل عليه السلام يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جاءَ الحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ﴾، وَمَا يُبْدِئُ الباطِلُ وما يُعِيدُ . ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت وفيها صورة إسماعيل

---

(١) جبل بمعلاة مكة.

(٢) كدي كقوي جبل مسفلة مكة على طريق اليمن، وكداء كسحاب جبل بأعلى مكة.

وإبـراهيم في أيديهمـا الأزلام، فقال عليـه الصلاة والسـلام: قـاتلهم الله لقـد علمـوا مـا استقسمـا بهـا قط!! وهـذا أول يـوم طهّـرت فيـه الكعبـة من هـذه المعبـودات الباطلة، وبـطهارة الكعبـة المقـدسـة عنـد جميـع العـرب بـاديهـا وحاضرها من هذه الأدناس، سقطت عبادة الأوثان من جميـع بلاد العـرب إلا قليلاً، ويوشك أن نذكر للقارىء اختفاء آثارها ومحو عبادتها بالكلية.

العفو عند المقدرة

ثم إن النبي ﷺ دخـل الكعبـة وكبّـر في نـواحيهـا، ثم خـرج الى مقـام إبـراهيم وصلى فيه، ثـم شـرب من زمزم وجلس في المسجـد والنـاس حـولـه والعيـون شاخصـة اليه، ينتـظرون ما هـو فاعـل بمشركي قـريش الـذين آذوه وأخرجوه من بلاده وقاتلوه، ولكن هنا تظهر مكارم الأخـلاق التي يلزم أن يتعلم منها المسلم، أن يكون رضـاه وغضبه لله لا لهـوى النفس، فقال عليـه الصلاة والسلام: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كـريم وابن أخ كريم، فقال عليه الصلاة والسلام: اذهبوا فأنتم الطُّلقاء، ويرحـم الله الإمام البوصيري حيث قال:

وإذا كـان الـقـطْعُ والـوصـلُ لله ... تـسـاوى الـتـقـريـب والإقـصـاءُ
وسـواءٌ عـلـيـه فـيـمـا أتـاه ... مـن سـرّه الـمـلام والإطـراءُ
ولـو أن انـتـقـامـه لـهـوى الـنـفـ ... ـس لـدامـتْ قـطـيعـة وجـفـاءُ
قـام للهِ فـي الأمُـور فـأرضـى الله ... مـنـه تـبـايـنٌ ووفـاءُ
فـعله كلُّه جـمـيـلٌ وهـل يـنـضـ ... ـحُ إلا بـمـا حـوَاه الإنـاءُ

ثم خـطب ﷺ خطبـة أبان فيهـا كثيراً من الأحكـام الإسلاميـة، منها ألا يُقتل مسلم بكافـر، وألا يتوارث أهـل ملّتين مختلفتين، ولا تنكح المـرأة على عمتهـا أو خالتهـا، والبيّنـة على من ادّعى واليمين على من أنكـر، ولا تسـافـر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم، ولا صلاة بعـد الصبح والعصـر، ولا يصـام يوم الأضحى ويـوم الفطر. ثم قـام: يا معشـر قـريش إن الله قـد أذهب

عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء، والناس من آدم وآدم من تـراب. ثم تلا هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1]. ثم شرع النـاس يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام، وممن أسلم في هذا اليوم معاوية بن أبي سفيان وأبو قُحافة والد الصدِّيق، وقد فرح الرسول كثيراً بإسلامه. وجـاء رجل يرتعد خوفاً، فقال له عليـه الصلاة والسـلام: «هوِّن عليـك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

أمـا الذين أهـدر رسول الله دمهم فقـد ضـاقت عليهم الأرض بمـا رحبت، فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب فقتل، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم. فعبد الله بن سعـد بن أبي سرْح لجـأ إلى أخيه من الـرضاع عثمـان بن عفان، وطلب منه أن يستأمن له رسول الله، فغيَّبه عثمان حتى هدأ النـاس، ثم أتى بـه النبي وقال: يـا رسول الله قـد أمّنته فبـايعه فـأعرض عنـه عليه الصـلاة والسلام مراراً ثم بايعه، فلما خرج عثمان وعبد الله قال عليه الصـلاة والسلام: أعرضت عنه ليقوم إليه أحدكم فيضرب عنقه، فقالوا: هلاّ أشرت إلينا؟ فقال: لا ينبغي لنبيٍّ أن تكون له خائنة الأعين.

وأمـا عكرمـة بن أبي جهل فهـرب فخرجت وراءه زوجتـه وبنت عمـه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وكانت قد أسلمت قبل الفتح، وقـد أخذت لـه أماناً من رسول الله فلحقته، وقد أراد أن يركب البحر، فقالت: جئتك من عند أبرّ الناس وخيـرهم لا تهلك نفسك، وإني قـد استأمنتـه لك فـرجع، ولمـا رآه عليـه الصلاة والسـلام وثب قائمـاً فرحـاً به وقـال: مرحبـاً بمن جاءنـا مهاجـراً مسلماً. ثم أسلم رضي الله عنه، وطلب من رسول الله أن يستغفر له كل عداوة عـاداه إياهـا فاستغفـر له، وكـان رضي الله عنه بعـد ذلك من خيـرة المسلمين وأغيـرهم على الإسـلام. وأمـا هبّـار بن الأسـود فهـرب واختفى حتى إذا كـان

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

رسول الله بالجِعِرّانة[1] جاءه مسلماً وقال: يا رسول الله هربت منك وأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل، فقال عليه الصلاة والسلام: قد عفوت عنك..

وأما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية المخزومي، فأجارتهما أم هانىء بنت أبي طالب، فأجاز عليه الصلاة والسلام جوارها، ولما قابل رسول الله الحارث بن هشام مسلماً قال: الحمد لله الذي هداك ما كان مثلك يجهل الإسلام وقد كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة.

وأما صفوان بن أمية فاختفى وأراد أن يذهب ويلقي نفسه في البحر، فجاء ابن عمه عُمير بن وهب الجُمحي وقال: يا نبي الله إن صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه في البحر فأمّنه فإنك قد أمّنت الأحمر والأسود، فقال عليه الصلاة والسلام: أدرك ابن عمك فهو آمن. فقال أعطني علامة فأعطاه عِمامته فأخذها عمير حتى إذا لقي صفوان، قال له: فداك أبي وأمي، جئتك من عند أفضل الناس وخير الناس، وهو ابن عمك وعزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك، قال صفوان: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، وأراه العِمامة علامة الأمان، فرجع الى رسول الله وقال له: إن هذا يزعم أنك أمنتني؟ قال: صدق، قال: أمهلني بالخيار شهرين، قال: أربعة أشهر، ثم أسلم رضي الله عنه وحسن إسلامه.

وأما هند بنت عتبة فاختفت ثم أسلمت، وجاءت الى رسول الله فرحّب بها وقالت له: والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباءٍ أحبّ إليّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحبّ إليّ أن يعزوا من أهل خبائك.

---

(١) موضع بين مكة والطائف، وبعضهم يضبطه بسكون العين وفتح الراء مخففة.

وفود كعب بن زهير

وأما كعب بن زهير فلما ضاقت به الأرض ولم يجد له مجيراً، جاء المدينة بعد أن قدمها رسول الله من مكة، فأسلم وأنشد قصيدته التي يقول فيها:

وقال كلُّ صديقٍ كنتُ آمله ... ألهينَّك إني عنك مشغولُ
فقلت خلّو سبيلي لا أبا لكمُ ... فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولُ
كلُّ ابن أُنثى وإن طالت سلامتُه ... يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ
نُبِّئتُ أن رسولَ الله أوعدَني ... والعفوُ عندَ رسولِ الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلةَ الـ ... ـقرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ

وقال فيها مادحاً:

إن الرسول لسيفٌ يُستضاءُ به ... مهنَّدٌ من سيوف الله مسْلولُ

ولما قال هذا البيت خلع عليه الرسول بُردته.

وأما وحشي قاتل حمزة، فكذلك أسلم وحسن إسلامه وقبله عليه الصلاة والسلام. وقد جاءه ابنا أبي لهب عتبة ومعتب، فأسلما وفرح بهما عليه الصلاة والسلام.

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو، فاستأمن له ابنه عبد الله فأمَّنه عليه الصلاة والسلام وقال: إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام، فلما بلغت هذه المقالة سهيلاً قال: كان والله برّاً صغيراً برّاً كبيراً، ثم أسلم بعد ذلك.

بيعة النساء

هذا، ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء، وكن يبايعن على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه

بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين الرسول في معروف، ثم أمر عليه الصلاة والسلام بلالاً بأن يؤذن على ظهر الكعبة، وهذا بدء ظهور الإسلام على ظهر البيت الكريم، فلا عجب أن اتخذ المسلمون هذا اليوم عيداً، يحمدون فيه الله حق حمده على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم.

وأقام عليه الصلاة والسلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة، وولّى عليها عتّاب بن أسيد، وجعل رزقه كل يوماً درهماً. فكان عتّاب رضي الله عنه يقول: لا أشبع الله بطناً جاع على درهم كل يوم.

هدم العُزّى

وفي الخامس من مقامه عليه الصلاة والسلام بمكة، أرسل خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم هيكل العزّى وهي أكبر صنم لقريش، وكان هيكلها ببطن نخلة، فتوجه إليها خالد وهدمها.

هدم سُوَاع

وأرسل عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص لهدم سُوَاع، وهو أعظم صنم لهذيل، وهيكله على ثلاثة أميال من مكة، فذهب إليه وهدمه.

هدم مناة

وبعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة، وهي صنم لكلب وخزاعة، وهيكلها بالمشلّل وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد، فتوجهوا إليها وهدموها.

غزوة حنين[1]

بهذا الفتح العظيم وسقوط دولة الأوثان، دانت للإسلام جموع العرب

(١) حنين وادٍ قرب الطائف وسميت باسم هوازن اسم القبيلة التي قاتلت رسول الله ﷺ وقعت هذه الغزوة مساء ليلة الثلاثاء العاشر من شوال السنة الثامنة للهجرة.

ودخلوا فيه أفواجاً، أما قبيلتا هوازن وثقيف، فأدركتهما حمية الجاهلية، واجتمع الأشراف منهم للشورى وقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه ولا ناهية له عنا، فلنغْزه قبل أن يغزونا، فأجمعوا أمرهم على ذلك وولَّوا رياستهم مالك بن عوف النصْري، فاجتمع له من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر الذين كان رسول الله مسترضعاً فيهم، وكان في القوم دريد بن الصِّمَّة المشهور بأصالة الرأي وشدة البأس في الحرب، ولتقدم سنّه لم يكن له في هذه الحرب إلا الرأي. ثم إن مالك بن عوف أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم، فلما علم بذلك دريد سأل مالكاً عن السبب فقال: سقت مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم، لأجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه، فقال دريد: وهل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، فلم يقبل مالك مشورته وجعل النساء صفوفاً وراء المقاتلة ووراءهم الإبل ثم البقر ثم الغنم كيلا يفر أحد من المقاتلين.

أما رسول الله ﷺ، فإنه لما بلغه أن هوازن وثقيف يستعدون لحربه، أجمع رأيه على المسير إليهم، وخرج معه اثنا عشر ألف غاز منهم ألفان من أهل مكة، والباقون هم الذين أتوا معه من المدينة، وخرج أهل مكة ركباناً ومشاة، حتى النساء يمشين من غير ضعف يرجون الغنائم، وخرج في الجيش ثمانون من المشركين، منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، ولما قرب الجيش من معسكر العدو صف عليه الصلاة والسلام الغزاة وعقد الألوية، فأعطى لواء المهاجرين لعليّ بن أبي طالب، ولواء الخزرج للحُباب بن المنذر، ولواء الأوس لأُسيد بن حُضير، وكذلك أعطى ألوية لقبائل العرب الأخرى، ثم ركب عليه الصلاة والسلام بغلته ولبس درعين والبيضة والمِغْفر[1]. هذا، وقد أعجب المسلمون بكثرتهم

---

(١) البيضة: خوذة توضع على الرأس تتقى بها الضربات، والمغفر: زرد من الحديد يُلبس تحت القلنسوة.

فلم تغن عنهم شيئاً، فإن مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو، فخرج لهم كمين كان مستتراً في شعاب الوادي ومضايقه، وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر، فلوَوْا أعنة خيلهم متقهقرين، ولما وصلوا إلى من قبلهم تبعوهم في الهزيمة لما لحقهم من الدهشة أما رسول الله ﷺ فثبت على بغلته في ميدان القتال، وثبت معه قليل من المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس، وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة بن الحارث، ومُعتّب بن أبي لهب، وكان العباس آخذاً بلجام البغلة، وأبو سفيان آخذاً بالركاب، وكان عليه الصلاة والسلام ينادي: إليّ أيها الناس ولا يلوي عليه أحد، وضاقت بالمنهزمين الأرض بما رحبت.

أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالإسلام والذين لم ينزعوا عنهم ربقة الشرك، فمنهم من فرح ومنهم من ساءه هذا الإدبار، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. وقال أخ لصفوان بن أمية: الآن بطل السحر، فقال له صفوان (وهو على شركه): اسكت فضّ الله فاك!. والله لئن يَرُبَّني[1] رجل من قريش، خير من أن يَرُبَّني رجل من هوازن. ومر عليه رجل من قريش وهو يقول: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجبرونها أبداً، فغضب صفوان وقال: أتبشرني بظهور الأعراب؟ وقال عكرمة بن أبي جهل لذلك الرجل: كونهم لا يجبرونها أبداً ليس بيدك، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء، إن أُديل عليه اليوم فإن العاقبة له غداً. فقال سهيل بن عمرو: والله إن عهدك بخلافه لحديث، فقال له: يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع. وبلغت هزيمة بعض الفارين مكة، كل هذا ورسول الله واقف مكانه يقول:

أنا النبي لا كذب   أنا ابنُ عبد المطلب

ثم قال للعباس وكان جَهْوَرِيَّ الصوت: نادِ الأنصار يا عباس. فنادى يا

---

(١) أي يملكني ويدبّر أمري.

معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة الرضوان، فأسمع مَنْ في الوادي، وصار الأنصار يقولون: لبِّيك لبِّيك، ويريد كل واحد منهم أن يلوي عِنان بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه، وينزل عن بعيره ويخلي سبيله ويؤمُّ الصوت، حتى اجتمع حول رسول الله جمع عظيم منهم، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم يروها، فكرّ المسلمون على عدوهم يداً واحدة فانتكث فتْل المشركين، وتفرقوا في كل وجه لا يلوون على شيء من الأموال والنساء والذراري، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فأخذوا النساء والذراري وأسروا كثيراً من المحاربين، وهرب من هرب، وجرح في هذا اليوم خالد بن الوليد جراحات بالغة، وأسلم ناس كثيرون من مشركي مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين.

هذا، والذي حصل في هذه الغزوة درس مهمّ من دروس الحرب، فإن هذا الجيش دخله أخلاط كثيرون من مشركين وأعراب وحديثي عهد بالإسلام، وهؤلاء سيّان عندهم نصر الإسلام وخذلانه؛ ولذلك بادروا لأول صدمة إلى الهزيمة، وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضل الله، فلا ينبغي أن يكون في الجيش إلا من يقاتل خالصاً مخلصاً من قلبه ليكون مدافعاً حقاً عن دينه، فلا تميل نفسه إلى الفرار خشية ما أعده الله للفارين من أليم العقاب.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام بجمع السبي والغنائم، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة فجمع ذلك كله بالجِعرّانة. أما المشركون فتفرقوا ثلاث فرق: فرقة لحقت بالطائف، وفرقة لحقت بنخلة، وفرقة عسكرت بأوطاس[1].

سرية

فأرسل عليه الصلاة والسلام لهذه الفرقة أبا عامر الأشعري في جماعة،

(١) وادٍ بديار هوازن.

منهم أبو موسى الأشعري، فسار إليهم وبددّهم وظفر بما بقي من الغنائم، وقد استشهد أبو عامر في هذه الغزوة، وخلف على الغزاة ابن أخيه أباموسى فرجع ظافراً منصوراً.

غزوة الطائف

وسار عليه الصلاة والسلام بمن معه الى الطائف، ليجهز على بقية حياة ثقيف ومن تجمّع معهم من هوازن، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد، ومر عليه الصلاة والسلام بحصن لعوف بن مالك النصري فأمر بهدمه. ومرّ ببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه، فأرسل إليه أن اخرج وإلا حَرَّقنا عليك بستانك، فامتنع الرجل فأمر عليه الصلاة والسلام بحرقه. ولما وصل المسلمون إلى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصنوا به وأدخلوا معهم قوت سنتهم، فعسكر المسلمون قريب الحصن، فرماهم المشركون بالنبل ـ رمياً شديداً، حتى أصيب منهم كثيرون بجراحات منهم عبد الله بن أبي بكر، وقد طاوله جرحه حتى أماته في خلافة أبيه، ومنهم أبو سفيان بن حرب فقئت عينه. وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلاً من المسلمين ولما رأى رسول الله أن العدو متمكن من رميهم، ارتفع إلى محل مسجد الطائف الآن، وضرب لأم-سلمة وزينب قبتان هناك، واستمر الحصار ثمانية عشر يوماً، كان فيها ينادي خالد بن الوليد بالبراز فلم يجبه أحد، وناداه عبد يا ليل عظيم ثقيف لا ينزل إليك منا أحد، ولكن نقيم في حصننا فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا، فأمر عليه الصلاة والسلام بأن ينصب عليهم المنجنيق فنصب، ودخل جمع من الأصحاب تحت دبابتين[1] لينقبوا الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار حتى أرجعوهم. فأمر عليه الصلاة والسلام أن تقطع

---

(١) الدبابة: آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها.

أعنـابهم ونخيلهم فقطع المسلمـون فيها قـطعاً ذريعـاً، فناداه أهـل الحصن أن دعها لله وللرحم فقال: أدعهـا لله وللرحم. ثم أمر من ينـادي بأن كـل من ترك الحصن ونزل فهو آمن، فخـرج اليه بضعة عشر رجـلاً. ولما رأى عليـه الصلاة والسلام أن تمنُّع ثقيف شديد، وأن الفتح لم يؤذن فيه استشار نوفل بن معاويـة الديلي في الذهاب أو المقام، فقال: يا رسـول الله ثعلب في جُحرٍ، إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضـرك، فأمـر عليه الصـلاة والسلام بـالرحيـل وطلب منه بعض الصحـابـة أن يـدعـو على ثقيف فقـال: «اللهم اهـد ثقيفـاً وائت بهم مسلمين».

تقسيم السَّبْي

ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى الجِعرَّانة حيث تـرك السبي، فأحصـاه وخمّسه وأعطى منه شيئاً كثيراً لأناس ضعف إسلامهم يتألفهم بـذلك، وأعـطى أناساً لم يسلموا ليحبب إليهم الإسلام، ومن الأولين أبـو سفيان أعـطاه أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل، وكذلك ابناه معـاوية ويـزيد فقـال له: بـأبي أنت وأمي: لأنت كـريم في السلم والحـرب. ومنهم حكيم بن حـزام أعـطاه كأبي سفيان فاستزاده فأعطاه ثم استزاده فأعطاه مثلها، وقال: يا حكيم إن هـذا المال خَضِرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بـإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليـا خير من اليـد السفلى. فأخذ حكيم المـائة الأولى وتـرك ما عـداها. ثم قـال: والذي بعثـك بالحق لا أرزأُ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الـذي يستحقه من بيت المـال فلا يـأخذه. وأعـطى عليه الصـلاة والسلام عُيَيْنـة بن حصن مائـة من الإبل، وكـذلك الأقـرع بن حـابس والعباس بن مرداس. وأعطى صفوان بن أمية شِعْباً مملوءاً نعمـاً وشاءً كـان رآه يرمقه، فقال له: هل يعجبك هذا؟ فقال: نعم، قال: هو لك. فقال صفـوان: ما طابت بمثل هذا نفس أحد، وكان سبب إسلامه. وكان عليه الصلاة والسلام يقصد من هذه العطايا تأليف القلوب وجمعه على الـدين القويم، وهـذا ضرب

من ضروب السياسة الدينية حتى جعل من الصدقات قسماً للمؤلفة قلوبهم، وقد عاد ذلك بفائدة عظمى، فإن كثيرين ممن أعطوا في هذا اليوم ولم يكونوا أُشربوا في قلوبهم حبّ الإسلام، صاروا بعدُ من أجلّاء المسلمين وأعظمهم نفعاً كصفوان بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، والحارث بن هشام وغيرهم.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقي من الغنائم وقسّمه على الغزاة بعد أن اجتمع إليه الأعراب، وصاروا يقولون له: اقسم علينا حتى ألجؤوا الى شجرة فتعلق رداؤه، فقال: «ردّوا ردائي أيها الناس، فوالله إن كان لي شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ماألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً». ثم قام إلى بعيره وأخذ وبرَة من سنامه وقال: «أيها الناس والله مالي من غنيمتكم ولا هذه الوبَرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدّوا الخياط والمخيط فإن الغلول[1] يكون على أهله عاراً وشناراً يوم القيامة» فصار كل من أخذ شيئاً من الغنائم خلسة يردّه ولو كان زهيداً. ثم شرع يقسم فأصاب الرجل أربعة من الإبل وأربعون شاة، والفارس ثلاثة أمثال ذلك، فقال رجل من المنافقين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فغضب عليه الصلاة والسلام حتى احمّر وجهه وقال: «ويحك من يعدل إذا لم أعدل»؟ فلم يؤدّه غضبه أن ينتقم لنفسه، حاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك، بل لم يزد على أن نصح وحذّر، وقال له عمر وخالد بن الوليد: دعنا يا رسول الله نضرب عنقه، فقال: لا! لعله أن يكون يصلّي، فقال خالد: وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه! فقال ﷺ: إني لم أومر أن أنقّب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم».

ولما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب وترك الأنصار، غضب بعضهم حتى قالوا: إن هذا لهو العجب يعطي قريشاً، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فبلغه ذلك فأمر بجمعهم وليس معهم

(١) الاختلاس من الغنيمة.

غيرهم، فلما اجتمعوا قال: «يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم؟ ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي؟ وعالة[1] فأغناكم الله بي؟ وأعداءً فألف الله بين قلوبكم بي؟ إن قريشاً حديثو عهد بكفر ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم، أغضبتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لشيء قليل من الدنيا ألّفت به قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يُزلْزَل؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكت شِعْب الأنصار، اللهمَّ أرحم الأنصار» فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف عليه الصلاة والسلام وتفرّقوا.

وفود هوازن

وبعد بضع عشرة ليلة جاءه ﷺ وفد هوازن يرأسهم زهير بن صُرَد وقالوا: يا رسول الله إنّ فيمن أصبتم الأمهات والعمات والخالات، وهن مخازي الأقوام ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله، وقال زهير: إنّ في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك، ثم قال أبياتاً يستعطفه بها:

امننْ علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر
امننْ على نسوةٍ قد كنت ترضعها ... إذ فُوك مملوءة من مخضها الدرر
إنا لنشكر للنّعماء إن كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدّخر
إنا نؤمّل عفواً منك نلبسه ... هدى البرية أن تعفوا وتنتصر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه ... من أمهاتك، إن العفو مشتهر

فقال ﷺ: إن أحب الحديث إليّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال. وقد كنت انتظرتكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، فقالوا:

(١) جمع عائل وهو الفقير.

ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، اردُدْ علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير، فقال ﷺ: أما مالي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا صليت الظهر فقوموا وقولوا: نحن نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله بعد أن تظهروا إسلامكم وتقولوا نحن إخوانكم في الدين، ففعلوا. فقال ﷺ لأصحابه: «أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين وإني قد رأيت أن أردّ عليهم سبْيَهم، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أوّل ما يفيء الله علينا فليفعل، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله، وامتنع من ذلك جماعة من الأعراب كالأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والعباس بن مرداس، فأخذه الرسول منهم قرضاً، وأمر ﷺ بأن تُحبس عائلة مالك بن عوف النصري رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أمّ عبد الله بن أمية. فقال له الوفد: أولئك سادتنا، فقال ﷺ: إنما أريد بهم الخير. ثم سأل عن مالك فقالوا: هرب مع ثقيف، فقال: أخبروه أنه إن جاءني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل، فلما بلغ ذلك مالكاً نزل من الحصن خفية حتى أتى رسول الله بالجِعِرّانة فأسلم وأحرز ماله، واستعمله عليه الصلاة والسلام على من أسلم من هوازن. .

عمرة الجِعِرّانة

ثم إن الرسول ﷺ اعتمر فأحرم من الجِعِرانة ودخل مكة بليل، فطاف واستلم الحجر ثم رجع من ليلته. وكانت إقامته بالجِعرانة ثلاث عشرة ليلة. ثم أمر عليه الصلاة والسلام بالرحيل. فسار الجيش آمناً مطمئناً حتى دخل المدينة لثلاثة بقين من ذي القعدة.

وغزوة حنين هي التي فرّق الله بها جموع الشرك وأدال دولته، وأفقد سراة أهله، فإن هوازن لم تترك وراءها رجلاً تمكنه الحرب إلا ساقته، ولم تترك لها بعيراً ولا شاة إلا جاءت به معها، فأراد الله إعزاز الإسلام بخذلان

أعدائه وأخـذ أموالهم، فـانكسرت حـدة المشركين ولـم يبق فيهم من يمـانع أو يدافع، ولذلك يمكننا أن نقول إن إنكسار هوازن كان خاتمة لحروب العـرب، فلم يبق فيهم إلا فئـات قليلة يسوقهم الـطيش الى شهر السـلاح، ثم لا يلبثون أن يغمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة.

سرية

ولما رجع عليه الصلاة والسـلام إلى المدينـة، أرسل قيس بن سعـد في أربعمائة ليدعو صُـداء (قبيلة تسكن اليمن) إلى الإسلام فجـاء إلى رسول الله رجـل منهم فقال: يـا رسول الله إني جئتـك وافداً عمن ورائي، فـاردد الجيش وأنا لك بقومي، فأمر عليه الصلاة والسلام بردّ الجيش.

وفود صداءَ

وخرج الرجل الى قومه فقدم بخمسـة عشر رسـولاً منهم، فنزلـوا ضيوفـاً على سعد بن عبادة، ثم بايعوا رسـول الله على الإسلام وقـالوا نحن لـك على من ورائـنـا من قومنـا. ولما رجعـوا فشا فيهم الإسـلام، وقدم على رسـول الله منهم مائة في حجة الوداع.

سرية

ثم أرسل عليه الصلاة والسلام بشر بن سفيان العدوي إلى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقـات أموالهم، فمنعهم بنـو تميم المجاورون لهم من أداء مـا فُـرض عليهم، فلما علم بـذلـك رسـول الله أرسـل إليهم عيينـة بن حصن في خمسين فارساً من الأعـراب، فجاءهم وحـاربهم وأخذ منهم أحـد عشر رجـلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً، وتوجـه بالكـل إلى المدينـة، فأمـر عليه الصلاة والسلام بجعلهم في دار رملة بنت الحارث.

وفود تميم

فجاء في أثرهم وفد تميم وفيه عُطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، فجلسوا ينتظرون الرسول، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء الحجرات بصوت جافٍ: يا محمد اخرجْ إلينا نفاخرك، فإن مدحنا زين وإن ذمَّنا شين، فخرج اليهم عليه الصلاة والسلام وقد تأذّى من صياحهم، وفيهم نزل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]. وكان الوقت وقت الظهر فأذّن بلال، ودخل النبي للصلاة فتعلقوا به يقولون: نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال لهم عليه السلام: «ما بالشعر بُعثنا ولا بالفَخار أمرنا» ثم صلى الظهر واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم. وقد مدح عمرو بن الأهتم الزبرقان بن بدر، فقال: إنه لمطاع في أنديته سيد في عشيرته، فقال الزبرقان: حسدني يا رسول الله لشرفي وقد علمْ أفضل مما قال. فقال عمرو: إنه لزَمِنُ المروءة ضيِّق العَطَن[2] لئيم الخال، فرئي الغضب في وجه رسول الله لاختلاف قولي عمرٍو، فقال: يا رسول الله لقد صدقت في الأولى وما كذبت في الثانية، رضيت فقلت أحسن ما عملت، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنّ من البيان لسحراً». ثم أسلم القوم، فردَّ النبي عليه الصلاة والسلام عليهم أسراهم وأحسن جائزتهم، وأقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن ويتفقّهون في الدين.

سرية:

ثم بعث عليه الصلاة والسلام الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط لأخذ صدقات بني المصطلق، فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحهم احتفالاً بقدومه ومعهم إبل الصدقة، فلما نظرهم ظنهم يريدون حربه

---

(١) سورة الحجرات آية ٤.

(٢) زمن المروءة: ناقصها.العطن: مبارك الإبل. والكلام كناية عن ضيق الصدر.

لمـا كان بينـه وبينهم من العداوة في الجـاهلية، فـرجع مسـرعاً إلى المـدينة، وأخبـر الرسـول أن القوم ارتـدوا ومنعوا الـزكاة، فـأرسل لهم خـالد بن الـوليد لاستكشاف الخبر، فسار إليهم في عسكره خفيـة، حتى إذا كان ينـاديهم سمع مؤذنهم يؤذن بـالصبح، فـأتاهم خـالد فلم يـر منهم إلا طاعـة، فـرجـع وأخبـر الرسول فأرسل عليـه الصلاة والسـلام لهم غير الـوليد لأخـذ الصدقـات. وفي الوليد نزل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[1].

سرية

ثم بلغ رسـول الله أن جمعـاً من الحبشـة رآهم أهـل جُـدّة في مـراكبهم يريدون الإغارة عليها، فأرسل لهم علقمة بن مُجزِّز في ثلاثمائـة، فذهب حتى وصل جدّة ونزل في المراكب ليدركهم، وكان الأحبـاش متحصنين في جزيـرة هناك، فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا، ولم يلق المسلمـون كيداً، فـرجع علقمة بمن معه. ولما كان بالطريق أذن لسرعان القوم أن يتعجلوا، وأمرَّ عليهم عبد الله بن حُذافة السَّهْمي، وكان فيه دعابة[2] فأوقد لهم في الطريق ناراً وقال لهم: ألستم مـأمـورين بـطاعتي؟ قـالـوا: نعم، قـال: عـزمت عليكم إلا مـا تواثبتم[3] في هذه النار، فقال بعضهم: ما أسلمنا إلا فراراً من النار! وهمّ بذلك بعضهم فمنعهم عبـد الله. وقال: كنت مـازحاً! فلمـا ذكروا ذلـك لـرسـول الله قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

---

(١) سورة الحجرات آية ٦.

(٢) يحب المزاح.

(٣) وقعتم في هذه النار.



سرية

في ربيع الأول أرسل عليه السلام علي بن أبي طالب في خمسين فارساً لهدم الفُلْس (صنم لطيء) فسار إليه وهدمه وأحرقه. ولما حارب عُبّاده هزمهم واستاق نعمهم وشاءهم وسبْيهم، وكان فيه سفّانة بنت حاتم طيء. ولما رجع علي إلى المدينة طلبت سفّانة من رسول الله أن يمنّ عليها، فأجابها لأنه كان من سننه أن يكرم الكرام فدعت له، وكان من دعائها: شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتْك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردها عليه، وكانت هذه المعاملة من رسول الله سبباً في إسلام أخيها عديّ بن حاتم الطائي الذي كان فرّ الى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده، وكان من حديث مجيئه أن أخته توجهت إليه بالشام وأخبرته بما عوملت به من الكرم. فقال لها ما ترين في أمر هذا الرجل؟ فقالت: أرى أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبياً فللسابق اليه فضل، وإن يكن ملكك فأنت أنت. قال: والله هذا هو الرأي.

وفود عدي بن حاتم

فخرج حتى جاء المدينة ولقي رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: من الرجل؟ قال: عديّ بن حاتم، فأخذه إلى بيته وبينما هما يمشيان إذ لقيت رسول الله امرأة عجوز فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، فقال عدي: والله ما هو بملك. ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوة ليفاً فقدمها إلى عدي وقال: اجلس على هذه، فقال: بل

أنت تجلس عليها، فامتنع عليه الصلاة والسلام وأعطاها له وجلس هو على الأرض، ثم قال: يا عدي! أسلم تسلم، قالها ثلاثاً، فقال عدي: إني على دين ـ وكان نصرانياً ـ فقال له عليه الصلاة والسلام: أنا أعلم بدينك منك، فقال عدي: أأنت أعلم بديني مني؟ قال: نعم. ثم عدد له أشياء كان يفعلها اتباعاً لقواعد العرب وليست من دين المسيح في شيء، كأخذه المِرْباع وهو ربع الغنائم. ثم قال: يا عدي! إنما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى، تقول إنما اتبعه ضعاف الناس ومن لا قدرة لهم وقد رمتهم العرب مع حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثير عدوهم وقلة عددهم، أتعرف الحيرة؟ قال: لم أرها وقد سمعت بها، قال: فوالله ليتمنَّ هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم. فأسلم عدي رضي الله عنه وعاش حتى رأى كل ذلك.

غزوة تَبُوك

بلغ رسول الله ﷺ أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده، وكان ذلك في زمن عسرة الناس وجدب البلاد وشدة الحر، حين طابت الثمار، والناس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهم، فأمر عليه الصلاة والسلام بالتجهُّز، وكان قلما يخرج في غزوة إلا ورّى بغيرها ليعمّي الأخبار على العدو إلا في هذه الغزوة، فإنه أخبر بمقصده لبعد الشقّة ولشدة العدو، ليأخذ الناس عدتهم لذلك، وبعث إلى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم لذلك، وحث الموسرين على تجهيز المعسرين، فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرساً، فقال ﷺ: اللهم ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه. وجاد أبو بكر بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم،

فقال ﷺ: هل أبقيت لأهلك شيئاً؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاد عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاد عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية، وجاد العباس وطلحة بمال كثير. وتصدق عاصم بن عدي بسبعين وسْقاً من تمر، وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليِّهن، وجاءه ﷺ سبعةُ أنفس من فقراء الصحابة يطلبون إليه أن يحملهم. فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فتولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. فجهز عثمان ثلاثة منهم، وجهز العباس اثنين، وجهز يامين بن عمرو اثنين. ولما اجتمع الرجال خرج بهم رسول الله وهم ثلاثون ألفاً، وولّى على المدينة محمد بن مسلمة وعلى أهله علي بن أبي طالب، وتخلف كثير من المنافقين يرأسهم عبد الله بن أُبيّ وقال: يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد!! أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرَّنين في الحبال. واجتمع جماعة منهم فقالوا في حق رسول الله وأصحابه ما يريدون من الإرجاف، فبلغه ذلك، فأرسل إليهم عمار بن ياسر يسألهم عما قالوا، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب. وجاء إليه جماعة، منهم الجد بن قيس، يعتذرون عن الخروج فقالوا: يا رسول الله ائذن لنا ولا تفتنّا لأنا لا نأمن من نساء بني الأصفر، وجاء إليهالمعذرون من الأعراب - وهم أصحاب الأعذار من ضعف أو قلة - ليؤذن لهم فأذن لهم. وكذلك استأذن كثير من المنافقين فأذن لهم، وقد عتب الله عليه في ذلك الإذن بقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1]. ثم قال في حقهم: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[2] ثم كذبهم الله في عذرهم فقال: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾[3] ثم لكيلا يأسى المسلمون على قعود المنافقين عنهم قال جل ذكره: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟

---

(١) سورة التوبة آية ٤٣.

(٢) سورة التوبة آية ٤٥.

(٣) سورة التوبة آية ٤٦.

فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[1] وتخلف جماعة من المسلمين لا يتهمون في إسلامهم، منهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وأبو خيثمة. ولما خلف ﷺ علياً قال المنافقون: قد استثقله فتركه، فأسرع إلى رسول الله وشكا له ما سمع، فقال ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟» ثم سار ﷺ بالجيش وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصدّيق، وفي إعطاء اللواء لأبي بكر آخر غزوة للرسول، وتخليف عليّ على أهل البيت حكمة لطيفة يفهمها القارىء. وفرّق عليه الصلاة والسلام الرايات، فأعطى الزبير راية المهاجرين وأُسَيْد بن حُضير راية الأوس، والحُباب بن المنذر راية الخزرج. ولما مر الجيش بالحِجر وهي ديار ثمود، قال ﷺ لأصحابه: «لا تدخلوا ديار الذين ظلموا إلا وأنتم باكون» ليشعر قلوبهم رهبة الله، وكان مستعملاً على حرس الجيش عبَّاد بن بشر، وكان أبو بكر يصلي بالجيش، ولما وصلوا إلى تبوك، وكانت أرضاً لاعمار فيها، قال الرسول لمعاذ بن جبل: يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا ملىء بساتين، وقد كان.

ولما استراح لحقه أبو خيثمة، وكان من خبر مجيئه أن دخل على أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في بستان قد رشَّت كل منهما عريشتها، وبرَّدت فيها ماءً وهيأت طعاماً، وكان يوماً شديد الحر، فلما نظر ذلك قال: يكون رسول الله في الحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء!؟ ما هذا بالنَّصَف. ثم قال: والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله فهيِّئا لي زاداً ففعلتا. ثم ركب بعيره وأخذ سيفه ورمحه، وخرج يريد رسول الله فصادفه حين نزل بتبوك.

وفود صاحب أَيْلَة

هذا، ولم ير ﷺ بتبوك جيشاً كما كان قد سمع، فأقام هناك أياماً جاءه

---

(١) سورة التوبة آية ٤٧.

في أثنائها يُوحنا صاحب أيلة وصحبته أهل جَرْباء[1] وأهل أَذْرُح[2] وأهل ميناء، فصالح يوحنا رسول الله على إعطاء الجزية ولم يسلم. وكتب له الرسول كتاباً هذه صورته:

كتاب صاحب ايلة

بسم الله الرحمن الرحيم هذا أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا وأهل أيلة: سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يجوز ماله دون نفسه، وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر.

كتاب أهل اذرح وجرباء

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتاباً صورته: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح وجرباء إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة. والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين) وصالح أهل ميناء على ربع ثمارهم.

ثم أن الرسول استشار أصحابه في مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام، فقال له عمر: إن كنت أمرت بالسير فسِرْ. فقال عليه الصلاة والسلام: لو كنت أُمرت بالسير لم أستشر، فقال: يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا وقد أفزعهم دنوّك، فلو رجعنا في هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً، فتبع عليه الصلاة والسلام مشورته، وأمر بالقفول فرجع الجيش إلى المدينة.

---

(١) قرية في جنوب الشام.

(٢) المدينة تلقاء السراة.

مسجد الضِّرار

ولما كان على مقربة منها[1] بلغه خبر مسجد الضِّرار، وهو مسجد أسسه جماعة من المنافقين معارضة لمسجد قباء ليفرقوا جماعة المسلمين، وجاء جماعة منهم إلى الرسول طالبين منهم أن يصلي لهم فيه، فسألهم عن سبب بنائه فحلفوا بالله إن أردنا إلا الحُسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. فأمر عليه الصلاة والسلام جماعة من أصحابه لينطلقوا إليه ويهدموه ففعلوا، هذا ولما استقر عليه الصلاة والسلام، بالمدينة، جاءه جماعات من الذين تخلفوا يعتذرون كذباً فقبل منهم عليه السلام علانيتهم، ووكل ضمائرهم إلى الله واستغفر لهم.

حديث الثلاثة الذين خُلِّفوا

وجاءه كعب بن مالك الخزرجي، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية الأوسيان مقرِّين بذنوبهم. فلما دخل عليه كعب تبسَّم تبسُّم الغضب وقال: ما خلَّفك؟ فقال: يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أوتيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدَّثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخط عليَّ فيه، ولئن حدَّثتك حديث صدق تغضب عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي من عذر، فقال عليه الصلاة والسلام: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك. وقال صاحباه مثل قوله، فقال لهما عليه الصلاة والسلام كما قال لكعب، ونهى المسلمين عن كلامهم فاجتنبهم الناس، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم. واستأذنت زوج هلال بن أمية في خدمة زوجها، لأنه شيخ ضائع ليس له خادم فأذن لها، ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب

---

(١) أي من المدينة.

عليهم، فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام من يبشّرهم بهذه النعمة الكبرى، فتلقاهم الناس أفواجاً أفواجاً يهنئونهم بتوبة الله. فلما دخل كعب المسجد تلقّاه رسول الله مسروراً، فقال: أبشر يا كعب بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك، فقال: من عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله. فقال كعب: يا رسول الله إن من توبتي أن انخلع من مالي صدقة لله ورسوله، فقال عليه الصلاة والسلام: أمسكْ عليك بعض مالك فهو خير لك. ثم قرأ عليه الصلاة والسلام الآيات التي فيها توبته هو وصاحباه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

وفود ثقيف

وعقب مقدمه عليه الصلاة والسلام من تبوك وفد عليه وفد ثقيف، وكان من خبرهم أنه لما انصرف رسول الله من محاصرتهم، تبع أثره عُروة بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام، فقال له: إنهم قاتلوك، فقال: يا رسول الله أنا أحبُّ إليهم من أبكارهم، فخرج إلى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم، لأنه كان فيهم محبباً مطاعاً، فلما جاء الطائف وأظهر لهم ما جاء به رمَوه بالنبل فقتلوه، وبعد شهر من مقتله ائتموا فيما بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله رجلاً منهم يكلمه، وطلبوا من عبد ياليل بن عمرو أن يكون ذلك الرجل، فأبى وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً فبعثوا معه خمسة من أشرافهم، فخرجوا متوجهين إلى المدينة، ولما قابلوا رسول الله ضرب لهم قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا، وكانوا يغدون إلى رسول الله كل يوم ويخلّفون في رحالهم

---

(١) سورة التوبة آية ١١٨.

أصغرهم سناً عثمان بن أبي العاص، فكان إذا رجعوا ذهب للنبي واستقرأه القرآن، وإذا رآه نائماً استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئاً كثيراً من القرآن وهو يكتم ذلك عن أصحابه، ثم أسلم القوم وطلبوا أن يعين لهم من يؤمهم، فأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رآه من حرصه على الإسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين.

كتاب أهل الطائف

ثم كتب لهم كتاباً من جملته: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين إنَّ عِضاه وجٍّ[1] وصيده حرام، لا يعضد[2] شجره، ومن وجد يفعل شيئاً من ذلك، فإنه يجلد وتنزع ثيابه) ثم سألوا رسول الله أن يؤجل هدم صنمهم شهراً، حتى يدخل الإسلام في قلوب القوم ولا يرتاع السفهاء من النساء من هدمه، فرضي بذلك عليه الصلاة والسلام، ولما خرجوا من عنده قال رئيسهم: أنا أعلمكم بثقيف. اكتموا عنهم إسلامكم وخوِّفوهم الحرب والقتال، وأخبروهم أن محمداً طلب أموراً عظيمة أبيناها عليه، سألنا أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنى وشرب الخمر والربا، فلما حلّوا بلادهم جاءتهم ثقيف، فقال الوفد: جئنا رجلًا فظّاً غليظاً قد ظهر بالسيف، ودان الناس له، فعرض علينا أموراً شديدة، وذكروا ما تقدم. فقالوا: والله لا نطيعه أبداً، فقالوا: لهم: أصلحوا سلاحكم ورمُّوا[3] حصونكم واستعدوا للقتال، فأجابوا واستمروا على ذلك يومين أو ثلاثة، ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم، فقالوا: والله ما لنا بحربه طاقة ارجعوا إليه وأعطوه ما سأل، فقال الوفد: قد قاضيناه وأسلمنا، فقالوا: لِمَ كتمتم علينا ذلك؟ قالوا: حتى تذهب عنكم نخوة الشيطان، فأسلموا.

---

(١) العضاه: كل شجر يعظم وله شوك. وجّ: بلد في الطائف.

(٢) لا يعضد: لا يقطع.

(٣) اصلحوا.

هدم اللاَّت

ولما بلغ رسول الله إسلام ثقيف، أرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة الثقفي لهدم اللاَّت صنم ثقيف بالطائف، فتوجهوا وهدموه حتى سوَّوْه بالأرض[1].

حج أبي بكر

وفي أخريات ذي القَعدة أرسل عليه الصلاة والسلام أبا بكر ليحجَّ بالناس، فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة ومعه الهدي عشرون بدنة أهداها رسول الله، وساق أبو بكر خمس بدنات، ولما سافر نزل على رسول الله أوائل سورة براءة، فأرسل بها علياً ليبلّغها الناس في يوم الحج الأكبر وقال: لا يبلغ عني إلا رجل مني، فلحق أبا بكر في الطريق، فقال الصدّيق: هل استعملك رسول الله على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ وأتلو براءة على الناس. فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليهم علي ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم، وإمهالهم أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض كيف شاءوا، وإتمام عهد المشركين الذين لم يُظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم إلى مدتهم. ثم نادى: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عُريان، وكان علي يصلي في هذا السفر وراء أبي بكر رضي الله عنهما.

وفاة ابن أُبيّ

وفي ذي القَعدة مات عبد الله بن أُبيّ، وقد صلى عليه رسول الله صلاة لم يطل مثلها، وشيَّع جنازته حتى وقف على قبره، وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب ولده

---

(١) جعلوه على مستوى الأرض.

عبد الله بن عبد الله وتأليفاً لقلوب الخزرج لمكانة عبد الله بن أبيّ فيهم، وقد نزع رِبْقَة النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم، لما رأوه من أعمال السيد الكريم ﷺ. وقد نهى الله رسوله بعد ذلك عن الصلاة على المنافقين، فقال جل شأنه: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾[1].

وفاة أم كلثوم

وفي هذه السنة توفيت أم كلثوم بنت رسول الله وزوج عثمان رضي الله عنهما.

---

(١) سورة التوبة آية ٨٤.

السنة العاشرة

سرية

في ربيع الآخر أرسل عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد في جمع لبني عبد المدان بنجران من أرض اليمن، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاث مرات، فإن أبوا قاتلهم. فلما قدم إليهم بعث الركبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام ويقولون: أسلموا تسلموا، فأسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً، فأقام خالد بينهم يعلمهم الإسلام والقرآن، وكتب إلى رسول الله بذلك، فأرسل اليه أن يقدم بوفدهم ففعل. وحين اجتمعوا به ﷺ قال لهم: بمَ كنتم تغلبون مَن قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال صدقتم. وأمَّر عليهم زيد[1] بن الحصين.

سرية

وفي رمضان أرسل عليه الصلاة والسلام علياً في جمع إلى بني مَذْحِج (قبيلة يمانية) وعمَّمه بيده وقال: سر حتى تنزل بساحتهم، فادعهم الى قول: لا إله إلا الله، فإن قالوا نعم فمُرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فلما انتهى اليهم لقي جموعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، ورموا المسلمين بالنبل، فصفَّ علي أصحابه وأمرهم بالقتال، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم فكفَّ عن طلبهم قليلاً، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا وبايعه رؤساؤهم وقالوا: نحن على مَن وراءنا من قومنا وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله، ففعل. ثم رجع

(١) في سيرة ابن هشام: قيس الحصين، وكذلك في شرح المواهب.

إلى رسول الله فوافاه بمكة في حجة الوداع .

بعث العمال إلى اليمن

ثم بعث عليه الصلاة والسلام الى اليمن عمالاً من قبله، فبعث معاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن[1] وبعث أبا موسى على الكورة السفلى، ووصّاهما ﷺ بقوله: «يسّرا ولا تعسّرا وبشّرا ولا تنفّرا» وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم. واتّق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله، أما أبو موسى فقدم على الرسول ﷺ في حجة الوداع .

حجة الوداع

وفي السنة العاشرة حج ﷺ بالناس حجة ودّع فيها المسلمين ولم يحجَّ غيرها، وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذي القَعدة، وولّى على المدينة أبا دُجانة الأنصاري، وكان مع الرسول جمع عظيم يبلغ تسعين ألفاً، وأحرم للحج حيث انبعثت به راحلته ثم لبّى فقال: «لبَّيك اللهمَّ لبَّيك لا شريك لك لبَّيك إن الحمد والنّعمة لك والملك لا شريك لك» ولم يزل ﷺ سائراً حتى دخل مكة ضحًى من الثنية العليا وهي ثنية كداء. ولما رأى البيت قال: اللهم زده تشريفاً

---

(١) جبل بمعلاة مكة .

وتعظيماً ومهابة وبرّاً، ثم طاف بالبيت سبعاً واستلم الحجر الأسود، وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم، ثم شرب من ماء زمزم، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعاً راكباً على راحلته. وكان إذا صعد الصفا يقول: لا إله إلا الله، الله أكبر، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، وفي الثامن من ذي الحجة توجه إلى منى فبات بها.

خطبة الوداع

وفي التاسع منه توجه إلى عرَفة، وهناك خطب خطبته الشريفة التي بينَّ فيها الدين كله أُسَّه وفرعه، وهاكَ نصها:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثُّكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد: أيها الناس اسمعوا مني أُبيِّن لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلا أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها. إن ربا الجاهلية موضوع وإن أول رباً أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السِّدانة والسِّقاية والعمْد قَوَدٌ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس إن النسيء[1] زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين

(١) كانت العرب تحرم أربعة أشهر: ثلاثة متواليات. وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وشهر رجب، وكانوا ربما استطالوا هذه الأشهر المتوالية لحاجتهم إلى الحرب والقتال فأحلوا المحرم وحرموا صفراً من المقبل، فهذا هو الذي عابه القرآن في عقيدتهم.

كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليُواطِئوا عدة ما حرَّم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حُرُم ثلاث متواليات وواحد فرد: ذو القَعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق ألاّ يُوطئنْ فُرشَكم غيركم، ولا يُدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تَعْضُلوهن[1] وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، إنما النساء عندكم عَوَانٍ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله واستحللْتُم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعُنّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضِلّوا بعده كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس إن ربكم واحد وأن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب. أيها الناس إن الله قد قسم لكم وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحَجَر، من ادّعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم ورحمة الله). وفي هذا اليوم امتن الله على المؤمنين بقوله:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[2]

فلا غرابة أن اتخذه المسلمون عيداً ويوماً سعيداً يظهرون فيه شكر الله

---

(١) العضْل: هو الحبس والتضييق.

(٢) سورة المائدة آية ٣.

على هذه النعمة الكبرى، ثم إنه عليه الصلاة والسلام أدى مناسك الحج من رمي الجِمار والنحر والحلْق والطواف. وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل راجعاً إلى المدينة، ولما رآها كبَّر ثلاثاً وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربِّنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

الوفود

في هذه السنة والتي قبلها، كان وفود العرب يأتون إلى رسول الله ليبايعوه على الإسلام، وكانوا يقدمون أفواجاً، ولما في أخبار هذه الوفود من التعاليم الحميدة التي يحتاج ذو الأدب أن يعرفها، رأينا أن نذكر لك منها ما يزيدك يقيناً وينير بصيرتكَ فنقول:

وفود نَجْران

ومن الوفود وفد نصارى نَجْران، وكانوا ستين راكباً دخلوا المسجد وعليهم ثياب الحِبَرَة[1] وأردية الحرير، مختّمين بالذهب، ومعهم بسط فيها تماثيل ومُسوح جاءوا بها هدية للنبي ﷺ، فلم يقبل البسط وقبل المسوح. ولما جاء وقت صلاتهم صلّوا في المسجد مستقبلين بيت المقدس، ولما أتموا صلاتهم دعاهم عليه الصلاة والسلام للإسلام فأبوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال عليه الصلاة والسلام: يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً، قالوا: فمن مِثل عيسى من غير أب؟ فأنزل الله في ذلك: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] وليظهر الله لهم أنهم في شك من أمرهم

---

(١) الحِبَرَة: ضرب من بُرود اليمن.

(٢) سورة آل عمران آية ٥٩.

أنزل. ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1].

فدعاهم ﷺ لذلك، فامتنعوا ورضوا بإعطاء الجزية، وهي الف حلة في صفر وألف حلة في رجب، مع كل حلة أوقية من ذهب، ثم قالوا: أرسل معنا أميناً فأرسل لهم أبا عبيدة عامر بن الجراح، وكان لذلك يسمى أمين هذه الأمة.

وفود ضِمَام بن ثعلبة

ومن الوفود ضِمَام بن ثعلبة، بينا رسول الله بين أصحابه متكئاً جاء رجل من أهل البادية ثائر الرأس يُسمع دويُّ صوته ولا يُفْقَه ما يقول، فأناخ جمله في المسجد ثم قال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فدلوه عليه، فدنا منه وقال: إني سائلك فمشدِّد عليك في المسألة فلا تجدْ[2] عليّ في نفسك. فقال: سل ما بدا لك، فقال: أنشدك بالله! آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: نعم، فقال: أنشدك بالله! الله أمرك أن نصلي خمس صلوات في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم، فقال: أنشدك بالله: آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترّده على فقرائنا؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله: آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثني عشر شهراً؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله: آلله أمرك أن يحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: اللهم نعم، قال: فإني قد آمنتُ وصدّقت وأنا ضِمَام بن ثعلبة. ولما ولّى قال عليه الصلاة والسلام: فقُه الرجل. ثم ذهب ضمام إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام وترْك عبادة الأوثان فأسلموا كلهم.

وفود عبد القَيْس

ومن الوفود عبد القَيْس، وكان من خبرهم أن الرسول كان جالساً بين

(١) سورة آل عمران آية ٦١.

(٢) أي لا تغضب.

أصحابه يوماً، فقال لهم: سيطلع عليكم من هنا ركب هم خير أهل المشرق، لم يُكرهوا على الإسلام قد أنضَوا الركائب وأفنَوا الزاد، اللهم اغفر لعبد القيس. فلما أتوا ورأوا النبي ﷺ رمَوا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد، وتبادروا إلى رسول الله يسلمون عليه، وكان فيهم عبد الله بن عوف الأشج، وكان أصغرهم سنّاً، فتخلّف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع، وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، ثم جاء يمشي هَوْناً حتى سلَّم على رسول الله، وكان رجلاً دميماً ففطِن لنظر الرسول إلى دمامته، فقال: يا رسول الله! إنه لا يستقى في مُسوك جلود الرجال، وإنما الرجل بأصغريه: قلبه ولسانه، فقال ﷺ: إن فيك خصلتين يحبُّهما الله ورسوله: الحِلم والأناة. وقد قال ﷺ لهذا الوفد: مرحباً بالقوم غير خَزَايا ولا ندامى، فقالوا: يا رسول الله إنا نأتيك من شَقَّة بعيدة[1]، وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام فمرنا بأمر فصْلٍ، فقال: «آمركم بالإيمان بالله. أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تُعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن الدُّباء[2] والحَنْتم[3] والنقير[4] والمزفت[5]» والمراد بذلك ما ينبذ في هذه الأواني. فقال الأشج: يا رسول الله إن أرضنا ثقيلة وخمة وإنّا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا، فرخِّص لنا في مثل هذه وأشار إلى يده، فأومأ عليه الصلاة والسلام بكفّيه وقال: يا أشج إن رخصتُ لك في مثل هذه شربته في مثل هذه ـ وفرج بين يديه وبسطها ـ حتى إذا ثمل أحدكم في شرابه قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف. وإنما خص عليه الصلاة والسلام نهيهم بما ذكر لكثرة الأشربة بينهم.

---

(١) لأن ديارهم كانت بساحل الخليج الفارسي، وهي ديار ربيعة بينهم وبين الحجاز أرض نجد.

(٢) القرع.

(٣) هو جرار مدهونة بدهان أخضر.

(٤) هو أصل النخلة ينقر.

(٥) ماطلي بالزفت.

وفود بني حَنيفة

ومن الوفود بنو حنيفة وكان معهم مُسَيْلِمَةُ الكذاب، وكان مُسَيلمة يقول: إن جعل لي الأمر من بعده اتبعته، فأقبل عليه الصلاة والسلام ومعه قيس بن شمّاس، وفي يد رسول الله قطعة من جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، وإني لأراك الذي منه رأيت. وكان عليه الصلاة والسلام رأى في منامه أن في يده سوارين من ذهب، فأهمَّه شأنهما، فأوحى الله إليه أن انفخْهما فطارا، فأولَّهما ﷺ كذابَيْن يخرجان من بعده، فكان مسيلمة أحدهما، والثاني الأسود العَنْسي صاحب صنعاء. وقد أسلم بنو حنيفة.

وفود طيء

ومن الوفود وفد طيء وفيهم زيد الخيل رئيسهم، وقد قال ﷺ في حقه: «ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل» وسماه ﷺ زيد الخير.

وفود كِنْدَة

ومنهم وفد كِنْدَة وفيهم الأشعث بن قيس، وكان وجيهاً مطاعاً في قومه، ولما دخلوا على رسول الله خبؤوا له شيئاً، وقالوا: أخبرنا عما خبأناه لك. فقال: سبحان الله إنما يفعل ذلك بالكاهن، وإن الكاهن والمتكهّن في النار. ثم قال: إن الله بعثني بالحق وأنزل عليَّ كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديْه ولا من خلفه، فقالوا: أسمعنا منه فتلا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾[1] ثم سكت وسكن ودموعه تجري على لحيته فقالوا:

---

(١) سورة الصافات آية ١ ـ ٥.

إنّا نراك تبكي؟ أفمن مخافة من أرسلك تبكي؟ قال: إن خشيتي منه أبكتني. بعثني على صراط مستقيم في مثل حد السيف إن زغت هلكت، ثم تلا: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾[1] ثم قال لهم عليه الصلاة والسلام: الم تسلموا؟ قالوا: بلى. قال: ما بال هذا الحرير في أعناقكم؟ فعند ذلك شقّوه وألقوه.

وفود أَزْدشَنُوءة

ومنهم وفد أَزْدشَنُوءَة ورئيسهم صُرَد بن عبد الله الأَزْدي، فأسلموا وأمَّره عليهم، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك.

وفود رسول ملوك حِمْيَر

ومنهم وفد رسول ملوك حمير وهم: الحارث بن عبد كُلال، ونُعيم بن عبد كُلال والنعمان قَيْلُ ذي رُعين، ومعافر، وهمدان. وكانوا قد أسلموا، وأرسلوا رسولهم بذلك، فكتب إليهم النبي ﷺ:

كتاب ملوك حِمْيَر

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كُلال وإلى نُعيم بن عبد كُلال، وإلى النعمان قَيْل ذي رُعَين ومعافر وهمدان. أما بعد فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلَنا من أرض الروم، فلقيناه بالمدينة فبلَّغ ما أرسلتم به، وخبَّر ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهداه، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة،

---

(١) سورة الاسراء آية ٨٦ - ٨٧.

وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبي وصفِيّه، وما كُتب على المؤمنين من الصدقة. أما بعد، فإن محمداً النبي أرسل إلى زُرْعة بن ذي يَزَن إذا أتاكم رسُلي فأوصيكم بهم خيراً: معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر ومالك بن مرَّة وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم، وأبلغوها رسُلي، وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبنَّ إلا راضياً. أما بعد، فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله، ثم إن مالك بن مرَّة الرَّهاوي قد حدثني أنك قد أسلمت من أول حِمْيَر، وقتلت من المشركين، فأبشر بخير وآمرك بحِمْيَر خيراً، ولا تخونوا ولا تخاذلوا، فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته، إنما هي زكاة يزكّي بها على فقراء المسلمين وابن السبيل، وأن مالكاً قد بلَّغ الخبر وحفظ الغيب، وآمركم به خيراً. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وفود هَمْدان

ومنها وفد هَمْدان وفيهم مالك بن نمط، وكان شاعراً مجيداً، فلقوا رسول الله مرجعَه من تبوك عليهم مقطَّعات من الحِبرات اليمنية، والعمائم العدنية، وقد أنشد مالك لرسول الله ﷺ:

حلفتُ بربِّ الراقصات إلى منى صوادرَ بالركبان من هضب قَرْدَدِ
بأن رسولَ الله فينا مصدَّق رسولٌ أتى من عند ذي العرش مهْتدِ
فما حملتْ من ناقة فوقَ رحلِها أشدَّ على أعدائه من محمَّدِ

وقد أمَّره ﷺ على من أسلم من قومه، وقد قال الرسول في حق هَمْدان: نعم الحي هَمْدان ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد وفيهم أبدال وفيهم أوتاد.

وفود تَجِيب

ومنها وفد تَجِيب ـ قبيلة من كِنْدَة ـ وفد على رسول الله ثلاثة عشر رجلاً

منهم، ومعهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فسرَّ بهم عليه الصلاة والسلام وأكرم مثواهم، وقالوا: يا رسول الله إنا سقنا إليك حق الله في أموالنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «ردُّوها فاقسموها على فقرائكم» فقالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، قال أبو بكر: يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا. فقال عليه الصلاة والسلام: إن الهدى بيد الله، فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان. وجعلوا يسألونه عن القرآن، فازداد ﷺ رغبة فيهم، ثم أرادوا الرجوع إلى أهليهم فقيل لهم: ما يعجلكم؟ قالوا نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ولقائنا إياه وما ردّ علينا، ثم جاءوا إلى رسول الله فودَّعوه فأجازهم بأفضل ما كان يجيز به الوفود. ثم قال لهم: هل بقي منكم أحد؟ قالوا: غلام خلَّفناه في رحالنا وهو أحدثنا سنّاً، قال: فأرسلوه إلينا فأرسلوه، فأقبل الغلام وقال: يا رسول الله أنا من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حاجتهم فاقض حاجتي. قال: وما حاجتك؟ قال: تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غنايَ في قلبي. فقال عليه الصلاة والسلام: اللهم اغفر له واجعل غناه في قلبه، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه.

وفود ثَعْلَبة

ومنها وفد ثَعْلَبة وفد على رسول الله أربعة منهم مقرين بالإسلام، فسلموا عليه وقالوا: يا رسول الله إنا رسُل من خلفنا من قومنا ونحن مقرُّون بالإسلام، وقد قيل لنا إنك تقول: لا إسلام لمن لا هجرة له، فقال عليه الصلاة والسلام: «حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم»، ثم قال لهم: كيف بلادكم؟ فقالوا: مخصبون، فقال: الحمد لله. ثم أقاموا في ضيافته أياماً، وحين إرادتهم الإنصراف أجاز كل واحد منهم بخمس أواقٍ من فضة.

وفود بني سعد بن هُذَيم[1]

ومنها وفد بني سعد بن هُذَيم من قضاعة، قال النعمان منهم: قدمت

(١) الصواب: وفود بني سعد هذيم.

على رسـول الله وافداً في نفـر من قـومي، وقـد أوطـأ رسـول الله البـلاد وأزاح العـرب، والناس صنفـان: إمـا داخـل في الإسـلام راغب فيـه، وإمـا خـائف السيف، فنـزلنا نـاحية من المـدينة، ثم خـرجنا نؤمُّ المسجـد حتى انتهينا إلى بابه، فوجدنا رسول الله يصلي على جنازة في المسجد، فقمنا خلفه ناحية ولم نـدخل مـع النـاس في صـلاتهم، وقلنـا حتى يصلي رسـول الله ونبـايعـه، ثم انصرف رسول الله فنظر إلينا فـدعا بنـا فقال: ممن أنتم؟ فقلنـا: من بني سعد هُـذَيم فقال: أمسلمـون أنتم؟ قـلنـا: نعم، فقـال: هـلاّ.صليتم على أخيكم؟ قلنـا: يا رسـول الله ظننا أن ذلـك لا يجوز حتى نبـايعك، فقـال عليه الصـلاة والسـلام: أينما أسلمتم فـأنتم مسلمون، قـال: فـأسلمنـا وبـايعنـا رسـول الله بأيدينـا، ثم انصرفنـا إلى رحالنـا، وقد كنـا خلَّفنا عليهـا أصغرنـا، فبعث عليه الصلاة والسلام في طلبنا، فأتى بنا إليه فتقدم صاحبنا فبايعـه ﷺ على الإسلام فقلنا: يا رسول الله إنه أصغرنا وإنه خادمنا فقال: سيد القوم خـادمهم بارك الله عليه. قال النعمان: فكان خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء النبي ﷺ له. ثم أجازهم وانصرفوا.

وفود بني فَزَارة

ومنها وفد بني فزارة، وفد على رسول الله جماعـة منهم مقرين بـالإسلام وهم مُسْنِتُون[1]، فسألهم عليه الصلاة والسلام عن بلادهم، فقال رجل منهم: يا رسول الله أسنَتَتْ بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا، وجاعت عيالنا. فادع لنا ربك يغثْنا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنـا ربك إليـك. فقال عليـه الصـلاة والسلام: سبحـان الله، ويلك هذا! أنـا أشفع إلى ربي فمن ذا الـذي يشفع ربنا إليه! لا إله هـو العلي العظيم وسـع كرسيُّـه السموات والأرض فهي تئِطُّ[2] من عظمته وجلاله كما يئِطُّ الرحـل الحديث، أي من ثقـل الحمل، ثم

(١) أي نزل بهم الجَدْب.

(٢) أي تصوت.

صعد عليه الصلاة والسلام المنبر ودعا الله عز وجل حتى أغاث بلاد هذا الوفد بالمطر الغزير والرحمة التامة.

وفود بني أَسَد

ومنها وفد بني أسد وفيهم: ضرار بن الأزْوَر وطُليحة بن عبد الله[1] الذي ادّعى النبوة بعد ذلك فأسلموا، وقالوا: يا رسول الله أتيناك نـدّرع الليل البهيم في سنة شهْباء ولم تبعث إلينا بعثاً فأنزل الله في ذلك: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2] وسألوا رسول الله ﷺ عما كانوا يفعلون في الجاهلية من العيافة[3] والكهانة[4]، وضرب الحصباء، فنهاهم عن ذلك كله، ثم سألوه عن ضرب الرمل، فقال: عُلِّمَه نبي فمن صادف مثل علمه فذاك وإلا فلا، ثم أقاموا أياماً يتعلمون الفرائض، وبعد ذلك ودَّعوا وانصرفوا بعد أن أجيزوا.

وفود بني عُذْرَة

ومنها وفد بني عُذْرَة، ووفد بني بليّ، ووفد بني مُرَّة، ووفد خولان ـ وهي قبائل باليمن ـ وقد أمرهم عليه الصلاة والسلام بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا، وألا يظلموا أحداً فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

وفود بني مُحارب

ومنها وفد بني مُحارب، وكانوا من الذين ردوا الرد القبيح حينما كان

---

(١) الصواب: طليحة بن خويلد.
(٢) سورة الحجرات آية ١٧.
(٣) هي زجر الطير والتخرف على الغيب.
(٤) هى الإخبار عن الكائنات.

رسول الله بعكاظ يدعو القبائل إلى الله. فما أعظم منة الله الذي أتى بهؤلاء، وكانوا ألد الأعداء، مسلمين منقادين.

وفود غَسَّان

ومنها وفد غسان، ووفد بني عبس، ووفد النَّخَع. وكان عليه الصلاة والسلام يقابل هذه الوفود بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق، ويجيزهم بما يرضيهم، ويعلّمهم الإيمان والشرائع ليعلّموا من وراءهم، وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لإظهار الدين بين الأعراب في البوادي.

وفاة إبراهيم بن النبي عليه الصلاة والسلام

وفي هذه السنة توفي إبراهيم بن رسول الله ﷺ.

سرية

ولأربع بقين من صفر جهز عليه الصلاة والسلام جيشاً برياسة أُسامة بن زيد إلى أُبْنى[1] حيث قتل زيد بن حارثة والد أسامة وقال له: «سر إلى موضع قتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش فأَغِرْ صباحاً على أهل أُبْنى وحرّق عليهم، وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله فأقلَّ اللبث فيهم وخذ الأدلّاء، وقدّم العيون والطلائع معك». وكان مع أسامة في هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد. ثم عقد عليه الصلاة والسلام لأسامة اللواء وقال له: اغْز باسم الله في سبيل الله قاتل من كفر بالله. وقد انتقد جماعة على تأمير أسامة، وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين، فأبلغ الرسول هذه المقالة فغضب غضباً شديداً، وخرج فقال: أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة. ولئن طعنتم في تأمير أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله؟ وآيم الله إنه كان لخليقاً بالإمارة وإن ابنه من بعده لخليق بها، وإنه كان لمن أحب الناس إليَّ، وإنهما لمظنّة لكل خير، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم. ولم يتم لهذا الجيش الخروج في عهد المصطفى ﷺ، لأن المرض بدأه فاختاره الله للرفيق الأعلى. وسيرى القارىء إن شاء الله خروج هذا الجيش متمماً في كتابنا (إتمام الوفا بسيرة الخلفاء).

مرض الرسول ﷺ

لما تمّم عليه الصلاة والسلام ما كلّف به، وأدّى ما اؤتمن عليه وهدى

---

(١) محل قريب من مؤته.

الله به أمته، اختاره الله للرفيق الأعلى، فجلس على المنبر مرة وكان فيما قال: «إن عبداً خيَّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده» فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأُمهاتنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، فلو كنت متخذاً خليلاً لاتَّخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام. لا يبقى في المسجد خَوخة إلا سُدَّت إلا خوخة أبي بكر». وقد بدأه عليه الصلاة والسلام مرضه في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت ميمونة، واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوماً، كان في خلالها ينتقل إلى بيوت أزواجه، ولما اشتد عليه المرض استأذن منهنّ أن يمرَّض في بيت عائشة الصديقة فأَذِنَّ له. ولما دخل بيتها واشتد عليه وجعه قال: هريقوا عليَّ من سبع قِرَب لم تَحْلل أَوْكيتهنَّ لعلي أعهد إلى الناس، فأجلس في مِخْضَب وصبَّ عليه الماء حتى أشار بيده أن قد فعلتنّ، وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمَّى التي كانت تصيب من يضع يده فوق ثوبه.

صلاة أبي بكر بالناس

ولما تعذر عليه الخروج إلى الصلاة قال: مُروا أبا بكر فليصلّ بالناس، فرضيه عليه الصلاة والسلام خليفة له في حياته. ولما رأت الأنصار اشتداد وجع الرسول اطافوا بالمسجد، فدخل العباس وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، فخرج ﷺ متوكئاً على عليّ والفضل، وتقدم العباس أمامهم والنبي معصوب الرأس يخط برجليه، حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر، وثار الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث الله فأخلد فيكم؟ ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[1] وإن الأمور

(١) سورة العصر آية ١ ـ ٣.

تجري بإذن الله ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾(١) وأوصيكم بالأنصار خيراً، فإنهم الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم في الثمار؟ ألم يوسعوا لكم في الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخَصاصة؟ ألا فمن ولّي أن يحكم بين رجلين، فليقبلْ من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم: ألا وإني فَرَطٌ (٢) لكم وأنتم لاحقون بي. ألا فإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يرده عليَّ غداً فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغي».

وبينما المسلمون في صلاة الفجر من يوم الإثنين ثالثَ عشرَ ربيع الأول، وأبو بكر يصلي بهم، وإذا برسول الله ﷺ قد كشف سجف (٣) حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبه ليصل الصف، وظن أن رسول الله يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله، فأشار إليهم بيده أن أتمُّوا صلاتكم ثم دخل وأرخى الستر.

وفاة رسول الله ﷺ

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله ﷺ دنياه ولحق بمولاه، وكان ذلك في يوم الإثنين ١٣ ربيع أول سنة ١١ (٨ يونيو سنة ٦٣٣) فيكون عمره عليه الصلاة والسلام ٦٣ سنة قمرية كاملة وثلاثة أيام، وإحدى وستين شمسية وأربعة وثمانين يوماً، وكان أبو بكر غائباً بالسُّنْح وهي منازل بني الحارث بن الخزرج عند زوجه حبيبة بنت خارجة بن زيد، فسلّ عمر سيفه

---

(١) سورة محمد آية ٢٢.
(٢) سابقكم.
(٣) ستار الحجرة.

وتـوعَّد من يقـول مات رسـول الله، وقال: إنمـا أرسل إليـه كما أرسـل موسى فلبث عن قومه أربعين ليلة. والله إني لأرجـو أن يقطع أيـدي رجال وأرجلهم، فلما أقبل أبو بكر وأخبر الخبر دخل بيت عائشة، وكشف عن وجه رسـول الله، فجشـا يقبله ويبكي ويقول: تـوفي والذي نفسي بيده، صلوات الله عليـك يـا رسول الله ما أطيبك حيّاً وميتاً! بأبي أنت وأمـي، لا يجمع الله عليك مـوتتين، ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ألا من كان يعبد محمـداً فإن محمـداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت» وتـلا قولـه تعالى:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾(١) وقـولـه: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(٢) قال عمـر: والله لكأني لم أتـل هذه الآية قط، ثم مكث عليه الصلاة والسلام في بيته بقية يوم الإثنين وليلة الثلاثـاء ويـومه وليلة الأربعـاء، حتى انتهى المسلمون من إقـامـة خليفـة عليهم فغسِّـل ودفن، وكان الذي يغسله علي بن أبي طالب، ويساعـده العباس وابنـاه الفضل وقُثَم وأسامة بن زيد وشُقْران مولى رسول الله، وكفِّن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عِمامة. ولما فرغوا من تجهيزه وضـع على سريـره في بيته، ودخـل الناس عليه أرسالاً متتابعين يصلون عليه ولم يؤمِّهم أحد، ثم حفر له لحـد في حجرة عائشة حيث توفي وأنزله القبر علي والعباس وولداه الفضل وقُثَم، ورشّ قبره بلال بالماء، ورُفع عن الأرض قدر شبر.

تـوفي رسول الله ﷺ وتـرك للمسلمين مـا إن اتبعـوه لم يضـرهم شيء: كتـاب الله الذي لا يـأتيه البـاطل من بين يـديْه ولا من خلفـه تنزيـل من حكيم حميد، وترك أصحابه البـررَة الكرام يـوضحون الـدين، ويتممون فتـح البلاد، ويظهرون في الدنيا شمس الدين الإسلامي القويم، حتى يتم الله كلمته ويحق وعده، وقد فعل. فنسأل الله أن يقدرنا على أداء شكره على هذه المنة العظمى والنعمة الكبرى.

---

(١) سورة الزمر آية ٣٠.

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شمائله عليه الصلاة والسلام

منح الله سبحانه نبيَّنا ﷺ من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممن قبله أو بعده. ولا بد أن نأتي لك في هذا الباب[1] بنبذة يسيرة من محاسن صفاته وأحاسن آدابه، لتكون لك أنموذجاً تسير عليه، حتى تكون على قدم نبيك ﷺ ، فتستحق الحمد في الدنيا والذخر في الأخرى، فاعلم أرشدني الله وإياك وهدانا للصراط السوي، أن خصال الجلال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي اقتضته الجِبِلَّة وضرورة الحياة، ومكتسب ديني، وهو ما يحمد فاعله ويقرب إلى الله زلفى. فأما الضروري: فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان في جِبِلَّته عليه الصلاة والسلام من كمال الخلقة، وجمال الصورة، وقوة العقل، وصحة الفهم، وفصاحة اللسان، وقوة الحواس والأعضاء، واعتدال الحركات، وشرف النسب، وعزة القوم، وكرم الأرض، ويلحق به ما تدعو ضرورة الحياة إليه من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه. أما المكتسبة الأخروية: فسائر الأخلاق العليَّة والآداب الشرعية من: الدين، والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب، والمعاشرة، وأخواتها. وهي التي يجمعها حسن الخلق.

فإذا نظرت رعاك الله إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة وفي جبلَّة الخلقة، وجدته عليه الصلاة والسلام حائزاً لجميعها، محيطاً بشتات

(١) جل ما ذكر في الشمائل والمعجزات مختصر من كتاب (الشفاء) للقاضي عياض رحمه الله.

محاسنها. فأما الصورة وجمالها وتناسب أعضائه في حسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك، من أنه ﷺ كان أزهر اللون[1] أدْعج[2] أنْجَل[3] أشْكَل[4] أهدب الأشْفار[5] أبلج[6] أزجّ[7] أقنى[8] أفلج[9] مدوّر الوجه، واسع الجبين، كثّ اللحية تملأ صدره، سواء البطن، عظيم الصدر، عظيم المنكبين[10] ضخم العظام عَبْل[11] العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين، سائل الأطراف، أنور المتجرد، دقيق المسرُبَة[12] ربْعة القد، ليس بالطويل البائن[13] ولا القصير المتردد[14]. ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ، رَجل الشعر، إذا افتر ضاحكاً افتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام، وإذا تكلم رُئي كالنور يخرج من بين ثناياه، أحسن الناس عنقاً ليس بمُطهَّم[15] ولا مكلْثَم[16]، متماسك البدن، ضرب اللحم. قال البراء بن عازب: ما رأيت من ذي لمة سوداء في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ، وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في

---

(١) نير اللون أو حسنه.
(٢) شديد سواد الحدقة مع سعة فيها.
(٣) واسع العين مع حسن.
(٤) في بياض عينيه حمرة.
(٥) كثير شعر حروف الأجفان.
(٦) مضيء الوجه مشرقه.
(٧) دقيق الحاجبين في طول.
(٨) مرتفع قصبة الأنف مع احديداب يسير فيها.
(٩) مفرج بين الثنايا والرباعيات.
(١٠) المنكب مجمع رأس العضد والكتف.
(١١) ضخم.
(١٢) المسربة من شعر دقيق من الصدر إلى البطن.
(١٣) مفرط الطول.
(١٤) المتناهي في القصر.
(١٥) المطهم البائن الكثير اللحم
(١٦) المكلثم صغير الذقن.

الجُذُر. وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألأ وجهه تـلألؤ القمر ليلة البـدر. وقال علي كرم الله وجهه في آخر وصفه له: من رآه بديهة هابه، ومن خالـطه معرفـة أحبه، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ .

وأما نظافة جسمه وطيب ريحهـه وعرقـه ونزاهتـه عن الأقذار، وعـورات الجسد، فكان قد خصه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجـد في غيره، ثم أتمها بنظافة الشرع. قال عليه الصلاة والسلام: بُني الدين على النظافة، وقال أنس: ما شممت عنبراً قطّ ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريـح رسول الله ﷺ . وعن جابر بن سمرة أنه عليه الصلاة والسلام مسح خـدَّه، قال: فـوجدت ليـده بـرداً وريحاً كـأنما أخـرجها من جُؤنـة عطار. قـال غيـره: مسَّهـا بـطيب أو لم يمسَّهـا، يصافـح المصافـح فيظل يـومـه يجـد ريحهـا، يضـع يـده على رأس الصبي، فيُعرف من بين الصبيان بـريحها. وروى البخـاري في تاريخـه الكبير عن جابر: لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكـه من طيبه.

وأما وفور عقله ﷺ وذكاء لبِّه، وقوة حواسـه، وفصاحـة لسانـه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله، فلا مرية أنه كـان أعقل النـاس وأذكاهم. ومن تـأمل تدبيره أمْـر بواطن الخلق وظـواهرهم وسيـاسته للعـامة والخـاصة، مـع عجيب شمائله وبديـع سيره، فضـلاً عما أفاده من العلم وقرَّره من الشـرع، دون تعلـم سـابق، ولا ممارسـة تقدمت، ولا مـطالعة للكتب، لم يمتـر في رجحان عقله وثُقوب فهمه لأول بديهة. وكان عليه الصلاة والسلام إذا قـام في الصلاة يـرى من خلفـه كمـا يـرى من أمـامـه، وبـذلـك فسـر قـولـه تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[1] وقالت عائشة: كان عليه الصلاة والسلام يرى في الـظلمة كمـا يـرى في الضوء، وكـان يعد في الثريا أحـد عشر نجمـاً، وجاءت الأخبـار أنه صرع رُكانة أشد أهل وقته، وكان دعاه إلى الإسلام. وقال أبو هريرة: ما رأيت

---

(١) الشعراء ٢١٩

أحداً أسرع من رسول الله ﷺ في مشيه، كأنما الأرض تطوى له. إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث. وفي صفته عليه الصلاة والسلام أن ضحكه كان تبسُّماً، إذا التفت التفت معاً، وإذا مشى مشى تقلعاً، كأنما ينحط من صَبَب.

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يُجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخُص ببدائع الحِكَم، وعُلِّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله. من تأمل حديثه وسبره علم ذلك وتحققه، وليس كلامه مع قريش ككلامه مع أقْيال حضر موت، وملوك اليمن، وعظماء نجد، بل يستعمل لكل قبيلة ما استحسنته من الألفاظ، وما انتهجته من طرق البلاغة ليبيّن للناس ما نُزِّل إليهم وليحدّث الناس بما يعلمون.

وأما كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه، فقد ألف الناس فيها الدواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما لا يُوازى فصاحة وبلاغة كقوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». وقوله: «الناس كأسنان المشط»، «والمرء مع من أحب»، «ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له»، «والناس معادن»، «وما هلك امرؤ عرف قدره»، «والمستشار مؤتمن»، «ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم». وقوله: «أسلم تسلم. وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين»، «وإن أحبَّكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون». وقوله: «لعله كان يتكلم بما لا يعنيه أو يبخل بما لا يغنيه» وقوله: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً». ونهيه عن «قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات، ووأد البنات»، وقوله: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق

الناس بخلق حسن»، «وخير الأمور أوساطها». وقوله: «أحببْ حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما»،وقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة»، وقوله في بعض دعائه: «اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري، وتلمّ بها شعثي، وتُصلح بها غائبي وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهم إني أسألك الفوز في القضاء، ونُزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء» إلى غير ذلك مما روته الكافّة عن الكافّة عن مقاماته ومحاضراته، وخطبه وأدعيته، ومخاطباته وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره، وحاز سبقاً لا يقدر قدره. وقد قال أصحابه: ما رأينا الذي هو أفصح منك، فقال: «وما يمنعني وإنما أُنزل القرآن بلساني، لسانٍ عربي مبين»، وقال مرة أخرى: أنا أفصح العرب بيْدَ أني من قريش، ونشأت في بني سعد». جمع بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مددُه الوحي الذي لا يُحيط بعلمه بشر.

وأما شرف نسبه، وكرم بلده ومنشئه، فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مُشكل، ولا خفي منه، فإنه نخبة بني هاشم ونخبة قريش وصميمها، وأشرف العرب، وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة من أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده. وقد قدمنا لك في أول الكتاب ما فيه الكفاية في هذا المقام.

أما ما تدعو إليه ضرورة الحياة، فمنه ما الفضل في قلته، ومنه ما الفضل في كثرته، ومنه ما تختلف الأحوال فيه. فالأول كالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء قديماً تتمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما، لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النَّهم والحرص والشَّره وغلبة الشهوة، مسبِّب لمضار الدنيا والآخرة، جالب لأدواء الجسد وخُثارة النفس وامتلاء الدماغ، وقلته دليل على القناعة، وملك النفس وقمع الشهوة، مسبِّب للصحة، وصفاء الخاطر، وحدة

الذهن، كما أن النوم دليل على الفَسولة[١] والضعف، وعدم الذكاء والفطنة، مسبِّب للكسل وعادة العجز وتضييع العمر في غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته. وكان عليه الصلاة والسلام قد أخذ من الأكل والنوم بالأقل وحض عليه. قال عليه الصلاة والسلام: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه! حسب ابن آدم لقيمات يقمن صُلبه، فإن كان لا محالة، فثلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه». ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب. وقالت عائشة رضي الله عنها: لم يمتلىء جوف النبي ﷺ شبعاً قط، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهّاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب. وفي صحيح الحديث: «أما انا فلا آكل متكئاً» والاتكاء: هو التمكن للأكل والتقعدد في الجلوس له كالمتربع وشبهه من تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه والنبي عليه الصلاة والسلام إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز[٢] مُقْعياً ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد». وكذلك نومه كان قليلاً ومع ذلك فقد قال: «إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي».

وأما ما الفضل في كثرته فكالجاه، وهو محمود عند العقلاء عادة، وبقدر جاهه عِظَمه في القلوب، وقد قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾[٣] وكان النبي ﷺ قد رُزق الحشمة والمكانة في القلوب، والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه ويقصدون أذاه في أنفسهم خفية، حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته كما ذكرنا ذلك مراراً، وقد كان يُبْهت ويَفْرق لرؤيته من لم يره، كما روي عن قيلة أنها لما رأته أرعدت من الفرق فقال: «يا مسكينة عليك

---

(١) الردى المسترذل.

(٢) هيئة جلوس النبي ﷺ للطعام أن يفترش رجله اليسرى وينصب اليمنى وهذه هيئة المستوفز المقعي. والوفز بسكون الفاء وفتحها العجلة.

(٣) سورة آل عمران آية ٤٥.

السكينة». وفي حديث أبي مسعود أن رجلاً قام بين يديه فأرعد، فقال لـه عليه الصلاة والسلام: «هون عليك فإني لست بملك».

وأما عظيم قدره بالنبوة، وشريف منزلته بالرسالة، وأناقة رتبته بالاصطفاء والكرامة في الدنيا، فأمر هو مبلغ النهاية، ثم هو في الآخرة سيد ولد آدم.

وأما ما تختلف فيه الحالات في التمـدح به، والتفـاخر بسببـه والتفضيل لأجله، ككثرة المال، فصاحبه على الجملة معظّم عند العامة لاعتقادها توصُّله بـه إلى حاجتـه وتمكنه في أغـراضه، وإلا فليس فضيلة في نفسـه، فمتى كان بهذه الصورة وصاحبه منفقا له في مهمـاته، ومهمـات من قصده وأمله يصـرفه في مواضعه، مشتريـاً بـه المعالي والثنـاء الحسن، والمنزلـة في القلوب، كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا صرفه في وجـوه البر وأنفقـه في سبيل الخيـر، وقصد بـذلك الله تعـالى والدار الآخـرة، كان فضيلة عنـد الكل بكـل حال، ومتى كان صاحبه مُمْسكاً له غير موجّهه وجوهـه، حريصـاً على جمعه، عاد كثره كالعدم وكان منقصة في صاحبه، ولم يقف به على جدُد السلامة، بل أوقعه في وهدة رذيلة البخل ومذمة النذالـة. فالتمـدُّح بالمـال ليس لذاتـه، بل للتـوسل بـه إلى غيره وتعـريفه في متصـرفـاتـه ونبينـا ﷺ أوتي خـزائن الأرض ومفـاتيـح البـلاد، وأحلت لـه الغنـائم، وفتـح عليـه في حيـاتـه بـلاد الحجـاز واليمن وجميع جزيرة العرب، ومـا دانى ذلك من الشـام والعراق، وجلب إليـه كثير من أخماسها وجزيتها وصدقاتها، وهـاداه جماعـة من ملوك الأقاليم، فمـا استأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهماً، بل صرفـه مصارفـه، وأغنى به غيـره، وقوّى به المسلمين، وقال: «ما يسرني أن لي أُحُداً ذهباً يبيت عندي منـه دينار إلا دينـاراً أرصده لـديني» وأتته دنـانير مـرة فقسمها وقـال: «الآن استـرحت». ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله، واقتصر في نفقته وملبسه ومسكنه على مـا تدعو ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجـده، فيلبس في الغالب الشملة والكساء الخشن، والبُرد الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الـديباج المخـوصة بـالذهب، ويـرفع لمن لم يحضـر. فأنت تـرى رسول الله ﷺ حـاز

فضيلة المال بالزهد فيه، وإنفاقه على مستحقيه.

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة، وهي المسماة بحسن الخلق، فجميعها قد كانت خلق نبينا ﷺ على الانتهاء في كمالها، والاعتدال إلى غايتها حتى أثنى الله تعالى بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] قالت عائشة: كان خلُقه القرآن، يرضى برضاه ويسخط بسخطه. وقال عليه الصلاة والسلام: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقال أنس: كان عليه الصلاة والسلام أحسن الناس خلُقاً. وكانت له هذه الآداب الكريمة، كما كانت لإخوانه من الأنبياء جِبلّة خلقوا عليها، ثم يتمكن الأمر لهم، وتترادف نفحات الله عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم، حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة، دون نهاية ولا ممارسة، وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الجميلة كثيرة، ولكنا نذكر أصولها ونشير إلى جميعها ونحقق وصفه عليه الصلاة والسلام بها إن شاء الله.

فأصل فروعها، وعناصر ينابيعها، ونقطه دائرتها، العقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرع عن هذا ثقوب الرأي، وجودة الفطنة، والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل، وقد بلغ عليه الصلاة والسلام منه ومن العلم الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه، يعلم ذلك من تتبع مجاري أحواله، واطراد سيره وطالع جوامع كلِمه، وحسن شمائله، وبدائع سِيَره، وحكم حديثه، وعلمه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء، وسِيَر الأمم الخالية وأيامها، وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفيسة والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة وإشاراته حجة، كالطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك، دون تعليم ولا مدارسة، ولا مطالعة كتب من

---

(١) سورة القلم آية ٤.

تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم، بل نبي أمي لا يعرف شيئاً من ذلك، شرح الله صدره. وأبان أمره، وعلَّمه. وبحسب عقله كانت معارفه عليه الصلاة والسلام إلى سائر ما علَّمه الله وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان، وعجائب قدرته وعظيم ملكوته. قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾(١).

وأما الحلم والاحتمال والعفو مع القدرة، والصبر على ما يكرهه، فمما أدّب الله به نبيه فقال: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٢) وقد سأل عليه الصلاة والسلام جبريل عن تأويلها، فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وقال له: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(٣) وقال: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤) وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٥) وقد تضافرت الأخبار على اتصافه عليه الصلاة والسلام بنهاية هذه الأوصاف. فما من حليم إلا عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة، ونبينا لا يزيد مع كثرة الإيذاء إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً. قالت عائشة رضي الله عنها: ما خُيِّر عليه الصلاة والسلام في أمرين قطّ إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تُنتَهك حرمة الله، فينتقم لله بها. ولما فعل به المشركون ما فعلوا في أُحُدٍ وطُلِبَ منه أن يدعو عليهم قال: «اللهمَّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون» وحسبك في هذا الباب ما فعله مع مشركي قريش الذين آذوه واستهزأوا به وأخرجوه من دياره وهو وأصحابه، ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيرهم من مشركي العرب، حتى تمالأ عليه جمعهم، ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد

---

(١) سورة النساء آية ١١٣.

(٢) سورة الأعراف آية ١٩٩.

(٣) سورة لقمان آية ١٧.

(٤) سورة النور آية ٢٢.

(٥) سورة الشورى آية ٤٣.

على أن عفا وصفح وقال: ما تقولون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخٌ كريم وابن أخ كريم فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وعن أنس: كنت مع النبي عليه الصلاة والسلام وعليه بُرد غليظ الحاشية، فجذبه أعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثّرت حاشية البُرد في صفحة عنقه، ثم قال: يا محمد احمل لي على بعيريّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فسكت النبي ثم قال: المال مال الله وأنا عبده، ثم قال: ويُقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي، قال: لا، قال: لم؟ قال: لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة، فضحك عليه الصلاة والسلام ثم أمر أن يُحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر قالت عائشة: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظُلِمَها قطّ، ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى، وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادماً ولا امرأة، فصلى الله تعالى عليه وأقرَّ عينه باتباع المسلمين سنّته.

وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة، فكان عليه الصلاة والسلام لا يوازى في هذه الأخلاق الكريمة ولا يُبارى. وصفه بهذا كل من عرفه، قال جابر رضي الله عنه: ما سئل عليه الصلاة والسلام عن شي فقال لا. وقال ابن عباس: كان عليه الصلاة والسلام أجود الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة، وقالت خديجة في صفته عليه الصلاة والسلام مخاطبة له: إنك تحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم. وحسبك شاهداً في هذا الباب ما فعله مع هوازن من ردّ السَّبي إليها، وما فعله يوم تقسيم السبي من إعطاء المؤلَّفة قلوبهم عظيم الأعطية وقد استوفينا ذلك في موضعه. وحُمل إليه عليه الصلاة والسلام تسعون ألفاً، فوضعها على حصير وأخذ يقسمها فما قام حتى فرغ منها. وجاءه رجل فسأله فقال: ما عندي شيء ولكن ابتعْ عليَّ، فإذا جاءني شيء قضيناه فقال له عمر: ما كلّفك الله ما لا تقدر عليه. فكره ذلك عليه الصلاة والسلام فقال له رجل

من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً. فتبسّم عليه الصلاة والسلام وعرف البشر في وجهه وقال: بهذا أُمِرت. والأخبار بجوده وكرمه عليه الصلاة والسلام كثيرة يكفي منها لتعليمك ما ذكرناه.

ومنها الشجاعة والنجدة، فكان عليه الصلاة والسلام منهما بالمكان الذي لا يُجهل، وقد حضر المواقف الصعبة، وفر الكماة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، وما من شجاعٍ إلا أحصيت له فرّة وحفظت عنه جولة سواه. وحسبك ما فعله في حُنين وأُحد مما ذكرناه مستوفى. وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ، وقال علي: إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرّت الحَدَق اتّقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً. وقال أنس: كان عليه الصلاة والسلام أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قِبَل الصوت، فتلقاهم عليه الصلاة والسلام راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ والسيف في عنقه، وهو يقول: «لن تراعوا».

وأما الحياء والإغضاء فكان عليه الصلاة والسلام أشد الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات اغضاءً، قال أبو سعيد الخدري: كان عليه الصلاة والسلام أشد حياءً من العذراء في خِدْرها. وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه، وكان عليه الصلاة والسلام لطيف البشرة رقيق الظاهر، لا يَشافِهُ أحداً بما يكرهه حياءً وكرم نفس. قالت عائشة: كان عليه الصلاة والسلام إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا وكذا، بل يقول: ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا، ينهى عنه ولا يسمّي فاعله. وقالت رضي الله عنها: لم يكن عليه الصلاة والسلام فاحشاً ولا متفحِّشاً ولا صخّاباً بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وأما حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه مع أصناف الخلق، فمما انتشرت

بـه الأخبار الصحيحـة، قال علي رضي الله عنـه: كان عليـه الصـلاة والسـلام أوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأليَنهم عـريكة، وأكـرمهم عشرة، وكـان عليه الصـلاة والسلام يؤلفهم ولا ينفّـرهم ويكرم كـريم كل قـوم ويوليـه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحـد منهم بشره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحـداً أكرم عليه منه، من جالسـه أو قاربـه لحاجـة صابـره حتى يكون هـو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بهـا أو بميسور من القـول، قـد وسـع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء، بهذا وصفـه ابن أبي هـالـة، وكـان دائم البشـر سهـل الخلق ليّن الجـانب، ليس بفظٍّ ولا غليظ لا صخاب ولا فحاش ولا عيَّـاب ولا مدّاح، يتغـافل عمـا لا يشتهي ولا يؤيس منه. قال تعـالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾(١) وقال تعـالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾(٢) وكـان عليه الصـلاة والسلام يجيب من دعـاه، ويقبل الهـدية، ولـو كانت كُراعـاً، ويكافىء عليهـا، وكان يمـازح أصحابـه ويخالـطهم ويحادثهم، ويلاعب صبيانهم ويجلسهم في حِجـره ويجيب دعوة الحـر، والعبد، والأمـة، والمسكين، ويعـود المرضى في أقصى المـدينة، ويقبـل عذر المعتـذر. وقال أنس: مـا التقم أحد أذن النبي يحـادثه فنحّى رأسـه، حتى يكون الـرجـل هـو الذي ينحّي رأسه، وما أخذ أحد بيده فيـرسل يـده حتى يرسلهـا الآخر. وكـان يبدأ من لقيـه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم يُر قط مادّاً رجليـه بين أصحابه حتى لا يضيِّق بهما على أحد، يكرم من يدخـل عليه، وربمـا بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، يعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويكنّي أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه حتى

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩.
(٢) فصلت ٣٤.

يتجوز فيقطعه بنهي أو قيام. وكان أكثر الناس تبسُّماً، وأطيبهم نفساً، ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب.

وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق، فقد وصفه الله بها في قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. روي أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم قال: أأحسنتُ إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار اليهم أن كفّوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئاً، ثم قال: أأحسنتُ إليك؟ فقال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: إنك قلت، ما قلت، وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديّ، حتى يذهب ما في صدورهم عليك. قال: نعم، فلما كان الغد ـ أو العشيّ ـ جاء فقال عليه الصلاة والسلام: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدْناه، فزعم أنه رضي أكذلك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: مثَلي ومثَلُ هذا مثَلُ رجل له ناقة شردتْ عليه، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها: خلّوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردَّها حتى جاءت واستناخت، وشدَّ عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار. وقال عليه الصلاة والسلام: لا يبلّغني أحد منكم عن أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر. وكان يسمع بكاء الصبي فيتجوَّز في صلاته. وعن ابن مسعود كان عليه الصلاة والسلام يتخوَّلنا بالموعظة مخافة السآمة علينا.

وأما خلُقه عليه الصلاة والسلام في الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم، فروي عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعت النبي عليه الصلاة والسلام

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٨.

ببيع قبل أن يُبعث، وبقيت له بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاثة فجئت فإذا هو مكانه، فقال: «يا فتى لقد شقَقْت عليَّ، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك»! وكان إذا أُتي بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة. وكان عليه الصلاة والسلام يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم. ووفد عليه وفد فقام يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نكفيك. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مُكرمين وإني أحب أن أكافئهم. وفي حديث خديجة: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتَقْري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

وأما تواضعه عليه الصلاة والسلام، على علو منصبه ورفعة رتبته، فكان أشد الناس تواضعاً وأعدمهم كبراً. وحسبك أنه خيِّر بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً. وخرج عليه الصلاة والسلام مرة على أصحابه متوكئاً على عصا فقاموا، فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظّم بعضهم بعضاً، وقال: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد. وكان يركب الحمار ويُردف خلفه، ويعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس جلس. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُطْروني كما أَطْرَت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله». وحج عليه الصلاة والسلام على رَحْل رثّ[1] وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم فقال: اللهم أجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة. هذا، وقد فتحت عليه الأرض وأهدى في حجه هذا مائة بدَنة، ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طاطأ على رحله رأسه حتى كاد يمسُّ قادمته تواضعاً لله تعالى. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل وقال للوازن: زِنْ وأرجِحْ، ثم قال: فوثب إلى يد رسول الله ﷺ يقبّلها، فجذب يده وقال: هذا تفعله

(١) رحْل بالٍ وممزق.

الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم، ثم أخذ السراويل فـذهبت لأحمله قال: صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله.

وأما عدله عليه الصلاة والسلام وأمانته، وعفّته وصدق لهجتـه فكان آمن الناس وأصدقهم لهجة منذ كان. اعترف له بذلك محادُّوه وأعداؤه وكان يسمى قبل نبوته الأمين. وقد قدمنا ذلك في سيرته عليه الصـلاة والسلام قبـل النبوة. وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام، ما لمستْ يـده يد امـرأة قط لا يملك رقَّهـا. قال أبـو العباس المبـرّد: قسم كسرى أيـامه فقـال: يوم الـريـح يصلح للنـوم، ويـوم الغيم للصيـد، ويـوم المـطـر للهـو والشـرب، ويـوم الشمس للحوائج. ولكن نبيَّنـا عليه الصـلاة والسلام جـزَّأ نهاره ثـلاثة اجـزاء: جزء لله وجزء لأهله وجزء لنفسه، ثم جزَّأ جزأه بين الناس فكان يستعين بالخـاصة على العامة ويقول: «أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغي، فإن من أبلغ حـاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر» وكان عليه الصـلاة والسلام لا يـأخذ أحداً بذنب أحد، ولا يصدق أحد على أحد.

وأما وقاره عليه الصلاة والسلام وصمته وتؤدته ومروءتـه، وحسن هديـه، فكان عليه الصـلاة والسلام أوقـر الناس في مجلسـه، لا يكاد يُخـرج شيئاً من أطرافه، وكان إذا جلس احْتبى بيديه، وكذلك كـان أكثر جلوسـه محتبياً. وكـان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة، يُعرض عمَّن تكلم بغيـر جميل، وكـان ضحكه تبسُّماً، وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير، وكان ضحِك أصحابـه عند التبسُّم توقيراً له واقتداءً به، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لا تُرفع فيه الأصوات ولا تُؤبَن فيه الحُرم[1]. إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنمـا على رؤوسهم الـطيـر. وقـال ابن أبي هـالـة: كـان سكـوتـه ﷺ على أربـع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر. وقـالت عائشـة رضي الله عنها: كـان ﷺ يحدِّث حديثاً لو عدَّه العادّ لأحصاه، وكان يحب الطِّيب والرائحة الحسنـة ويستعملهما

---

(١) لا تذكر فيه الحرم بقبيح.

كثيراً ويحضّ عليهما. ومن مروءته ﷺ نهيه عن النفخ في الطعام والشراب والأمر بالأكل مما يلي، والأمر بالسِّواك وإنقاء البراجم والرواجب (فواصل الأصابع من ظاهر الكف وباطنها).

وأما زهده عليه الصلاة والسلام فقد قدمنا لك فيه ما فيه الكفاية. ـ وحسبك شاهداً على تقلله من الدنيا وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقت إليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها، أن توفي النبي عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله، وهو يدعو ويقول: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما شبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله، وقالت: ما ترك عليه الصلاة والسلام ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً، ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفٍّ لي، وقال: إني عرض عليَّ أن تجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب أجوع يوما وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك. وقالت عائشة: إنا كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً، إن هو إلا التمر والماء. وعن أنس: ما أكل عليه الصلاة والسلام على خِوان ولا في سكُرُّجَة ولا خبز له مرقق ولا رأى شاة سميطاً[1] قط. وفي حديث عائشة: كان فراش رسول الله ﷺ في بيته مسْحاً نثْنيه ثنيتين، فينام عليه فثنيناه ليلة بأربع، فلما أصبح قال: ما فرشتم لي؟ فذكرنا له ذلك فقال: ردُّوه بحاله فإن وطأته منعتني الليلة صلاتي، وقالت عائشة: لم يمتلىء جوف النبي عليه الصلاة والسلام شبعاً ولم يبعث شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى. وإن كان ليظل جائعاً يلتوي طول ليلته من الجوع، فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها، ولقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به، وأمسح بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلَّغت من الدنيا بما يقوتُك، فيقول: يا عائشة ما لي وللدنيا، إخواني

---

(١) السميط: الذبيحه المشوية بجلدها.

من أُولي العـزم من الرسـل صبروا على مـا هـو أشـد من هـذا، فمضـوا على حالهم، فقدمـوا على ربهم فأكـرم مآبهم وأجـزل ثوابهم. فـأجدني أستحي إن تــرفَّهت في معيشتي أن يقصِّـر بي غــداً دونهم. ومـا من شيء أحب إليَّ من اللحوق بإخواني وأخلاَّئي. قالت: فما أقامُ بعدُ إلا أشهـراً حتى توفي صلوات الله عليه وسلامه.

وأمـا خوفـه من ربه وطـاعته لـه وشدة عبـادته، فعلى قـدر علمه بـربِّـه، ولذلك قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، إني أرى مـا لا ترون وأسمع مـا لا تسمعون أطَّت (صـوَّتَت) السماء وحقَّ لهـا أن تئِطَّ ما فيهـا موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله، والله لو تعلمـون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ومـا تلذَّذتم بالنسـاء على الفُرش، ولخـرجتم إلى الصُّعُـدات تجأرون إلى الله تعـالى، لـوددت أني شجـرة تعضـد. وكـان عليـه الصلاة والسلام يصلي حتى ترِمَ قدماه فقيل له: أتكلف هذا وقـد غفر الله لـك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكـون عبداً شكـوراً!». وقالت عـائشة رضي الله تعـالى عنها: كـان عمل رسـول الله ﷺ ديمة، وأيكم يـطيق ما كـان يطيق؟ وقالت: كان يصوم حتى نقـول لا يفطر، ويفـطر حتى نقول لا يصـوم. وقال عوف بن مالك: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة، فاستاك ثم توضأ، ثم قـام يصلي، فقمت معه فـاستفتح البقـرة فلا يمـر بآيـة رحمة إلا وقف فسـأل، ولا مر بـآية عـذاب إلا وقف وتعوذ، ثم ركـع فمكث بقدر قيـامه يقول: سبحان ذي الجبـروت والملكوت والكبـرياء والعـظمة، ثم سجـد وقال مثل ذلك. ثم قرأ آل عمران ثم سـورة سورة يفعـل مثل ذلـك. وقال بعضهم: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المِرجل وفي وصف ابن أبي هالة: كان متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحـة. وعن علي رضي الله عنـه قال: سـألت رسول الله عليـه الصلاة والسـلام عن سنَّته فقـال: «المعرفـة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشـوق مركبي، وذكـر الله أنيسي والثقـة كنزي، والحـزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبـر ردائي، والـرضـا

غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهادخلقي، وقرة عيني في الصلاة، وثمرة فؤادي في ذكره، وغمي لأجل أمتي، وشوقي إلى ربي». فجزاه الله من نبي عن أمته خيراً. ورحم الله عبداً تأمل في هذه الشمائل الكريمة والخصال الجميلة، فتمسك بها واتبع رسول الله ﷺ، ليحوز شفاعته يوم الفزع الأكبر ويرضى الله عنه، فنسألك اللهم التوفيق لما فيه الخير منك، وكرمك يا أرحم الراحمين.

إذا تأمل المتأمل ما قدمناه من جميل أثر هذا السيد الكريم، وحميد سيره وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله، وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله، ولم يمْتر في صحة نبوّته وصدق دعوته، وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه والإيمان به كعبد الله بن سلام، فإنه قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. وروى مسلم أن ضماداً لما وفد عليه قال له صلى الله عليه وسلم: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهد الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» فقال له ضماد: أعِدْ عليَّ كلماتك هؤلاء فقد بلغن قاموس البحر هات يدك أبايعك. ولما بلغ ملك عُمان أن رسول الله عليه الصلاة والسلام يدعوه إلى الإسلام، قال: والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له، وإنه يغلب فلا يبطر ويُغلب فلا يضجر، ويفي بالعهد وينجز الموعود، وأشهد أنه نبي. وقال ابن رواحة:

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيَّنة لكانَ منظرهُ يُنبيك بالخطر

كيف وقد أظهر الله على يده تصديقاً لدعوته من المعجزات ما لا يفي به العدّ، فهو أكثر الأنبياء آية وأظهرهم برهاناً. وسنذكر لك في هذا الفصل من الآيات ما تقرُّ به عينك ويزداد به يقينك، مما رواه الجمّ الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم وأثبته المحدثون في صِحاحهم. ونبدأ منها بأظهرها شأناً وأوضحها بياناً وهو القرآن الشريف وإعجازه:

اعلم أن كتاب الله العزيز مُنْطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة:

أولها حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام، قد خصّوا من البلاغة والحِكم بما لم يُخصّ به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بديهاً في المقامات وشديد الخَطْب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب ويذهبون الإحن ويهيجون الدمن، ويجرئون الجبان ويصيرون الناقص كاملاً ويتركون النبيه خاملاً. منهم البدوي ذو اللفظ الجَزْل والقول الفصل، والكلام الفخم والطبع الجوهري والمنزع القوي، ومنهم الحَضري ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية، وكلاهما له في البلاغة الحجة البالغة والقوة الدامغة، والقدح الفالج والمهيج الناهج، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حوَوْا فنونها واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعلوا صرحاً لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين وتفننوا في الغث والسمين، وتقاولوا في القُلّ والكُثْر، وتساجلوا في النظم والنثر، فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1] أحكمت آيته وفصّلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل مقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت في الحسن مطالعه، وحوت كل البيان مجامعه وبدائعه،

(١) سورة فصلت آية ٤٢.

واعتدل مع إيجازه حسن نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه. وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالاً، وأشهر في الخطابة رجالاً وأكثر في الشعر والسجع ارتجالاً، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً، بلغتهم التي بها يتحاورون، ومنازعهم التي عنها يتناضلون، صارخاً بها في كل حين ومقرّعاً لهم بضعة وعشرين عاماً على رؤوس الملأ أجمعين ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[1]. ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾[2]. ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3]. ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾[4]. فلم يزل يقرعهم أشد التقريع ويوبخهم أشد التوبيخ، ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم ويذم آلهتهم وآباءهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والاغتراء بالافتراء وقولهم: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، و ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ و ﴿إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ و ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والمباهتة، والرضا بالدنية كقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[5] و ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾[6] والادعاء مع العجز كقولهم ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾[7] وقد قال لهم ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمُسَيْلِمَة كشف عواره لجميعهم، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم، وإلا لم يخف على أهل

---

(١) سورة يونس آية ٣٨.
(٢) سورة البقرة آية ٢٣ - ٢٤
(٣) سورة الاسراء آية ٨٨.
(٤) سورة هود آية ١٣.
(٥) سورة فصلت آية ٥.
(٦) سورة فصلت آية ٢٦.
(٧) سورة الأنفال آية ٣١.

الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلا غتهم، بل ولوا عنه مدبرين وأتوا إليه مذعنين. وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[2] وقوله: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[3] وقوله: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[4] وقوله:

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[5]. وأشباهها من الآي، بل أكثر آيات القرآن، حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عباراتها وحسن تأليف حرفها وتلاؤم كلمها، وإن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة وفصولاً جمّة، وعلوماً، زواخر ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها. ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البيان آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض، والتئام سرده، وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها. ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة تردّدها، وتناصف في الحسن وجه مقابلتها. ولا نفور للنفوس من ترديدها، ولا مُعاداة لمعاداها.

(الوجه الثاني) من إعجاز القرآن صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت عليه مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٩.

(٢) سورة سبأ آية ٥١.

(٣) سورة فصلت آية ٣٤.

(٤) سورة هود آية ٤٤.

(٥) سورة العنكبوت آية ٤٠.

بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم وتدلّهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر، والإعجاز بكل واحد من النوعين والإيجاز والبلاغة بذاتها أو الاسلوب الغريب بذاته، كل واحد منهما نوع إعجاز، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها.

(الوجه الثالث) من الإعجاز ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوقع، فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر كقوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[1] وقوله عن الروم: ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾[2] وقوله: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[3] وقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[4] وقوله: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾[5]. فكان جميع هذا كما أخبر، فغلبت الروم فارس، ودخلت الناس في الدين أفواجاً واتسع ملك المسلمين حتى كان لهم في وقت من أقصى بلاد الأندلس غرباً الى أقاصي الهند شرقاً، ومن بلاد الأناضول شمالاً الى أقاصي السودان جنوباً. وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[6] فكان كذلك إلى الآن والحمد لله، وقوله: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[7] فكان كذلك في بدر والآية نزلت بمكة، وقوله:

(١) سورة الفتح آية ٢٧.
(٢) سورة الروم آية ٣
(٣) سورة التوبة آية ٣٣.
(٤) سورة النور آية ٥٥.
(٥) سورة النصر آية ١ ـ ٢.
(٦) سورة الحجر آية ٩
(٧) سورة القمر آية ٤٥.

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[1] فكـان كذلـك مما اطلع عليـه قارىء هـذه السيرة، وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم في حلفهم كقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾[2] وقوله: ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾[3] وقولـه: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات البينات.

(الوجه الرابع) ما أنبأ بـه من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذّ من أخبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلّم ذلك، فيورده عليه الصلاة والسلام على وجهه ويأتي به على نصه، فيقر العالم بذلك على صحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه ﷺ أميّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة، لم يغب عنهم ولا جهل حاله أحد منهم. وكثيراً ما كان يسأله كثير من أهل الكتاب عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلوا عليهم منه ذكراً كقصص الأنبياء، وبدء الخلق، وما في الكتب السابقة مما صدَّقه فيها العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها. ولم يؤثر ان واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحاً ولا سقيماً من صحفه، بعد أن قرّعهم ووبّخهم بقوله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[5] ومما يدل على أن أهل الكتاب يعلمون صدقه ما تحدّاهم فيه الله بقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[6] ثم حتم عدم إجابتهم بقوله: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ

(1) سورة التوبة آية ١٤.
(2) سورة المجادلة آية ٨.
(3) سورة آل عمران آية ١٥٤.
(4) سورة النساء آية ٤٦.
(5) سورة آل عمران آية ٩٣.
(6) سورة البقرة آية ٩٤.

أَيْدِيهِمْ)[1] فما سُمع عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو بلسانه، مع أنهم كانوا أحرص الناس على تكذيبه. ومثل ذلك ما فعله أهل نجران حينما دعاهم للمباهلة فأبوا، وقد قدمنا ذلك في فصل وفودهم.

ومما يدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله، وإنافة خطره، حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفوراً، ولهذا قال ﷺ: «إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه، وهو الحكم». وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه إقبالاً، وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به. قال تعالى: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[3]. ومن وجوه إعجاز القرآن كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفّل الله بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[4] وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[5] وسائر معجزات الأنبياء لم يبق إلا خبرها، والقرآن إلى وقتنا هذا حجة قاهرة، ومعارضة ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان وحملة علم اللسان، وأئمة البلاغة، وفرسان الكلام، وجهابذة البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعاند للشرع عتيد، فما منهم من أتى بشيء يؤثر في معارضته، ولا ألَّف كلمتين في مناقضته، ولا قدر فيه على مطعن صحيح، ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزَنْد شحيح، بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاؤه في العجز بيديه، والنكوص على عقبيه.

---

(١) سورة البقرة آية ٩٥.
(٢) سورة الزمر / اية ٢٣.
(٣) سورة الحشر آية ٢١.
(٤) سورة الحجر آية ٩.
(٥) سورة فصلت آية ٤٢.

ولنختم لك هذا الباب بحديثه عليه الصلاة والسلام في القرآن قال: «إن اللَّه أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً، وسنة خالية ومثلاً مضروبا، وفيه نبؤكم وخبر من كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد ولا تنقضي عجائبه، هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج[1]، ومن حكم به أقسط ، ومن عمل به أُجر، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضله اللَّه، ومن حكم بغيره قصمه اللَّه. هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل اللَّه المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوَّم ولا يزيغ فيستعتب».

ومن معجزاته ﷺ انشقاق القمر، وقد قدمنا حديثه مستوفى.

ومن معجزاته ﷺ نبع الماء من بين أصابعه، وتكثيره ببركته، وقد روى هذا الجمُّ الغفير من الصحابة، منهم أنس وجابر وابن مسعود، قال أنس: رأيت رسول اللَّه ﷺ وقد حانت صلاة العصر، فالتمس الناس ماءً للوضوء فلم يجدوه، فأُتي النبي ﷺ بوَضوء، فوضع في الإناء يده وأمر الناس أن يتوضؤوا منه. قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا عن آخرهم، فقيل: كم كنتم؟ قال زهاء ثلاثمائة. وقال ابن مسعود: بينما نحن مع النبي ﷺ وليس معنا ماء، فقال لنا اطلبوا من معه فضلُ ماء، فأُتي بماء فصبَّه في إناء، ثم وضع كفَّه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه. وقال جابر: عطش الناس يوم الحُدَيبية ورسول الله بين يديه رَكوَةٌ فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قيل: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشر مائة، وروى هذه القصة جمع عظيم من الصحابة. ومثل هذا في هذه المواطن الحفيلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدّث به، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جبلت عليه

---

(١) الفلج: الفوز والظفر.

نفوسهم من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل، فهؤلاء قد رأوا هذا وأشاعوه ونسبوا حضور الجمّ الغفير له، ولم ينكر عليهم أحد من الناس ما حدَّثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم له.

ومما يشبه هذا تفجير الماء بِبَرَكَتِهِ، وانبعاثه بمسّه ودعوته، كما ورد عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوكَ، وأنهم وردوا العين وهي تلمع بشيء من ماء مثل الشِّراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء، ثم غسل عليه الصلاة والسلام فيه وجهه ويديه وأعاده فيها، فجرت بماء كثير فاستقى الناس. وفي رواية ابن إسحاق فانخرق من الماء ما له حس كحسّ الصواعق، ثم قال: يوشك يا معاذ، إن طالت بك حياة، أن ترى ما هنا قد مليء جناناً. وقد قدمنا ذلك في غزوة تبوك. ورُوي عن البراء وسلمة بن الأكوع تكثير عين الحديبية بدعوته عليه الصلاة والسلام. وروى أبو قتادة أن الناس شكوا إلى رسول الله العطش في بعض أسفاره فدعا بالميضأة فجعلها في ضِبْنه (ما بين الكشح إلى الإبط) ثم التقم فمها، فالله أعلم أنفث فيها أم لا، فشرب الناس حتى رووا وملأوا كل إناء معهم، فخيِّل لي أنها كما أخذها، مني وكانوا اثنين وسبعين رجلاً. ورويت قصص مشابهة لهذه عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم في محالٍّ مختلفة، بحيث لا يشك أحد في صدقها بعد تضافر الثقات على روايتها.

(ومن) ذلك تكثير الطعام ببركته ودعائه ﷺ، وروى أبو طلحة أنه عليه الصلاة والسلام أطعم ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير، جاء بها أنس تحت إبطه، فأمر بها عليه الصلاة والسلام فَفُتِّت وقال فيها ما شاء الله أن يقول. وروى جابر أنه عليه الصلاة والسلام أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعَناق، وقال جابر: فأُقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانصرفوا، وإن بُرْمَتَنا لتغطّ كما هي وإن عجيننا ليخبز، وكان عليه الصلاة والسلام قد بصق في العجين والبُرمة وبارك، وروى أبو أيوب أنه صنع لرسول الله وأبي بكر طعاماً يكفيهما، فأطعم منه عليه الصلاة والسلام مائة وثمانين رجلاً، وروى مثل ذلك

كثير من الصحابة، كعبد الرحمن بن أبي بكر، وسلمة بن الأكوع، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، وأنس بن مالك، رضوان الله عليهم أجمعين.

(ومن) معجزاته عليه الصلاة والسلام قصة حَنين الجذع، قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل، فكان عليه الصلاة والسلام إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار[1]. وفي رواية أنس حتى ارتجَّ المسجد لخواره. وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوه به. وفي رواية المطلب: وانشق حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت، زاد غيره: فقال عليه الصلاة والسلام: إن هذا بكى لما فقد من الذكر، وزاد غيره: والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزناً على رسول الله. فأمر به فدفن تحت المنبر، وهذا الحديث خرَّجه أهل الصحة ورواه من الصحابة كثيرون، ورواه عنهم من التابعين ضعفُهم، وبمن دون عدَّتهم يقع العلم لمن عُني بهذا الباب، والله المثبِّت على الصواب.

(ومن) معجزاته عليه الصلاة والسلام إبراء المرضى وذوي العاهات، فقد أصيبت يوم أحد عينِ قَتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فردَّها عليه الصلاة والسلام، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما، وبصق على أثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قَرَد، فما ضرب عليه ولا قاح، وأصاب ابن ملاعب الأسنة استسقاء، فبعث إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فأخذ بيده حَثْوَة من الأرض فتفل عليها ثم أعطاها رسوله، فأخذها متعجباً يرى أنه قد هزىء به، فأتاه بها وهو على شفا فشربها فشفاه الله. وتقدم حديث علي ورمده في غزوة خيبر، وغير ذلك كثير مما يعجز قلمنا عن عده ورواه ثقات المسلمين الأعلام.

(أما) ما منحه الله إياه من إجابة دعواته، فروي عن أنس بن مالك قال:

---

(١) الناقة التي مضى عليها عشرة أشهر بعد حملها.

قالت أمي أم سليم: يا رسول الله خادمك أنس أدعُ الله له، فقال: اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته، قال أنس: فو الله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليعادّون اليوم نحو المائة، ودعا لعبد الرحمنِ بن عوف بالبركة، فكان نصيب كل زوجة من زوجاته الأربع من تركته ثمانون ألفاً، وتُصدِّق مرة بِعيرٍ فيها سبعمائة بَعير، وردت عليه تحمل من كل شيء، فتصدق بها وبما عليها وبأقتابها وأحلاسها.

(ودعا) لمعاوية بالتمكين في الأرض فنال الخلافة، ودعا لسعد بإجابة الدعوة فما دعا لأحد إلا استجيب له، وتقدم دعاؤه لعمر بن الخطاب أن يعز الإسلام به. وقال لأبي قتادة: أفلح وجهك، اللهم بارك في شعره وبشره فمات وهو ابن سبعين سنة كأنه ابن خمس عشرة، ودعواته عليه الصلاة والسلام المستجابة أكثر من أن تحصى يطلع عليها قارىء سيرتنا هذه.

(أما) ما أطلعه الله عليه من علم ما لم يكن فمما سارت به الركبان، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، وما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك عليه الصلاة والسلام من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سمّاه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته. وقد خرّج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس، واليمن، والشام، والعراق، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحِيرة إلى مكة، لا تخاف إلا الله، وأن المدينة ستُغزى، وتُفتح خيبر على يد علي في غد يومه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا ويُؤتَوْن من زهرتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر، وقد قدمنا كثيراً من ذلك في هذه السيرة، وقدمنا ما في القرآن من ذلك. وهذا يغنينا عن الإطالة في هذا المقام فحسبك ما سمعت.

ومما ينير بصيرتك أيها القارىء ما مَنَّ الله به على رسولنا من عصمته له من الناس وكفايته من آذاه. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾(1) وقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(2) وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾(3) وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾(4) ولما نزل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. صرف حجّابه، وقال: انصرفوا فقد عصمني الله وقد قدمنا حديث دُعْثُور وإرادته قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعصمة الله لنبينا، وذكرنا كثيراً مما حصل من أبي جهل لما أراد بالرسول المكايد، فكفاه الله شره. وما مَنَّ الله به عليه ليلة الهجرة وحديث سُراقة في الطريق. وعلى الجملة يكفينا من هذا الباب أنه عليه الصلاة والسلام مكث بين أعداء ألدَّاء بمكة ثلاث عشرة سنة، وبين مشابهيهم من المنافقين واليهود عشر سنين، فما تمكن أحد من إيصال أذى إليه ﷺ بل كفاه مولاه شر أعدائه حتى أظهر الدين وتمّمه.

والحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، ونسأله أن يوفق قارئي هذه السيرة إلى اتباع رسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلى أصحابه وأنصاره.

تم الكتاب بعونه تعالى.

(1) سورة المائدة آية ٦٧.
(2) سورة الطور آية ٤٨.
(3) سورة الزمر آية ٣٦.
(4) سورة الحجر آية ٩٥.

فهرس الكتاب







الصفحة	السطر	خطا	صواب
٣٣	الأخير	حلق	خلق
٣٥	الرابع	معصداً	معضداً
٤٢	١٢	المؤمنن	المؤمنين
٤٣	١٧	مة	امةٍ
٤٧	١١	العيب	الغيب
٥١	٦	سبقونا	ما سبقونا
٥٤	٢١	العيم	العليم
٥٦	٢٠	هذ	هذا
٦٩	١١	بالحلفة	بالحلقة
١٤٠	٥	بصروهم	نصروهم
١٥٨	١٣	تمدں	تمدن
٢٤١	٤	مں	من
٢٥٩	١٠	عرم	عزم









لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

إذا كانت الأمم تصنع رجالاتها عاليًا ، فإنّ محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم هو صانع الأمم بل خير أمة أخرجت للناس على الإطلاق.

إنّ هذا الكتاب يسرد بإيجاز لا إطناب فيه سيرة أعظم رجلٍ في تاريخ البشرية قديمها وحاضرها ومستقبلها ، فلم يكن وجوده صلى الله عليه وعلى آله وسلم سلامًا للعالم بل رحمةً مهداةً من الله تعالى للعالمين أجمع.

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين